سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس في أصول الدين

على ضوء الكتاب والسنة



مركز نون
للتأليف والترجمة

شبكة
المعارف
الإسلامية

دروس في أصول الدين

على ضوء الكتاب والسنّة

اسم الكتاب:	دروس في أصول الدين
إعداد:	مركز نون للتأليف والترجمة
نشر:	جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة
الطبعة الأولى:	2014م - 1435هـ

سلسلة المعارف الإسلاميّة

دروس في أصول الدين

على ضوء الكتاب والسنّة

إعداد

مركز نون للتأليف والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 13

الدرس الأوّل: طرقُ المعرفة في الإسلام 15

مقدّمة 17

طرق المعرفة 17

دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام 19

حجّية العقل والوحي 20

العقل والوحي لا يتعارضان 21

الدرس الثاني: الكون في نظر الإسلام 25

الكون مخلوق لله 27

نظام الكون الحالي ليس أبديّاً 27

العلّة والمعلول 28

الوجود ليس مساوقاً للطبيعة المادية 29

خضوع الكون لهداية خاصة 29

الكون نظام كامل 30

الحكمة في خلق الكون 30

الدرس الثالث: الإنسان في نَظَر الإسلام 33

ماهيّة الإنسان 35

خلق الإنسان بفطرة سليمة 35

الإنسان كائن حرّ الإرادة 36

الإنسان مخلوق قابل للتربية والتأديب 36

الإنسان كائن مسؤول 37
كرامة الإنسان 37
رؤية الإسلام للعقل الإنسانيّ 38
ملاك التفاضل بين الناس 38
ثبات الأسس الأخلاقية 39
الانسجام بين الحريّة الفرديّة ومبدأ التكامل المعنويّ..... 40
لا إكراه في الدين 41

الدرس الرابع: مراتب التوحيد (1): التوحيد في الذات والتوحيد في الصفات ... 45
وجود الله تعالى 47
مراتب التوحيد..... 48
التوحيد في الذات..... 48
التوحيد في الصفات..... 49

الدرس الخامس: مراتب التوحيد : (2) التوحيد في الخالقية والتوحيد في العبادة 53
التوحيد في الخالقية..... 55
التوحيد في العبادة 57

الدرس السادس: مراتب التوحيد (3): التوحيد في الربوبية والتوحيد في الحاكمية 63
التوحيد في الربوبيّة 65
التوحيد في الحاكميّة والتقنين 69

الدرس السابع: الصفات الإلهية (1): صفات الذات 73
طرق معرفة الصفات الإلهيّة..... 75
أقسام الصفات الإلهيّة 77
الصفات الثبوتيّة 77
الصفات الذاتية 78

الدرس الثامن: الصفات الإلهية(2): الصفات الفعلية 85
كون الله متكلّماً..... 87
هل القرآن مخلوق أم قديم؟..... 89
كون الله صادقاً 90
كون الله حكيماً 90

الدرس التاسع: الصفات الإلهية(3): الصفات السلبيّةُ والصفات الخبريّة 95
الصفات السلبيّة 97
الصِّفات الخَبَريّة 100
بيان لحقيقة الصفات الخبرية 101
الدرس العاشر: العَدلُ الإلَهيُّ 107
مقدّمة 109
العدل من الصفات الجمالية 110
الذات الإلهيّة منزّهة عن الظلم 110
معنى العدل 111
إدراك العقل للحسن والقبح 112
تجلّيات العدل الإلهيّ في مجالي التكوين والتقنين 113
الهدفيّة في خلق الإنسان 115
الدرس الحادي عشر: القضاء والقَدَر (1) 119
القدر والقضاء لغةً واصطلاحًا 121
القضاء والقدر في الكتاب والسنّة 124
الدرس الثاني عشر: القضاء والقدر (2) 129
لا تنافي بين القضاء والقدر والاختيار 131
الاختيار حقيقة مسلّمة 132
لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين 133
لا تنافي بين علم الله الأزلي وحرّية الإنسان 134
الدرس الثالث عشر: البَداء 139
مقدمة 141
حقيقة البداء 141
أصل لفظة البداء 144
أثر الاعتقاد بالبَداء 145
الدرس الرابع عشر: النبوّة (1): ضرورة النبوّة 149
الأدلّة على ضرورة النُبوّة 151
طُرُق معرفة الأنبياء 155

الدرس الخامس عشر: النبوّة (2): الوحي والمعجزة 159
الوحي 161
المعجزة 164
الدرس السادس عشر: النبوّة (3): عصمة الأنبياء عليهم السلام 169
تفسير العصمة 171
مراتب العصمة 172
منشأ العصمة 176
لا تنافي بين العصمة والاختيار 177
العصمة لا تلازم النبوّة 177
الدرس السابع عشر: النبوّة (4): طرق إثبات نبوّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم 181
الطريق الأول: المعجزة 183
الطريق الثاني: القرائن والشواهد على نبُوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم 185
الطريق الثالث: تصديقُ النبيّ السابق 188
الدرس الثامن عشر: النبوّة (5): معجزة القرآن 193
القرآن الكريم المعجزة الخالدة 195
وجوه إعجاز القرآن الكريم 196
الدرس التاسع عشر: النبوّة (6): صيانة القرآن من التحريف 205
الكتب السماوية الماضية والتحريف 207
أدلّة عدم تحريف القرآن الكريم 208
مناقشة الرّوايات الدالّة على تحريف القرآن وردّها 210
الدرس العشرون: النبوّة (7): خصائصُ نُبُوّةِ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم 215
مقدّمة 217
عالمية دعوة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته 217
إنّ نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء 218
كمال الدين الإسلامي 219
السهولة والاعتدال 220
الدرس الواحد والعشرون: الإمامة (1): دور الإمامة وضرورتها 225
مقدّمة 227
الشيعة لغة واصطلاحاً 227

ما هي وظائف الإمام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟ 229
الإمامة مسألة عقليّة 231
الإمامة والخطر الثلاثي 232
الدرس الثاني والعشرون: الإمامة (2): الإمامة في الأحاديث الشريفة 237
الإمام والخليفة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم 239
حديث الغدير من الأحاديث المتواترة 244
الدرس الثالث والعشرون: الإمامة (3): عصمة الإمام 249
عِصمَة الإمام وطرق معرفته 251
طرق معرفة الإمام 253
الدرس الرابع والعشرون: الإمامة (4): مودّة أهل البيت عليهم السلام ومحبّتهم 259
مودّة أهل البيت في الكتاب والسنّة 261
ثمرة المودّة لأهل البيت عليهم السلام 263
مظاهر المودّة لأهل البيت عليهم السلام 264
إقامة مجالس العزاء 265
الدرس الخامس والعشرون: الإمامة (5): الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 269
ظهور مصلح عالمي في آخر الزمان 271
المصلح العالمي هو الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 271
الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف وليّ إلهيّ غائب عن الأنظار 273
وكلاء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 274
الدرس السادس والعشرون: الإمامة (6): حكمة الغيبة وعلامات الظهور 277
حكمة الغيبة 279
غيبة بعض الأنبياء والأولياء في الأمم السابقة 279
وجود الإمام المعصوم لطف إلهي في حضوره وغيابه 281
طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف 282
علامات ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف 282
الدرس السابع والعشرون: الموت 287
مقدّمة 289
حقيقة الموت 289

الموت سنّة إلهيّة عامّة 291
جهلنا بساعة الموت 291
هل الموت أمرٌ عدميّ نسبيّ أم عدميّ مطلق؟ 292
الموت بيد الله عزّ وجلّ 293
الدرس الثامن والعشرون: الاحتضار 297
ما هو المقصود من الاحتضار؟ 299
صفة المحتضر 300
شدّة النزع 301
حال الكافر عند الاحتضار 301
ما يراه المحتضر من الآخرة 302
تمثّل النبيّ ﷺ والأئمّة للمحتضر المؤمن 302
ما يهوّن سكرات الموت 303
العديلة عند الموت 305
ما هي الأعمال التي تبعد العديلة؟ 305
الدرس التاسع والعشرون: عالَمُ ما بَعدَ الموتِ (1): عالم البرزخ 309
معنى البرزخ لغةً واصطلاحًا 311
البرزخ في الكتاب والسنّة 311
سؤال القبر 314
أقوال العلماء في المساءلة في القبر 315
الدرس الثلاثون: عالم ما بعد الموت(2): المعاد 319
مقدمة 321
ضرورة المعاد 321
جواب الشبهات المثارة حول المعاد 323
معاد الإنسان هو جسمانيّ وروحانيّ 325
تفسير المعاد بالتناسخ وردّه 325
الفرق بين المسخ والتناسخ 327
الدرس الحادي والثلاثون: عالم ما بعد الموت(3): الساعة والنفخ في الصور والحساب 331
أشراط الساعة أو علامات يوم القيامة 333

النَفخُ في الصُّور 335
مراحل الحساب والقيامة 335
الدرس الثاني والثلاثون: عالم ما بعد الموت (3): الشفاعة 341
مقدّمة 343
حقيقة الشفاعة 343
هل يجوز طلب الشفاعة في الدنيا؟ 345
الفرق بين شفاعة الموحدين والوثنيين 347
الدرس الثالث والثلاثون: جزاء الأعمال 351
الإنسان ينال جزاء أعماله 353
الخلود في الجحيم خاصّ بالكفّار 355
الجنة والنار مخلوقتان 356
التوبة من الذنوب في الدنيا 357
الدرس الرابع والثلاثون: معالم الإيمان والكفر 361
حدّ الإيمان والكُفر 363
الإيمان مشروط بالالتزام بالعمل الصالح 364
لا يجوز تكفير المسلم المعتقد بالأصول الثلاثة 366
الدرس الخامس والثلاثون: البدعة 371
معنى البدعة 373
البدعة في الشرع 373
الضابطة الصحيحة في البدعة 375
الدرس السادس والثلاثون: التقيّة 381
أدلّة جواز التقية 383
التقيّة غير مختصة بالكفر 384
التقية واجبة في بعض الحالات فقط 385
الدرس السابع والثلاثون: التوسّل 391
حقيقة التوسل 393
التوسُّل بأسماء الله الحسنى ودعاء الصالحين 394
حقيقة تفسير التوسّل بالأموات؟ 396

الدرس الثامن والثلاثون: الرجعة 401
مقدّمة 403
حقيقة الرجعة 403
كلمات بعض العلماء في الرجعة 403
إمكان الرجعة 405
أدلة وقوع الرجعة 406
الدرس التاسع والثلاثون: صيانة الآثار الإسلامية 411
منافع حفظ آثار السابقين 413
حفظ آثار الأنبياء وتراثهم في القرآن الكريم 414
زيارة قبور المؤمنين 416
المنع عن الغلو 418
الدرس الأربعون: مصادر الحديث وحجيّتها 423
مقدمة 425
حجيّة الأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام 426
المصادر الحديثيّة عند الشيعة 429
الكتب الأربعة الجامعة 429

المقدّمة

الحمدلله رب العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله الطيبين الطاهرين

وبعد

النظام العقائدي لكل دين هو رؤيته الشاملة التي يقدّمها عن العالم من أجل بناء تصـوّر صحيح حوله. هذه الرؤية التي من المتوقّع أن تقدّم أجوبة منطقية وصحيحة حول أسئلة حساسة ومصيرية مرتبطة بفهم هذا الوجود التكويني والإنساني على حد سواء، ليكون هذا الفهم مقدمة لبناء منظومة فكرة وعقائدية متكاملة تمهّد الطريق لاحقاً أمام بناء إيماني قوي وراسخ في النفس، وأرضية صالحة للأعمال الصالحة.

فالعقيـدة تكمـن أهمّيتها الأساسيـة في أنّها مقدمـة حتمية وضروريـة للإيمان والعمـل. بمعنـى أنّه لا إيمان ولا عمل من دون معتقد. بـل كل إيمان وعمل هو مسبوق حكمـاً باعتقاد راسخ وجـازم بماهية هذا الإيمان ونوعيّة هـذا العمل. من هنا تظهر الخطـورة البالغـة فـي عدم الاعتنـاء بهذا البنـاء والتأسيـس العقادئي فـي النفس والعقل، لما سوف يتركه من تداعيات أكيدة على مصير الإنسان في الدنيا والآخرة. مـن هنا نفهم لماذا صنّفـت العقيدة في خانة أصول ومبادئ هـذا الدين وليس من فروعه؛ لأنّها وبكل بساطة تعتبر الأصل الذي تبتنى عليه كل الفروع والمسائل الدينية المتفرّعة عنها.

ولمـا كان هنـاك حاجـة ماسـة وأكيـدة لتبييـن الآراء العقائدية بشـكل مبسّط، واختصار غير مخل من أجل إيصال الحقائق والمعارف المرتبطة بفهم هذا الوجود والكون بقدر المستطاع، وإيصالها إلى أكبر شريحة ممكنة من الناس المتعطّشة إلى معرفـة الحقيقـة بحكم الفطرة التوّاقـة إلى الكمال دوماً، كان هـذا المتن الذي يعد محاولـة في هذا المجال لتقديـم رؤية عقائدية شاملة وعميقة بأسلوب مبسّط وسهل بعيداً عن التعقيدات اللغوية والاصطلاحات العلمية.

والمادة العلميـة لهذا المتن مأخوذة بالأصل من كتاب: «**العقيدة الإسلامية على ضـوء مدرسـة أهل البيـت عليهم السلام**» للشيخ العلامة المحقّق جعفـر السبحاني، إضافة إلـى بعضـ المراجـع العقائدية حيث تدعو الحاجـة، وما قمنا به هـو إعادة ترتيبت وتبويـب وعنونة المادة على شكل دروس متكاملة ومترابطة مع بعضها البعض، مع ما يلـزم في بعض الأحيان مـن تقديم وتأخير في الفقر أو العناوين أو حتى حذف بعض المطالـب التي تعتبر غير ضرورية في موردها. على أمل أن يحقّق هذا الجهد العملي الغرض الأساسي من طرحه والله ولي الوفيق.

والحمد لله رب العالمين

مركز نون للتأليف والترجمة

الدرس الأوّل

طرقُ المعرفة في الإسلام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعدّد طرق وأنواع المعرفة.
2. يوضّح حجّيّة العقل والوحي.
3. يبيّن عدم التعارض بين الوحي والعقل.

مقدّمة

يتميّـز الدين الإسلاميّ بدعوتـه الحثيثة نحو المعرفة، وبأن لا يكون المرء منقادًا إلـى الإيمان بما يطرحه دون تعقّل وتفكّر، بـل وحُكم في الشرع الإسلامي أنّ من أقرّ بالإسـلام وبوجـود الله عن تقليـد بحت فإيمانه غيـر مقبول، ولهذا نجـد المصادر الإسلاميـة الأساسيّة أكان من جهة القرآن الكريـم أم أحاديث المعصومين نجدها مفعمـة بتحريـك العقل نحو التأمل والتفكر بأمور الكـون والحياة والدين، وتدعو إلى ذلك بكلّ إصرار ووضوح.

طرق المعرفة

يستعين الإسـلام لمعرفة الكون، وللوصول إلى الحقائـق الدينيّة بثلاثة أنواع من الأدَوات مع أنّه يعتبر لكلّ واحدٍ منها مجالاً مختصّاً به.

وهذه الطرق هي:

1. الحِسّ، وأهّم الحواسّ هما حاسّتا السمع والبصر.
2. العقـل الّذي يكتشف الحقيقة في مجالٍ محـدودٍ وخاصّ، منطلقاً في ذلك من أُصول ومبادئ خاصّة.
3. الوحي الّذي هو وسيلة لارتباط ثُلّة ممتازة ومميّزة من البشر بعالم الغيب.

وفـي إمكان البشريّة جميعاً أن يستفيدوا مـن الطّريقين الأوّلين في معرفة الكون وفي فهـم الشّريعة كذلك، بينما الطريـق الثالث خاصّ بمن شملتـهُ العنايةُ الإلهيّة، وأبرز نموذج لهذا النمط من النّاس هم رسُلُ الله وأنبياؤه الكرام.

هـذا مضافاً إلـى أنّ أدَوات الحسّ وما يسمّى بالحواسّ الخمسـ، لا يستفاد منها إلاّ فـي مجـال المحسوسات، كما لا يستفاد من أداة العقل إلاّ في مجال محدودٍ يملك العقلُ مبادئه.

علـى حين يكون مجال الوحي أوسع نطاقاً وأكثر شموليّـة، كما أنّه نافذٌ في جميع الأصعدة سواء في مجال العقيدة أو في إطار الوظائف والتّكاليف.

لقـد تحدّث القـرآنُ الكريمُ حولَ هـذه الطرق الثلاث في آياتٍ متعـددة نأتي هنا بنموذجَين منها:

فقد قال تعالى عن الحسّ والعقل:

﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1].

والمـراد من الأفئدةَ في الآية، وهـي جمع فؤاد بقرينة لفظتَي: «السَّمع» و«البصر» هو العقل البشريّ.

علـى أنّ ذَيـلَ الآية المذكورة الـذي يتضّمن أَمـراً بالشُكر يفيـد أنّ على الإنسان أن يستفيـد من هذه الأدَوات الثـلاث؛ لأنّ الشّكر يعني صَـرفَ كلّ نعمةٍ في موضِعها المناسب.

وحول «**الوحي**» قال سبحانه وتعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2].

(1) سورة النحل، الآية 78.
(2) سورة النحل، الآية 43.

إنَّ الإنسان المتديّن يستفيد في معرفة الكون والحياة والعقيدة والدين، من الحسّ، ولكن غالباً ما تكون المدرَكات الحسيّة أَساساً ومنطلقاً لأحكام العقل، أي أَنّ تلك المدرَكات تصنع الأرضيّة للفكر وحُكمه، كما أنّه قد يُستفاد منَ العقل والفكر في معرفة الله وصفاته وأفعاله وتكون حصيلةُ كلّ واحدة من هذه الطرق والأدَوات مقبولةً، ونافذةً ومعتبرة في اكتشاف الحقيقة ومعرفتها.

دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام

تتلخّص دعوةُ الأنبياء والرسُل عليهم السلام في أمرين:

1 - العقيدة.

2 - العمل.

وتتمثّل مهمّتُهم في مجال «**العقيدة**» في الدعوة إلى الإيمان بالله، وصفاته الجماليّة والجلاليّة، وأفعاله.

بينما المقصود من «**العمل**» هو التّكاليف والأحكام التي يجب أن تَقوم الحياةُ الفرديّة والاجتماعيّة على أساسها.

والمطلوبُ في مجال العقيدة إنّما هو العلم واليقين، ومن المسلَّم أنَّه لا يكون شيءٌ ما حجةً، (وبعبارة أُخرى: لا يَتّسِمُ بالحجيّة) إلاّ ما يؤدّي إلى هذا الأمر المطلوب.

ولهذا يجب على كلّ مُسلم أنْ يصلَ في عقائده إلى اليقين، فليس له أن يكتفيَ في هذا المجال بمجرّد التقليد، فيأخذَ عقائدَه تقليداً، ويعتنقها من غير تحقيق.

وأمّا في مجال الوظائف والتّكاليف (العمل) فإنّ ما هو المطلوب فيها هو تطبيق الحياة على أساسها، والأخذُ بموازينها في جميع المَجالات الفرديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة.

وفي هذا الصَعيد تَمَّت بالإضافة إلى اليقين، طُرق أُخرى أيضاً قد أيَّدَتْها الشّريعةُ

وفرض علينا الاعتماد عليها للوصول إلى هذه التّكاليف والوظائف، والرجوع إلى المجتهد الجامع للشّرائط هو أَحدُ الطرق التي أيّدها وأقرّها صاحبُ الشريعة.

حجّية العقل والوحي

نحن نعتمد في أَخذ العقائد والأحكام الدّينيّة على حُجّتين إلَهيّتين هما: العقل والوحي.

وعمدة الفرق بينهما، هو أنّنا نستفيد من «**الوحي**» في جميع المجالات، بينما نستفيد من «**العقل**» في مجالات خاصّة.

والمقصود من «**الوحي**» هو كتابُنا السَّماوي «**القرآن الكريم**» والأحاديث التي تنتهي أسانيدها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وأمّا أحاديث أئمّة أهل البيت عليهم السلام: فبما أنّها تنتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتنبع منه، تسمّى جميعُها بالإضافة إلى أحاديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بالسُّنة، وتُعتَبر من الحجج الإلهيّة.

إنّ العقل والوحي يؤيّد كلٌّ منهما حجيّةَ الآخر وإذا أثبتنا بحكم العقل القطعي حجيّة الوحي، فإنّ الوحي بدوره يؤيّد كذلك حجيّة العقل في مجاله الخاصّ به.

إنّ القرآن الكريم يَقُودُ في كثير من المواضع إلى حكم العقل وقضائه، ويدعو النّاس إلى التّفكر والتّدبر العقلي في عجائب الخلق، ويستعينُ هو كذلك بالعقل لإثبات مضامين دعوته، وليس ثمَّتَ كتابٌ سماويٌ كالقرآن الكريم يحترم المعرفةَ العقليَّة (والقضايا التي يُستدلّ عليها بالعقل السليم). فَالقرآن زاخرٌ بالبراهين العقلية في مجال العقائد، حتّى أنّها تفوقُ الحصرَ.

ولقد أكّد أئمّةُ أهل البيت عليهم السلام على حجيّة العقل وأحكامه في المجالات التي يحقُّ للعقل الحكمُ فيها، حتّى أنّ الإمام السّابع موسى بنَ جعفرٍ عليه السلام عدّه إحدى

الحجـج إذ يقـول: «**إنّ لله علـى النـاس حجّتين: حجّةً ظاهـرةً وحجّةً باطنـةً، فأمّا الظّاهرةُ فالرُّسل والأنبياء والأئمة، وأمّا الباطنةُ فالعُقول**»[1].

العقل والوحي لا يتعارضان

لمّـا كانَ الوحـيُ دليلاً قطعيّاً، وكان العقلُ مصباحاً منيـراً جعلهُ اللّه في كيان كلّ فـرد من أفراد النّوع الإنسانيّ، لذلك لَـزِمَ أنْ لا يقع أيُّ تعارُضٍ بين هاتين الحجّتين الإلَهيَّتين.

ولـو بدا تعارضٌ بدائيٌ أحياناً بينَ هاتين الحجَّتين، فيجب أنْ يُعْلَم بأنّه ناشئٌ من أحد أمرين: إمّا أنّ اسْتنباطنا من الدِّين في ذلك المورد غيرُ صحيح، وإمّا أنّ هناك خطـأً وقع في مقدّمات البرهـانِ العقليّ؛ لأنّ اللّه الحكيم تعالـى لا يدعُو النّاس إلى طريقين متعارضين مُطلقاً.

وكمـا أنّـه لا يُتصَـوَّر أيّ تعارض حقيقيّ بيـن العقل والوحي، كذلـك لا يحدثُ أيُّ تعارضٍ بين «**العلـم**» و«**الوحي**» مطلقاً، وإذا لُوحظَ نـوعٌ من التعارض بين هذين في بعضِ الأحيان فإنّه أيضاً ناشئ من أحد أمرين: إمّا أنْ يكونَ استنباطُنا من الدّين في هذا الموضع استنباطاً خاطئاً، وإمّا أنَّ العلمَ لَمْ يَصل في هذا الموضوع إلى المرحلة القطعيَّة، وغالبًا ما يكون تصوّر التعارض ناشئ من الشقّ الثاني، فإنّ العقل الإنسانيّ قاصر عن إدراك جميع الأمور، فقد تخفى عليه تفاصيلها وعوارضها، بخلاف الوحي الـذي يخبرنـا بما هو من عند اللّه سبحانه، الـذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا فـي السمـاوات، وبالتالي فإنّنا نقدّم هنا حكم الوحـي على حكم العقل لو ظهر لنا أن هناك تعارضًا.

(1) الكليني، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، طهران – إيران، دار الكتب الإسلامية، ج 1، ص16، ح 12.

المفاهيم الرئيسة

- يستعيـن الإسلام لمعرفة الكون، وللوصول إلـى الحقائق الدينيّة بثلاثة أنواع من الأدَوات هي الحِسّ والعقل والوحي.
- إنّ أدَوات الحسّ وما يُسمّى بالحواسّ الخمسـ، لا يستفاد منها إلاّ في مجال المحسوسات، كما لا يستفاد من أداة العقل إلاّ في مجال محدودٍ يملك العقلُ مبادئه.
- الوحي هو وسيلة لارتباط ثُلّة ممتازة ومميّزة من البشر بعالم الغيب.
- نحـن نعتمـد في أَخذ العقائـد والأحكام الدّينيّـة على حُجّتيـن إلَهيّتين هما: العقل والوحي.
- إنّ العقل والوحي يؤيّد كلٌّ منهما حجيّةَ الآخر وإذا أثبتنا بحكم العقل القطعي حجيّة الوحي، فإنّ الوحي بدوره يؤيّد كذلك حجيّة العقل.
- إنّ القـرآن الكريم يَقُودُ إلـى حكم العقل وقضائه، ويدعـو النّاس إلى التّفكر والتّدبّر العقليّ في عجائب الخلق.
- لأنّ الوحـي دليل قطعيّ، والعقـلُ مصباح منير جعلهُ اللّه في كيان كلّ فرد من أفـراد النَّوع الإنسانيّ، لذلك، لَـزِمَ أنْ لا يقع أَيُّ تعارُضٍ بين هاتين الحجَّتينِ الإلَهيَّتين.

أسئلة الدرس

1- تكلّم عن طرق المعرفة الثلاثة.

2- اشرح كيف تكون حجيّة العقل والوحي؟

3- لماذا لا يمكن التعارض بين الوحي والعقل؟

أنواع الإدراك

الألفاظ المستعملة في القرآن الكريم في أنواع الإدراك كثيرة ربما بلغت العشرين، كالظن والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقه، والدراية، واليقين، والفكر، والرأي، والزعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل، ويلحق بها مثل القول والفتوى والبصيرة ونحو ذلك.

والظن: هو التصديق الراجح وإن لم يبلغ حد الجزم والقطع، وكذا الحسبان، غير أن الحسبان كأن استعماله في الإدراك الظني استعمال استعاري، كالعد بمعنى الظن، وأصله من نحو قولنا: عدّ زيداً من الأبطال وحسبه منهم، أي ألحقه بهم في العد والحساب. والشعور: هو الإدراك الدقيق مأخوذ من الشعر لدقته، ويغلب استعماله في المحسوس دون المعقول، ومنه إطلاق المشاعر للحواس.

والذكر: هو استحضار الصورة المخزونة في الذهن بعد غيبته عن الإدراك، أو حفظه من أن يغيب عن الإدراك.

والعرفان: والمعرفة تطبيق الصورة الحاصلة في المدركة على ما هو مخزون في الذهن، ولذا قيل: إنه إدراك بعد علم سابق.

والفهم: نوع انفعال للذهن عن الخارج عنه بانتقاش الصورة فيه.

والفقه: هو التثبّت في هذه الصورة المنتقشة فيه، والاستقرار في التصديق.

والدراية: هو التوغّل في ذلك التثبّت والاستقرار حتى يدرك خصوصية المعلوم وخباياه ومزاياه ولذا يستعمل في مقام تفخيم الأمر وتعظيمه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ

﴿١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾[2].

واليقين: هو اشتداد الإدراك الذهني بحيث لا يقبل الزوال والوهن.

والفكر: نحو سير ومرور على المعلومات الموجودة الحاضرة لتحصيل ما يلازمها من المجهولات. والرأي: هو التصديق الحاصل من الفكر والتروي، غير أنه يغلب استعماله في العلوم العملية مما ينبغي فعله وما لا ينبغي دون العلوم النظرية الراجعة إلى الأمور التكوينية، ويقرب منه البصيرة، والإفتاء، والقول، غير أن استعمال القول كأنه استعمال استعاري من قبيل وضع اللازم موضع الملزوم، لأن القول في شيء يستلزم الاعتقاد بما يدل عليه.

والزعم: هو التصديق من حيث إنه صورة في الذهن، سواء كان تصديقاً راجحاً أو جازماً قاطعاً والعلم كما مر: هو الإدراك المانع من النقيض.

والحفظ: ضبط الصورة المعلومة بحيث لا يتطرق إليه التغير والزوال.

والحكمة: هي الصورة العلمية من حيث إحكامها وإتقانها.

والخبرة: هو ظهور الصورة العلمية بحيث لا يخفى على العالم ترتب أي نتيجة على مقدماتها.

والشهادة: هو نيل نفس الشيء وعينه إما بحس ظاهر كما في المحسوسات، أو باطن كما في الوجدانيات نحو العلم والإرادة والحب والبغض وما يضاهي ذلك[3].

(1) سورة الحاقة، الآيات 1 – 3.

(2) سورة القدر، الآيتان 1 و2.

(3) الطباطبائي، السيد محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، قم – إيران، مؤسسة النشر الإسلامي التبعة لجماعة المدرسين بقم، ج2، ص247.

الدرس الثاني

الكون في نظر الإسلام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن كيف أنّ النظام الكونيّ ليس أبديًّا.
2. يشرح نظام العلّة والمعلول.
3. يبيّن الحكمة من خلق الكون.

الكون مخلوق لله

الكـون – أيّ كلّ مـا سِـوَى الله – مخلـوقٌ لله تعالى، وليس واقعُ الكـونِ هذا سِوَى التعلّـق، والرَّبـط بالله تعالى، وليسـت الكائنات في غنىً عن الحـقّ تعالى ولا لحظةً واحدة، ومعنى قولنا: إنَّ الكون مخلوق لله، هو أنَّ الكون خُلِقَ بإرادة الله ومشيئته، وأنّ نسبتـه إلى الله ليس مِنْ نمط نسبة الوَلد إلى الوالد، فليست العَلاقة بين الكون وبين الله علاقة تولِيد وَولادة، يقول سبحانه: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[1].

نظام الكون الحالي ليس أبديّاً

النّظـام الحالي للكـون ليس خالداً ولا أبديّاً، بل سينهـدمُ ويندثر بعد زمانٍ يعلمه الله وحده علـى وجه التحديد، ويقوم مكانه نظامٌ آخر هو العالم الأخروي وما يسمّى بالمعـاد، كما يقـول تعالـى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2]. وفي قوله سبحانه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[3] إشارَة إلى هذه الحقيقة.

وبالتالـي فإنّ خلق الكون بما أنّه خلـق ذو أهداف تتبيّن في محلّها، يعني ذلك أنّه سـوف يفنى ويزول، أمّا أنّه سيخلق الله كوناً جديداً بعد انهدام هذا الكون الموجود، فهذا خارج عن تفكيرنا ولم يبيّنه الله سبحانه وتعالى.

(1) سورة الإخلاص، الآية 3.
(2) سورة إبراهيم، الآية 48.
(3) سورة البقرة، الآية 156.

العلّة والمعلول

النّظـامُ الكونـيّ الرّاهـنُ قائمٌ علـى أَساس العلَّـة والمعلول، وتقومُ بيـن ظواهرِه وأجزائه رابطةُ العليّة والمعلوليّة.

وتأثيـرُ كلّ ظاهرة في ظاهرة أُخرى متوقّف علـى الإذن الإلهي وَالمشيئة الإلهيّة، وقد تَعلَّقت المشيئة الإلهيّة الحكيمة بتحقيق فيضه غالباً عن طريق النّظام السببيّ، وعَبْرَ الأسباب والمسبّبات.

ومـن الواضـح أَنَّ الاعتقـاد بتأثير الظّواهـر بعضُها في بعضـ، لا يعني الاعتقاد بخالقيّتهـا قَـطُّ، بل المقصود هو أنّ تلك الأسبابَ والعلـل توفِّر - بإذن الله ومشيئته - أرضيّـة تحقّق ظواهر أُخرى، وأَنّ أيّ نوع من أَنواع التأثير والتأثر مظهرٌ من مشيئة الله وإرادته الكلّيّة.

وقـد أشار القرآنُ الكريـمُ إلى كلا المطلبين المذكورَيـن ونعني خضوع الظواهر الطّبيعيـة لقانون العليّة وكذا توقُّفَ تأثيرِ كلّ علّـة وسبب في الكون على الإذن الإلَهيّ الكلّيّ.

ففي المجال الأوّل نكتفي بذكر الآية التالية:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾[1].

وفي المَجالِ الثّاني نكتفي بالآية التّاليَة أَيضاً:

﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ﴾[2].

(1) سورة البقرة، الآية 22.

(2) سورة الأعراف، الآية 58.

الوجود ليس مساوقاً للطبيعة المادية

الوجـودُ ليس مساوقاً للطبيعــة المادّيّة، فهو لا ينحصرُ فـي المادّة وحدها بل هو أوسـع مـن المادّة ومن مـا وراءَها الَّذي أطلقَ عليـه القرآنُ اسْمَ «عالَـمِ الغيبِ»، في مقابل عالَمِ الشَّهادة.

وكمـا أنَّ الظواهـر المادّيّـة يؤثّر بعضُها في بعضٍ بإذن الله تعالـى، كذلك تؤثّر الموجوداتُ الغيبيّة في عالَم الطبيعة بالإذن الإلَهيّ.

وبعبارة أُخرى: هي وسائط للفيض الالَهيّ.

ويتحـدّث القرآنُ الكريمُ عن تأثير مَلائكـة الله وتسَبّبِها لحوادث العالَمِ الطبيعيّ إذ يقول تعالى:

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[1]. ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾[2].

نَستَنتجُ من الآيات الصَريحة السابقة:

إنّ عالَـمَ الخلـق بقسمَيْـه: الطبيعــة ومـا وراء الطبيعة مع ما يسـوده من النظام السببي، قائمٌ برمَّته بمشيئة الله سبحانه ومرتبط به، بلا استثناء.

خضوع الكون لهداية خاصة

إنَّ الكونَ حقيقةٌ تخضع لهداية خاصّة، وإنّ جميع ذرّات العالم – كلٌّ في مرتبته – تتمتّع بحسب ما هي عليها بنورِ الهداية.

كمـا وإنّ مراتـب هـذه الهدايـة العامّـة والشاملة تتكوّن مـن الهدايـة الطبيعيّة، والغريزيّة والتكوينيّة.

ولقـد ذكَّر القرآنُ الكريـمُ في آيات عديدة بهذه الهدايـة التكوينيّة والعامّة، نأتي فيما يلي بواحدة منها: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3].

(1) سورة النازعات، الآية 5.
(2) سورة الأنعام، الآية 61.
(3) سورة طه، الآية 50.

الكون نظام كامل

إنَّ نظامَ الخليقة الحاضر هو النظامُ الأكملُ والأحسنُ، وإنّ جهاز الوجود قد صُوِّر على أفضل صورة، فلا يمكن تصوّر ما هو أكمل وأفضل ممّا عليه الآن.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾[1].

والدليلُ العقليُّ يدعمه، وذلك لأنّ فعلَ أيّ فاعل يتناسب من حيث الكمال والنقص، مع ما عليه الفاعلُ من حيث الصفات والكمالات، فإذا كان الفاعلُ منزَّهاً عن أيّ نقص من حيث الصفات الوجوديّة، كان فعلهُ كذلك عارياً عن أيّ نوع من أنواع النقص والعيب.

وحيث إنّ الله تعالى يُوصف بكلّ الكمالات الوجوديّة على وجهها الأتمّ الأكمل يكون فعله أيضاً – وبطبيعة الحال – أكملَ فعلٍ وأفضلَه. هذا مضافاً إلى أنّ كونَ الله حكيماً يقتضي ما دام خلقُ العالم الأحسن ممكناً، أن لا يوجدَ غيره. والجدير بالذكر أنّ ما في العالَم الطبيعيّ ممّا يسمّى بالشُّرور لا ينافي النظامَ الأحسنَ للوجود، وتوضيحُ هذه النقطة سيأتي في أبحاث «التوحيد في الخالقيّة».

الحكمة في خلق الكون

حيث إنَّ العالَمَ مَخلوقٌ لله – تعالى– وفعلهُ، فإنَّ مصنوعَه كذلك حقٌّ ويتَّسم بالحكمة، فلا مجالَ للعبثيّة واللّاهدفيّة فيه. وقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى هذا الموضوع في آيات عديدة نذكر واحدةً منها هنا: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾[2].

على أنّ غايةَ هذا العالم والإنسان إنّما تَتَحقّق عندما تقومُ القيامة، كما قال الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**فإنّ الغاية القيامة**»[3].

(1) سورة السجدة، الآية 7.
(2) سورة الأحقاف، الآية 3.
(3) نهج البلاغة، الخطبة 190.

المفاهيم الرئيسة

- الكـون مخلـوقٌ للّه تعالى، وليس واقـعُ الكونِ هذا سِوَى التعلّـق، والرَّبط باللّه تعالى.
- النّظام الحاليّ للكون ليس خالداً ولا أبديّاً، بل سينهدمُ ويندثر بعد زمانٍ يعلمه اللّه وحده على وجه التحديد، ويقوم مكانه نظامٌ آخر هو العالم الأخروي.
- النّظـامُ الكوني الرّاهنُ قائمٌ على أَساس العلَّـة والمعلول، وتقومُ بين ظواهرِه وأَجزائه رابطةُ العليّة والمعلوليّة.
- الوجودُ ليس مساوِقاً للطبيعة المادّيّة، فهو لا ينحصرُ في المادّة وحدها بل هو أوسع من المادة ومن ما وراءَها.
- إنَّ الكـونَ حقيقـةٌ تخضـع لهدايةٍ خاصّـة، وإنّ جميع ذرات العالـم - كلٌّ في مرتبته - تتمتّع بحسب ما هي عليها بنورِ الهداية.
- إنّ عالَـمَ الخلق بقسمَيْه: الطبيعة ومـا وراء الطبيعة مع ما يسوده من النظام السببي، قائمٌ برمَّته بمشيئة اللّه سبحانه ومرتبط به، بلا استثناءٍ.
- غاية هذا العالم والإنسان إنّما تَتَحقّق عندما تقومُ القيامة.

أسئلة الدرس

1- بيّن نظام العلّة والمعلول.

2- ما هو المقصود بأنّ نظام الكون نظام كامل؟

3- ما هي الحكمة من خلق الكون؟

العلة والمعلول

إن العلة والمعلول قد يكونان مقترنين تماماً ومع ذلك ندرك علية أحدهما للآخر، كحركة اليد وحركة القلم حال الكتابة، فإن حركة اليد وحركة القلم توجدان دائماً في وقت واحد، فلو كان مردّ الضرورة والعلية إلى استتباع احدى العمليتين العقليتين للأخرى بالتداعي لما أمكن في هذا المثال أن تحتل حركة اليد مركز العلة لحركة القلم، لأن العقل قد أدرك الحركتين في وقت واحد فلماذا وضع إحداهما موضع العلة والأخرى موضع المعلول؟

وبكلمة أخرى: إن تفسير العلية بضرورة سيكولوجية يعني أن العلة إنما اعتبرت علة لا لأنها في الواقع الموضوعي سابقة على المعلول ومولدة له، بل لأن إدراكها يتعقّبه دائماً إدراك المعلول بتداعي المعاني فتكون لذلك علة له، وهذا التفسير لا يمكنه أن يشرح لنا كيف صارت حركة اليد علة لحركة القلم مع أن حركة القلم لا تجيء عقب حركة اليد في الإدراك، وإنما تدرك الحركتان معاً فلو لم يكن لحركة اليد سبق واقعي وسببية موضوعية لحركة القلم لما أمكن اعتبارها علة[1].

(1) الصدر، محمد باقر، فلسفتنا، دار الكتاب الاسلامي، 1425هـ- 2004م، ط3، ص72.

الدرس الثالث

الإنسان في نَظَر الإسلام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن نظرة الإسلام إلى الإنسان من حيث الفطرة والحرّيّة وقابليّته للتربية.
2. يوضّح العلاقة بين تقدّم الأمم أو تخلّفها وبين عقائدها وأخلاقها.
3. يشرح كيف يكون الانسجام بين الحرّيّة الفرديّة ومبدأ التكامل المعنويّ.

ماهيّة الإنسان

الإنسان كائنٌ مركّبٌ من الرّوح والجَسَد، وجَسَده يتلاشى بعد الموت وتتفرّق أَجزاؤه، إلاّ أنَّ روحه تواصل حياتها، وموت الإنسان لا يعني فناءَه، ولهذا فإنّه سيمرّ بحياة برزخيّة حتى تقومَ القيامة، ولقد أشار القرآن الكريم عند بيان مراتب خَلْق الإنسان وتكوّنه، إلى آخر مرحلة من تلك المراحل، وهي التي تتحقّق بنفخ الرّوح في جسده، إذ يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾[1]. كما أنّ القرآن أشار إلى حياة الإنسان البرزخيّة في عدّة آيات أيضاً، ومن تلك الآيات قوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2].

خلق الإنسان بفطرة سليمة

يولَد كلّ إنسان بفطرة نقيّة توحيديّة بحيث إذا بقي بعيداً عن تأثير العوامل الخارجيّة (كالتربية والصّداقة والإعلام) التي تُسبِّب انحرافَ عقيدته، سَلَكَ طريقَ الحق.

فليس ثمّة شرّيرٌ بالولادة والخلقة، بل الشرور والقبائح أُمور ذات صفة عارضة وطارئة تنشأ بسبب العوامل الباطنيّة والاختياريّة.

(1) سورة المؤمنون، الآية 14.
(2) سورة المؤمنون، الآية 100.

ولهـذا فـإنَّ فكرةَ المعصيـة الذاتيّة فـي بنـي آدم، المطروحة من قِبـل العقيدة المسيحيّـة، لا أساس لهـا من الصحّة أبدًا. يقـول القرآنُ الكريمُ فـي هذا الصدد: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾[1].

الإنسان كائن حرّ الإرادة

الإنسـان كائنٌ حـرُّ الإرادة، مخيّـرٌ، يعني أنّه بَعـد أن يدرسَ النواحـي المختلفة لموضـوعٍ مّا في ضـوء العقل، يختار فعلَهُ أو تركَه، دون إجبـار. يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[2]. ويقول أيضاً: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾[3].

الإنسان مخلوق قابل للتربية والتأديب

حيـث إنّ الإنسان يتمتّـع بفطرة سليمة وقوّة تُمكِّنه من معرفـة الخير والشرّ، كما أنّـه كائن مخيّر غير مجبور، لذلك كلّه فهـو موجودٌ قابل للتربية والتأديب، قادرٌ على سلـوك طريق الرّشد والتكامل، وباب العودة إلى اللّه مفتـوحٌ عليه، اللّهم إلاّ أن يتوبَ إلـى اللّه لحظـة المعاينـة، ومشاهدة الموت التـي لا تُقبل فيها التوبـة، ولا تنفع فيها العودة إلى اللّه. ومن أجل هذا تكون دعوةُ الأنبياء موجَّهة إلى جميع البشر حتى نظير فرعون كمـا يقـول تعالـى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾[4]. وعلى هـذا الأسـاس يجـب أن لا ييأس الإنسان مـن الرّحمة والمغفـرة الإلَهيّتين كما يقول تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ ﴾[5].

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) سورة الإنسان، الآية 3.
(3) سورة الكهف، الآية 29.
(4) سورة النازعات، الآيتان 18 و 19.
(5) سورة الزمر، الآية 53.

الإنسان كائن مسؤول

حيث إنّ الإنسان يتمتّع بنورِ العقل وموهبة الاختيار لذلك فإنّه كائنٌ مسؤُولٌ، مسؤولٌ أمام الله، وأمام الأنبياء، والقادة الإلَهيين، وأمام غيره من أبناء البشر الآخرين، وأمام العالَم. وقد صَرّحَ القرآن الكريم بهذه المسؤوليّة الّتي تَقَعُ على الإنسان في آيات عديدة يقول: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[1].

ويقول كذلك: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾[2]. ويقول الرسولُ الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم: «**كُلُّكُمْ راعٍ وَكُلُّكُمْ مَسؤُولٌ عَنْ رَعِيّته**»[3].

كرامة الإنسان

يحظى الإنسان – حسب رؤية القرآن الكريم – بكرامة خاصّة إلى دَرَجة سجود الملائكة له، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[4].

وحيث إنّ جوهر الحياة الإنسانيّة يكمنُ في حفظ الكرامة والعزّة، لهذا منَعَ الإسلام من أيّ عمل يضرُّ بهذه الموهبة، وبعبارة أكثر وضوحاً؛ إنّ أيّ نوع من التسلّط على الآخرين وكذا قبول السلطة من الآخرين ممنوعٌ من وجهة نظر الإسلام منعاً باتاً، فلا بدّ أن يعيش المرء حُرّاً كريماً بعيداً عن أيّ شكلٍ من أشكال الصَّغار والذلّ.

قال الإمام أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: «**ولا تكُنْ عَبْدَ غيرِك وقدْ جَعَلك الله حُرّاً**»[5].

(1) سورة الإسراء، الآية 34.
(2) سورة القيامة، الآية 36.
(3) ابن حنبل، المسند، بيروت– لبنان، دار صادر، ج2، ص54.
(4) سورة الإسراء، الآية 70.
(5) نهج البلاغة، الخطبة 31.

وكما قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله تبارَك وتعالى فَوَّض إلى المؤمن كلَّ شيء إلاّ إذلالَ نفسه**»[1]، ومن الواضح جداً أنّ الحكومات الإلهيّة المشروعة لا تنافي هذا الأصل كما سيأتي توضيحه مستقبلاً.

رؤية الإسلام للعقل الإنسانيّ

إنّ للعقل الإنسانيّ مكانةً خاصّةً في رؤية الإسلام ونظره، وذلك لأنّ ما يميّز الإنسان عن سائر الأحياء بل ويجعله مفضّلاً عليها هو عقله ومدى قوّته في التفكير. من هنا دُعيَ البشر - في آيات عديدة من القرآن الكريم - إلى التفكّر والتأمّل، والتدبّر والتعقّل، إلى درجة، عُدَّت تنمية القوّة العقليّة، والتفكّر في مظاهر الخلق، من علائم العقلاء وذوي الألباب قال تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾[2].

هذا وإنّ الآيات التي ترتبط بضرورة التفكّر والتأمّل في مظاهر الخلقة أكثر بكثير من أن يمكن سردها في هذا البيان المقتضب. وعلى أساس هذه الرؤية نجد القرآن الكريمَ ينهى الناس عن التقليد الأعمى، وعن الاتّباع غير المدروس للآباء والأجداد.

ملاك التفاضل بين الناس

لا فَضْلَ لإنسانٍ على إنسان آخر إلاّ بما يكسبه، ويحصل عليه من الكمالات المعنويّة، وأفضل هذه الكمالات التي هي ملاكُ التفوّق والأفضليّة هو التقوى كما يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[3].

(1) الكليني، الكافي، ج5، ص62، باب من أسخط الخالق في مرضاة المخلوق، ح3.
(2) سورة آل عمران، الآية 191.
(3) سورة الحجرات، الآية 13.

وعلى هذا الأساس لا تكون الخصائصُ العرقيّة والجغرافيّة وغيرها من وجهة نظر الإسلام سبباً للتمييز، ومبرِّراً للتفاخر والتكبّر، والاستعلاء على الآخرين.

ثبات الأسس الأخلاقية

الأُسُسُ الأخلاقيّة التي تُمثّل – في الحقيقة – أُسُسَ الهويّة الإنسانيّة، ولها جذورٌ فطريّةٌ، أُسسٌ ثابتةٌ وخالدةٌ، وهي لا تتغيّر بسبب مُضيّ الزمان وطروءِ التحوّلات والتطوّرات الإجتماعيّة. فمثلاً؛ حسنُ الوفاء بالعهد والعقد، أو حسن مقابلة الإحسان بالإحسان، قضيّةٌ خالدةٌ، وحقيقةٌ ثابتةٌ مطلقاً، وهذا القانون الأَخلاقيّ لا يتغيّر أبداً. وهكذا الحكمُ بقبح الخيانة وخُلف الوعد.

وعلى هذا الأساس فإنّ في الحياة البشريّة الاجتماعيّة طائفةً من الأصول والأُسُس التي امتزجت بالفطرة، والطبيعة البشريّة وتكون ثابتةً وخالدةً. وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى بعض هذه الأصول والأُسُس العقليّة الأخلاقيّة الثابتة إذ قال: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾[1]. وقال: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[2].

وقال أيضًا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[3]. وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾[4].

والكلام عن الأسس الأخلاقية يختلف عن الآداب والعادات والتقاليد التي تكون لدى الناس، فالأخلاق ليست كالآداب، فإن الأولى كما ثبت لدينا أسس ثابتة لا تتغيّر، والثانية قابلة للتغيّر والتبدّل بفعل الزمان والمكان، ولا ضير في ذلك طالما أنّها لا تعبّر عن الثوابت الإنسانية، فعلى سبيل المثال والفرض إذا كان الناس في بلاد الصين لا يقفون للرجل إذا جاءهم، فإنهم في البلاد العربية يعتبر الوقوف للرجل

(1) سورة الرحمن، الآية 60.
(2) سورة التوبة، الآية 91.
(3) سورة يوسف، الآية90.
(4) سورة النحل، الآية 90.

من الاحترام، ولكن لا يعني ذلك أن تقاليد الصينيّين في عدم الوقوف غير أخلاقية إنما هي فقط تقاليد مختلفة، وهكذا في الكثير من العادات والتقاليد، فلا ينبغي الخلط بين الأخلاق والأداب.

الانسجام بين الحريّة الفرديّة ومبدأ التكامل المعنويّ

إنّ الحرّيات الفرديّة (الشخصيّة) في المجالات الاقتصاديّة السياسيّة مقيّدة في الإسلام بأنْ لا تُنافي مبدأ التكامل المعنويّ للإنسان كما هي مقيّدة بأن لا تضرّ بالمصالح العامة.

وفي الحقيقة إنّ حكمة التكليف بالوظائف والواجبات الدينيّة في الإسلام تكمن في أنّ الإسلام يريد بهذه الوظائف التي يُكلّف بها الإنسان أن يحافظ على كرامته الذاتيَّة، وفي الوقت نفسه يضمن سلامة واستمرار المصالح الاجتماعية.

إنّ مَنع الإسلام من الوثنيّة، ونهيه المؤكّد عن تعاطي ومعاقرة الخمر وما شابه ذلك إنّما هو للحفاظ على الكرامة الإنسانيّة (فرداً وجماعة). وبهذا تتضح حكمة التشريعات الجزائية في الإسلام أيضاً.

فالقرآن الكريم يعتبر القصاص ضماناً للحياة الإنسانيّة إذ يقول: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1].

يقول النبيّ الأكرم محمّد ﷺ: «**إنّ المعصيةَ إذا عَملَ بها العبدُ سرًّا لم تَضرّ إلاّ عاملَها، فإذا عَمل بها علانيّة، ولم يُغَيّر أضرّت بالعامّة**»[2]. ويضيف الإمام جعفر الصادق عليه السلام بعد نقل هذا الحديث قائلاً: «**ذلك أنّهُ يذلّ بعَمله دين الله، وَيَقْتدي به أهلُ عَداوة الله**»[3].

(1) سورة البقرة، الآية 179.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، تحقيق: محمد مهدي السيد حسن الموسوي والسيد ابراهيم الميانجي ومحمد الباقر البهبودي، بيروت- لبنان، مؤسسة الوفاء، ج97، ص68،ح15.

(3) الحر العاملي، وسائل الشيعة، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، ج16، باب4، ح1، ص135.

لا إكراه في الدين

إنّ مــن مظاهر الحريّة الفرديّــة في الإسلام هو أن لا يُجبــرَ الشخصُ على قبول الدين واعتناقه كما قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[1].

وذلــك لأن الدّين المطلــوب في الإسلام هــو الاعتقاد والإيمــان القلبيّان وهما لا يتحقّقــان في قلب الإنسان بالعُنف والقهر، والقسر والإجبار، بل ينشئان بعد حصول مقدّمات أهمها اتّضاح الحقّ والباطل وتميّز أحدهما عن الآخر.

فإذا حَصَلت مثل هذه المعرفة اختار الإنسانُ الحقَّ في ظروف طبيعيّة قطعاً.

صحيــح أنّ «الجهاد» هو أحد الفرائــض والواجبات الإسلاميّة المهمّة جداً، ولكن لا يعنــي الجهادُ قــط إجبارَ الآخرين على اعتنــاق الإسلام، بل المقصــود منه إزالة الموانــع والعراقيل عــن طريق الدعوة الإسلاميّة وإبلاغ الرسالــة الإلهيّة إلى مسامع الناس في العالم لكي يتبيّن الرّشد من الغيّ.

ومــن الطبيعــيّ إذا مَنَــعَ أربــاب الثــروة والسلطة انطلاقاً مــن الدوافــع المادّيّة والشيطانيّة مــن إبلاغ الرسالة الإلهيّة الهادية إلى مسامع الناس وأفئدتهم، اقتضت فلسفــة النبــوّة (وهي هداية البشريّــة وإرشادهم) أن يقوم المجاهــدون بإزالة هذه الموانــع، والعراقيل، لتتوفّر الشروط والظروف اللازمــة لإبلاغ دعوة الحقّ إلى أبناء البشرية.

اتّضح ممّا سبق من الأبحاث، رؤية الإسلام حول الكون والإنسان والحياة، على أنّ هناك نقاطاً وأصولاً أُخرى أيضاً سنأتي بها في مكانها المناسب. وها نحن نشرع في استعراض مواقف الإسلام ورؤاه في صعيد المعتقدات والأحكام.

(1) سورة البقرة، الآية 256.

المفاهيم الرئيسة

- الإنسان كائنٌ مركّبٌ من الرّوح والجَسَد، وجَسَده يتلاشى بعد الموت وتتفرّق أَجزاؤه، إلاّ أنَّ روحه تواصل حياتها.
- يولَد كلّ إنسان بفطرة نقيّة توحيديّة بحيث إذا بقي بعيداً عن تأثير العوامل الخارجيّة (كالتربية والصَداقة والإعلام) التي تُسبِّب انحرافَ عقيدته، سَلَكَ طريقَ الحق.
- الإنسان كائنٌ حرُّ الارادة، مخيّرٌ، يعني أنّه بَعد أن يدرسَ النواحي المختلفة لموضوعٍ مّا في ضوء العقل، يختار فعلَهُ أو تركَه، دون إجبار.
- الإنسان موجودٌ قابل للتربية والتأديب، قادرٌ على سلوك طريق الرشد والتكامل، وباب العودة إلى الله مفتوحٌ عليه.
- لا فَضْلَ لإنسانٍ على إنسان آخر إلاّ بما يكسبه، ويحصل عليه من الكمالات المعنوية، وأفضل هذه الكمالات التي هي ملاكُ التفوّق والأفضليّة هو التقوى.
- الأُسُسُ الأخلاقيّة التي تُمثّل أُسُسَ الهويّة الإنسانيّة، ولها جذورٌ فطريّةٌ، أُسسٌ ثابتةٌ وخالدةٌ، وهي لا تتغيّر.
- إنّ الحرّيّات الفرديّة (الشخصيّة) في المجالات الاقتصاديّة السياسيّة مقيّدة في الإسلام بأنْ لا تُنافي مبدأَ التكامل المعنويّ للإنسان.

أسئلة الدرس

1- اذكر الشواهد التي تبرز تكريم الإسلام للإنسان.

2- ما هو المقصود بثبات الأسس الأخلاقيّة؟

3- تكلّم عن الانسجام بين الحرّيّة الفردية ومبدأ التكامل المعنوي.

الحرية

الحريــة هــي انعتاق الإنســان وتحرّره من أســر الرق والطغيــان، وتمتعه بحقوقه المشروعة. وهي من أقدس الحقوق وأجلها خطراً، وأبلغها أثراً في حياة الناس.

لذلك أقر الإسلام هذا الحق وحرص على حمايته وسيادته في المجتمع الإسلامي. وليســت الحرية كما يفهمها الأغرار هي التحلل مــن جميع النظم والضوابط الكفيلة بتنظيم المجتمع، وإصلاحه وصيانة حقوقه وحرماته، فتلك هي حرية الغاب والوحوش الباعثة على فساده وتسيبه. وإنما الحرية الحقة هي: التمتع بالحقوق المشروعة التي لا تناقض حقوق الآخرين ولا تجحف بهم. وإليك طرفاً من الحريات:

1 - الحرية الدينية:

فمــن حق المسلــم أن يكون حــراً طليقاً في عقيدتــه وممارسة عباداتــه، وأحكام شريعته. فلا يجوز قسره على نبذها أو مخالفة دستورها، ويعتبر ذلك عدواناً صارخاً على أقدســ الحريات، وأجلها خطراً في دنيا الإسلام. والمسلمين. وعلى المسلم أن يكــون صلباً في عقيدته، صامــداً إزاء حملات التضليل التــي يشنها أعداء الاسلام، لإغواء المسلمين وإضعاف طاقاتهم ومعنوياتهم.

2 - الحرية المدنية:

ومــن حق المسلم الرشيد أن يكون حراً في تصرفاتــه، وممارسة شؤونه المدنية، فيستوطــن ما أحــب من البلدان، ويختار ما شاء من الحــرف والمكاسب ويتخصص فيمــا يهوى من العلوم، وينشئ ما أراد من العقــود، كالبيع والشراء والإجارة والرهن ونحوها. وهو حر في مزاولة ذلك على ضوء الشريعة الإسلامية.

3 - حرية الدعوة الإسلامية:

وهذه الحرية تحض الأكفاء من المسلمين القادرين على نشر التوعية الإسلامية، وإرشاد المسلمين وتوجيههم وجهة الخير والصلاح. وذلك ما يبعث على تصعيد المجتمع الإسلامي ورقيه دينياً وثقافياً واجتماعياً، ويعمل على وقايته وتطهيره من شرور الرذائل والمنكرات.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء**»[2].

(1) سورة آل عمران، الآية 104.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج97، ص94.

الدرس الرابع

مراتب التوحيد (1)

التوحيد في الذات والتوحيد في الصفات

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح طرق إثبات وجود الله من خلال القرآن.
2. يبيّن معنى التوحيد الذاتي.
3. يبيّن معنى التوحيد في الصفات.

وجود الله تعالى

إنّ الاعتقاد بوُجود الله أصلٌ مشترك بين جميع الشرائع السماويّة، وأساساً يكمنُ الفارقُ الجوهريُّ والأساسيُّ بين الإنسان الالَهيّ المتديّن (مهما كانت الشريعة التي ينهجها) والفرد الماديّ، في هذه المسألة. إنّ القرآنَ الكريمَ يعتبر وجودَ الله أمراً واضحاً وغنيّاً عن البرهنة، ويرى أنّ الشك والتردّد في هذه الحقيقة أمر غير مبرَّر، بل ومرفوضاً كما قال تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

إلاّ أنّه رغم وضوح وجودِ الله وبداهته قد وضع القرآنُ الكريمُ أمام من يريدُ معرفة الله عن طريق التفكّر والبرهنة، وإزالة جميع الشكوك والاحتمالات المضادّة عن ذهنه، طرقاً تؤدّي هذه المهمّة وأبرزها هو:

1 ـ إحساس الإنسان بالحاجة إلى كائنٍ أعلى، هذا الإحساس الذي يتجلّى في ظروف وحالات خاصّة، وهذا هو نداء الفطرة الإنسانيّة التي تدعوه إلى مبدأ الخلق يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ﴾[2]. ويقول أيضاً: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾[3].

(1) سورة إبراهيم، الآية 10.
(2) سورة الروم، الآية 30.
(3) سورة العنكبوت، الآية 65.

2. الدعـوة إلـى مطالَعة العالَـم الطبيعيّ والتأمّـل في عجائب المخلوقـات التي هي آيـاتٌ واضحـةٌ، ودلائلُ قويةٌ على وجود الله. إنّها آيات تـدلّ على تأثير ودور العلم والقـدرة، والتدبيـر الحكيم فـي عالم الوجـود: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1]. إنّ الآيـات في هذا المجال كثيرة وما ذكرناه ليس سوى نماذج من ذلك.

ومن البديهيّ أن ما ذكرناه لا يعني بالمرّة أنّ الطريق إلى معرفة وجود الله وإثباته يختصّ في هذين الطريقين، بل هناك طرق عديدة أخرى لإثبات وجود الله أتى بها علماء العقيدة، والمتكلّمون المسلمون في مؤلفاتهم المختصّة بهذه المواضيع.

مراتب التوحيد

تقـوم جميـعُ الشرائع والمناهـج السماوية علـى أساس التوحيد كمـا وأنّ الاعتقاد بالتوحيـد هـو أبرز أصلٍ مشترك بين تلك الشرائـع، وإن كان هناك شيء من الانحراف لـدى أتبـاع بعض تلك الشرائع في هـذه العقيدة المشتركة. وفيمـا يأتي مراتب التوحيد وأبعاده في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، والبراهين العقلية:

التوحيد في الذات

إنّ أوّل مرتبة من مراتب التوحيد هو التوحيد الذاتيّ، وللتوحيد الذاتيّ معنيان:

1. إنّ الله واحدٌ، لا مثيل له ولا نظير ولا شبيهَ ولا عديل.
2. إن الذات الإلهيّة المقدّسة ذاتٌ بسيطةٌ لا كثرةَ فيها، ولا تركّب.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حول كلا المعنيَين:

أ. «**هُو وَاحدٌ لَيسَ له في الأشْياء شَبَهٌ**».

ب. «**وإنّه عزّ وجل أحديّ المعنى لا ينقسم في وجود ولا وَهم ولا عقل**»[2].

وسورة «**الإخلاص**» التي تعكس عقيدة المسلمين في مجال التوحيد تشير إلى كلا القسمين:

(1) سورة آل عمران، الآية 190.

(2) الصدوق، التوحيد، قم – إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، ص 81، الباب 3، الحديث 3.

فقوله تعالى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1] إشارةٌ إلى القسم الأوّل.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾[2] إشارةٌ إلى القسم الثاني.

وعلى هذا الأساس يكون «التثليث» باطلاً من وجهة نظر الإسلام، وقد صرّح القرآنُ الكريمُ في آيات عَديدة بعدم صحة ذلك.

كما أنّ هذه المسألة تَناولَتْها الكتبُ الكلاميّة (العقيديّة) بالبحث المُفَصَّل وفَنَّدَتْ التثليثَ بطرق مختلفة، ونحن نكتفي هنا بذكر طريق واحد: إنّ التثليث بمعنى كون الإلَه ثلاثاً لا يخلو عن أحد حالين:

أ. إمّا أن يكون لكلٍّ واحد من هذه الثلاثة وجودٌ مستقلٌّ، وشخصيّة مستقلّة، أي أنْ يكون كلُّ واحد منها واجداً لكلّ حقيقة الألوهية، وفي هذه الصورة يتنافى هذا مع التوحيد الذاتيّ بمعناه الأوّل (أي كون الله لا نظير له).

ب. وإمّا أن تكون هذه الآلهة الثلاثة ذات شخصيّة واحدة، لا متعدّدة ويكون كلُّ إلَه جزءاً من تلك الحقيقة الواحدة، وفي هذه الصورة يكون التثليث كذلك مستلزماً للتركب، ويخالف المعنى الثانيَ للتوحيد الإلَهيّ (أي بساطة الذات الإلهيّة).

التوحيد في الصفات

المرتبة الثانيّة من مراتب التوحيد هو: التوحيد في صفات الذات الإلهيّة.

نحن نعتقد أنّ الله تعالى موصوف بكلّ الصفات الكمالية، وأنّ العقلَ والوحيَ معاً يَدُلاّن على وجود هذه الكمالات في الذات الإلهيّة المقدسة. وعلى هذا الأساس فإنّ الله عالمٌ، قادرٌ، حيٌّ، سميعٌ، بصيرٌ وغيرها من الصفات...

وهذه الصفات تتفاوت فيما بينها من حيث المفهوم، فما نفهمه من لفظة «**عالم**» غير ما نفهمه من لفظة: «**قادر**». ولكن النقطة الجديرة بالبحث هو أنّ هذه الصفات

(1) سورة الإخلاص، الآية 4.

(2) سورة الإخلاص، الآية 1.

كما هي متغايرة من حيث المفهوم هل هي في الواقع الخارجيّ متغايرة أم متحدة؟

يجب القول في معرض الإجابة على هذا السؤال: حيث إنّ تغايرَها في الوجود، والواقع الخارجي، يستلزم الكثرةَ والتركّب في الذات الإلهيّة المقدسة، لذلك يجب القولُ حتماً بأنّ هذه الصفات مع كونها مختلفةً ومتغايرةً من حيث المعنى والمفهوم إلاّ أنّها في مرحلة العينيّة الخارجيّة، والواقع الخارجيّ متحدةٌ.

وبتعبير أخر: إنّ الذات الإلهيّة في عين بساطتها، واجدةٌ لجميع هذه الكمالات، لا أنّ بعض الذات الإلهيّة «**علم**» وبعضها الآخر «**قُدرة**» والقسم الثالث هو «**الحياة**» بل هو سبحانه، كما يقول المحقّقون: علمٌ كلُّه وقدرةٌ كلّهُ وحياةٌ كلُّه... وعلى هذا الأساس فإنّ الصفات الذاتية للّه تعالى، مع كونها قديمةً وأزليةً فهي في نفس الوقت عين ذاته سبحانه لا غيرها.

وأمّا ما يقولهُ فريقٌ من أنّ الصفات الإلهيّة قديمةٌ وأزليةٌ ولكنها زائدةٌ على الذات غير صحيح، لأنّ هذه النظرة تنبع في الحقيقة من تشبيه صفات اللّه بصفات الإنسان وحيث إنّ صفات الإنسان زائدةٌ على ذاته فقَد تصوَّروا أنّها بالنسبة إلى اللّه كذلك.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لم يَزل اللّه - جلّ وعزّ - ربُّنا والعلمُ ذاتُه ولا معلومَ، والسَمعُ ذاتُه ولا مسموعَ، والبَصَرُ ذاتُه ولا مُبْصَرَ، والقدرةُ ذاتُه ولا مقدورَ**»[1].

ويقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «**وكمالُ الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلِّ صفةٍ أنّها غيرُ الموصوف، وشهادة كلّ موصوفٍ أنّه غير الصفة**»[2]، [3].

(1) الصدوق، التوحيد، ص 139 الباب 211، الحديث 1.

(2) نهج البلاغة، الخطبة: 1.

(3) سمّى بعض من لا إلمامَ له بالمسائل الكلاميّة هذه النظرية بالتعطيل والمعتقدينَ بها بالمعطلة، في حين أنّ المعطّلة إنما يُطلَقُ على من لا يُثبت الصفات الجمالية للذات الإلهيّة، ويستلزم موقفُهم هذا خلوَّ الذات الإلهيّة من الكمالات الوجودية، وهذه العقيدة الخاطئة لا علاقة لها مطلقاً بنظرية (عينيّة الصفات للذات الإلهيّة ووحدتهما خارجاً) بل نظريةُ العينيّة هذه في عين كونها تُثبت الصفاتِ الجماليّة والكماليّة للّه، مُنزَّهَة من الإشكالات والاعتراضات الواردةِ على نظريّة زيادةِ الصفاتِ على الذات.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ الاعتقاد بوُجود اللّه أصلٌ مشترك بين جميع الشرائع السماويّة.
- إنّ القـرآنَ الكريمَ يعتبر وجودَ اللّه أمراً واضحاً وغنيّاً عن البرهنة، ويرى أنّ الشك والتردّد في هذه الحقيقة أمر غير مبرَّر.
- وضـع القرآنُ الكريمُ أمام من يريدُ معرفة اللّه عـن طريق التفكّر والبرهنة، طرقاً تؤدّي هذه المهمّة وأبرزها هو:

1. إحساس الإنسان بالحاجة إلى كائنٍ أعلى.
2. الدعوة إلى مطالَعة العالَم الطبيعيّ والتأمّل في عجائب المخلوقات.

- تقوم جميعُ الشرائع والمناهج السماوية على أساس التوحيد كما وأنّ الاعتقاد بالتوحيد هو أبرز أصلٍ مشترَكٍ بين تلك الشرائع.
- إنّ أوّل مرتبة من مراتب التوحيد هو التوحيد الذاتيّ.
- نحـن نعتقد أنّ اللّه تعالى موصوف بكلّ الصفات الكمالية، وأنّ العقلَ والوحيَ معـاً يَدُلاّن على وجود هذه الكمـالات في الذات الإلهيّـة المقدسة،وعلى هذا الأساس فإنّ اللّه عالمٌ، قادرٌ، حيٌّ، سميعٌ...
- إنّ الذات الإلهيّة في عين بساطتها، واجدةٌ لجميع هذه الكمالات.

أسئلة الدرس

1- ما هي الطرق التي وضعها القرآن الكريم لإثبات وجود اللّه؟

2- ما هو المقصود من التوحيد في الذات؟

3- ما هو المقصود من التوحيد في الصفات؟

أهل التوحيد

عـن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي بعثني بالحقّ بشيراً لا يعذّب الله بالنـار موحّـداً أبـداً، وإنّ أهل التوحيـد لَيشْفَعون فيشفَّعون، ثـمّ قال ﷺ: إنّه إذا كان يـوم القيامـة أمر الله تبارك وتعالى بقوم ساءت أعمالهم في دار الدنيا إلى النـار، فيقولـون يا ربّنـا كيف تدخلنا النار وقـد كنّا نوحّدك فـي دار الدنيا؟ وكيف تحـرق بالنـار ألسنتنـا وقد نطقـت بتوحيدك فـي دار الدنيا؟ وكيف تحـرق قلوبنا وقـد عقـدت علـى أن لا إلـه إلّا أنت؟ أم كيف تحـرق وجوهنا وقـد عفّرناها لك في التراب؟ أم كيف تحرق أيدينا وقد رفعناها بالدعاء إليك؛ فيقول الله جلّ جلاله: عبـادي ساءت أعمالكم فـي دار الدنيا فجزاؤكم نار جهنّم، فيقولون: يا ربّنا عفوك أعظم أم خطيئتنا؟ فيقول عزّ وجلّ: بل عفوي، فيقولون: رحمتك أوسع أم ذنوبنا؟ فيقول عزّ وجلّ: بل رحمتي، فيقولون: إقرارنا بتوحيدك أعظم أم ذنوبنا؟ فيقول عزّ وجلّ: بل إقراركم بتوحيدي أعظم، فيقولون: يا ربّنا فليسعنا عفوك ورحمتك التـي وسعت كلّ شـيء، فيقول الله جلّ جلاله: ملائكتي وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحبّ إليّ من المقرين لي بتوحيدي وأن لا إله غيري، وحقٌّ عليّ أن لا أُصلي بالنار أهل توحيدي، أدخلوا عبادي الجنّة**»[1].

(1) الصدوق، التوحيد، ص31، ح31.

الدرس الخامس

مراتب التوحيد (2)

التوحيد في الخالقية والتوحيد في العبادة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن المقصود من التوحيد في الخالقيّة.
2. يبيّن المقصود من التوحيد في العبادة.
3. يوضح الفرق بين العبادة والتكريم.

التوحيد في الخالقية

المرتبة الثالثة من مراتب التوحيد هي التوحيد في الخالقية، بمعنى انّه لا خالق إلاَّ اللّه، وأنّ الوجود برمته مخلوقُه، وقد أكّد القرآن الكريم على هذه الحقيقة إذ قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[1]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾[2].

وليس الوحي وحده يثبت ذلك بل يقول به العقل ويؤكّده، لأنّ كلّ ما سوى اللّه ممكنٌ محتاجٌ، وترتفع حاجته ويتحقّق وجوده من جانب اللّه.

إنّ التوحيد في الخالقيّة لا يعني نفي أصل السببيّة والعليّة في عالم الوجود، لأنّ تأثيرَ كلِّ ظاهرة ماديّة في مثلها منوطٌ بإذن اللّه، ووجودُ السبب وسَبَبيّتُه كلاهُما من مظاهر المشيئة الإلهيّة، فاللّه سبحانه هو الذي أعطى النور، والضوء للشمس والقمر، وإذا أراد سَلْبَه عنهما فعل ذلك دون مانع ومنازع، ولهذا كان الخالق الوحيد بلا ثان.

وقد أيّد القرآن الكريم – كما أسلفنا سابقًا – قانون العليّة ونظام السببيّة في الكون كما قال اللّه: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾[3]. فقد صَرَّحَتِ الآيةُ المذكورة بتأثير الرّياح في تحريك السحابِ وسَوْقها.

(1) سورة الرعد، الآية 16.
(2) سورة غافر، الآية 62.
(3) سورة الروم، الآية 48.

إنّ تعميم خالقيّة الله على جميع الظواهر الطبيعيّة لا يستلزم أبداً أن ننسب أفعال البشر القبيحة إلى الله تعالى، لأنّ كلّ ظاهرة من الظواهر الكونيّة لكونها كائناً إمكانيّاً وإن كان مستحيلاً أن ترتدي ثوب الوجود من دون الاستناد إلى القدرة، والإرادة الإلهيّة الكليّة.

ولكن في مجال الإنسان يجب أن نضيف إلى ذلك، أنّ الإنسان لكونه كائناً مختاراً، وموجوداً ذا إرادة، فهو يفعلُ أو يترك بإرادته واختياره بحكم التقدير الإلهيّ أي إنّ الله قدّر وشاء أن يفعلَ الإنسان ما يريد فعلهُ بإرادته، ويترك ما يريد تركه بإرادته، لهذا فإنّ اصطباغ الفعل البشري من حيث كونه طاعة أو معصية لله تعالى ناشئ من نوعيّة إرادته واختيار الإنسان نفسه.

وبعبارة أُخرى: إنّ الله واهبُ الوجود، والوجود مطلقاً مستند إليه، ولا قبح في الأمر من هذه الناحية كما قال: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ﴾[1]. ولكنّ جَعْلَ وجود هذا الفعل مطابقاً أو غير مطابق لمعايير العقل والشرع، نابعٌ في الحقيقة من كيفيّة اختيار الإنسان وإرادته، وعزمه. ولإيضاح المقصود نأتي بمثال: إنّ الأكل والشرب من أفعال الإنسان بلا ريب فيقال أكل فلان وشرب، ولكنّ كلاً من الفعلين يشتملان على جهتين:

الأولى: الوجود، وهو الأصل المشترك بينه وبين سائر الموجودات.

الثانيّة: تحديد الوجود وصبّه في قالب خاص وانصباغه بعنواني الأكل والشرب، فالفعل من الجهة الأولى منسوب إلى الله سبحانه، فلا وجود في الكون إلاّ وهو مفاض منه تعالى، ولكنّه من الجهة الثانيّة منسوب إلى العبد إذ هو الذي باختياره وقدرته صَبَغ الوجود بصبغة خاصة وأضفى عليه عنواني الأكل والشرب، فهو بفمه يمضغ الغذاء ويبلع الماء.

(1) سورة السجدة، الآية 7.

وبعبارة أُخرى: إنّ الله سبحانه هو الذي أقدر العبد على إيجاد الفعل، وفي الوقت نفسه أعطى له الحرّيّة لصرف القدرة في أيّ نحو شاء، وهو صرفها في مورد الأكل والشرب.

التوحيد في العبادة

إنّ التوحيدَ في العبادة هو الأصل المشترك والقاعدة المتّفق عليها بين جميع الشرائع السماويّة. وبكلمة واحدة: إنّ الهدف الأسمى من بَعث الأنبياء والرُسُل الإلَهيّين هو التذكير بهذا الأصل كما يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1]. إنّ جميع المسلمين يعترفون في صلواتهم اليوميّة بهذا الأصل ويقولون: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[2].

وعلى هذا الأساس فإنّ وجوبَ عبادة الله وحده، والاجتناب عن عبادة غيره أَمرٌ مسلَّمٌ لا كلامَ فيه، ولا يخالف أحد في هذه القاعدة الكلّيّة أبداً، وإنّما الكلام هو في أنّ بعض الأعمال والممارَسات هل هي مصداق لعبادة غير الله أم لا؟ وللوصُول إلى القول الفصل في هذا المجال يجب تحديد مفهوم العبادة تحديداً دقيقاً، وتعريفها تعريفاً منطقياً، بغية تمييز ما يدخل تحت هذا العنوان ويكون عبادة، ممّا لا يكون كذلك، بل يُؤتى به من باب التعظيم والتكريم.

لا شكّ ولا ريبَ في أنّ عبادةَ الوالدين والأنبياء والأولياء حرامٌ وشركٌ، ولكن مع ذلك يكون احترامهم واجباً وعينَ التوحيد: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[3].

(1) سورة النحل، الآية 36.
(2) سورة الفاتحة، الآية 5.
(3) سورة الإسراء، الآية 23.

والآن يجب أن نرى ما هو العنصر الذي يميّز «العبادةَ» عن «التكريم»؟ وكيف يكون العملُ الواحدُ في بعض الموارد (مثل سجود الملائكة لآدم، وَسُجود يعقوب وأولاده ليوسف) عينَ التوحيد، ولكن نفسَ العمل يكونُ في مواردَ أُخرى عينَ الشرك والوثنيّة.

إنّ العبادَة (التي نُفيت عَنْ غير الله ونُهي عنها) عبارة عن خضوع إنسانٍ أمام شيء أو شخصٍ باعتقاد أنّ بيده مصير العالم كلّه أو بعضه، أو بيده اختيار الإنسان ومصيره، وأنّه مالك أمره، وبتعبير آخر: ربّه.

أمّا إذا كان الخضوع أمام كائن مّا لا بهذا الاعتقاد، إنّما من جهة كونه عَبداً صالحاً لله، وصاحبَ فضيلة وكرامة، أو لكونه منشأَ إحسان، وصاحب يدٍ على الإنسان، فإنّ مثل هذا العمل يكون مجردَ تكريم وتعظيم لا عبادةً له.

ولهذا السبب بالذات لا يوصف سجود الملائكة لآدم، أو سجود يعقوب وأَبنائه ليوسف بصفة الشرك والعبادة فهذا السجود كان ينبع من الاعتقاد بعبوديّة آدم ويوسف إلى جانب كرامتهما ومنزلتهما عند الله، وليس نابعاً من الاعتقاد بربوبيّتهما أو أُلوهيّتهما.

بالنظر إلى هذه الضابطة يمكن الحكم في ما يقوم به المسلمون في المشاهد المشرَّفة من احترام وتكريم لأولياء الله المقرَّبين، فإنَّ من الواضح أنّ تقبيل الضرائح المقدّسة، أو إظهار الفَرَح والسُرور يوم ميلاد النبيّ وبعثته ﷺ لا ينطوي إلاّ على تكريم النبي الكريم ولا يُقصَد منه إلاّ إظهار مودّته ومحبته ولا تكون ناشئةً من أُمورٍ مثل الاعتقاد بربوبيته قط.

وهكذا الحال في الممارسات الأخرى مثل إنشاء القصائد والأشعار في مدح أولياء الله أو مراثيهم، وكذا حفظ آثار الرسالة، وإقامة البناء على قبور عظماء الدين، فإنّها ليست بشركٍ ولا بدعة. وأَمّا كونها ليست بشركٍ فلأنّها تنبع من مودَّة

أَوليــاء الله (لا الاعتقاد بربوبيّتهــم). وأمّا كونها ليست ببدعَة أيضاً فلأنّ جميع هذه الأعمال تقومُ على أساسٍ قرآنيّ ورِوائي، وينطلق من أصل وجوب محبّة النبيّ وآله.

فأَعمال التكريم هذه مَظْهَرٌ من مظاهِر إبراز هذه المودّة والمحبّة التي حثّ عليها الكتاب والسنّة (وسيأتي توضيح هذا الموضوع في الفصل المتعلّق بالبدعة لاحقاً).

وفــي المقابل يكــون سجودُ المشركيــن لأصنامهم مرفوضاً ومــردوداً لكونه نابعاً من الاعتقــاد بربوبيّتها ومدبريَّتها وأنّ بيدها قسماً من شؤون الناس... أو على الأقل لأنّ المشركيــن كانــوا يعتقدون بــأنّ العزّة والذِلّــة، والمغفرة والشفاعــة بأَيدي تلك الأصنام!!.

المفاهيم الرئيسة

- المرتبــة الثالثة من مراتــب التوحيد هي التوحيد فــي الخالقية، بمعنى انّه لا خالق إلاَّ اللّه، وأنّ الوجود برمته مخلوقُه.
- إنّ التوحيــد في الخالقيّــة لا يعني نفي أصل السببيّة والعليّة في عالم الوجود، لأنّ تأثيرَ كلِّ ظاهرة مادّيّة في مثلها منوطٌ بإذن اللّه.
- إنّ تعميــم خالقيّة اللّه على جميع الظواهر الطبيعيّة لا يستلزم أبداً أن ننسب أفعال البشر القبيحة إلى اللّه.
- المرتبة الرابعة: التوحيد فــي العبادة وهو الأصل المشترك والقاعدة المتّفق عليها بين جميع الشرائع السماويّة.
- إنّ وجــوبَ عبــادة اللّه وحــده، والاجتناب عن عبادة غيره أَمــرٌ مسلَّمٌ لا كلامَ فيه، ولا يخالف أحد في هذه القاعدة الكلّيّة أبداً.
- إنّ العبــادَة (التــي نُفيت عَنْ غيــر اللّه ونُهي عنها) عبارة عــن خضوع إنسانٍ أمام شيء أو شخصٍ باعتقاد أنّ بيده مصير العالم كلّه أو بعضه.
- إنّ مــا يقوم بــه المسلمون في المشاهد المشرَّفة مــن احترام وتكريم لأولياء اللّه المقرَّبيــن، لا ينطــوي إلاّ علــى تكريم النبــي وليس ناشئاً مــن أمورٍ مثل الاعتقاد بربوبيته قَطْ.

أسئلة الدرس

1- هل يستلزم التوحيد في الخالقية نفي أصل السببيّة؟ ولماذا؟.

2- ما هو المقصود من التوحيد في العبادة؟

3- ما هو الفرق بين التكريم والعبادة؟

أوّل ما خلق الله

عـن جابر الجُعْفـي، قال: جاء رجل من علمـاء أهل الشام إلـى الإمام أبي جعفر الباقـر عليه السلام، فقال: جئت أسألك عن مسألة لم أجـد أحداً يفسّرها لي، وقد سألت ثلاثـة أصناف من الناس، فقال كلّ صنف غير ما قال الآخر، فقال أبو جعفر عليه السلام: «**ومـا ذلـك**»؟ فقـال: أسألك، مـا أوّل ما خلق الله عز وجل من خلقـه؟ فإنّ بعض من سألتـه قـال: القـدرة، وقال بعضهـم: العلم، وقال بعضهـم: الروح، فقـال أبو جعفر عليه السلام: «**مـا قالـوا شيئاً، أخبرك أنّ الله علا ذكـره كان ولا شيء غيره، وكان عزيزاً ولا عزّ لأنّه كان قبل عزّه وذلك قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾**[1] **وكان خالقاً ولا مخلوق فأوّل شيء خلقه من خلقه الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو المـاء**»، فقـال السائل: فالشيء خلقه من شيء أو من لا شيء؟ فقال: «**خلق الشيء لا مـن شـيء كان قبلـه، ولو خلق الشيء من شيء إذاً لم يكن له انقطاع أبداً، ولم يزل الله إذاً ومعـه شـيء ولكن كان الله ولا شيء معه، فخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء**»[2].

(1) سورة الصافات، الآية 180.

(2) الصدوق، التوحيد، ص65، ح20.

الدرس السادس

مراتب التوحيد (3)

التوحيد في الربوبية والتوحيد في الحاكمية

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى التوحيد في الربوبيّة.
2. يبيّن معنى التوحيد في الحاكمية.
3. يشرح لماذا يجب التوحيد في الحاكميّة والتقنين.

التوحيد في الربوبيّة

المرتبة الخامسة من مراتب التوحيد هو: التوحيد في الربوبيّة وتدبير الكون والإنسان.

والتوحيد الربوبيّ يكون في مجالين:

1. التَدبير التكوينيّ.
2. التَدبير التشريعيّ.

إنّ تاريخ الأنبياء يشهد بأنّ مسألة التوحيد في الخالقية لم تكن قط موضع نقاش في أممهم وأقوامهم، وانما كان الشرك – لو كان – في تدبير الكون وإدارة العالم الطبيعي الذي كان يتبعه الشرك في العبادة.

فمشركو عصر النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام كانوا يعتقدون بوحدة خالق الكون، إلاّ أنّهم كانوا يعتقدون خطأً بأنّ النجوم والكواكب هي الأرباب والمدبّرات لهذا الكون، وقد تركّزت مناظرة إبراهيم لهم على هذه المسألة كما يتّضح ذلك من بيان القرآن الكريم[1].

وكذا في عهد النبيّ يوسف عليه السلام الذي كان يعيش بعد النبيّ إبراهيم الخليل عليه السلام فإنّ الشرك كان في مسألة الربوبيّة، وكأنَّ الله بعد أن خلقَ الكون، فوّض أمر تدبيره وإدارته إلى الآخرين.

(1) راجع سورة الأنعام، الآيات 76 – 87.

ويتّضح هذا جليّاً من الحوار الذي دار بين يوسف الصدّيق عليه السلام وأصحابه في السجن إذ يقول: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1].

كما ويُستفاد من آيات القرآن الكريم أن مشركي عصر الرسالة كانوا يعتقدون بأنّ بعض مصيرهم إنّما هو بإيدي معبوداتهم إذ يقول: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا﴾[2]. ويقول أيضاً: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[3].

إنّ القرآنَ الكريم يحذّر المشركين في آياتٍ عديدة بأنّ ما يعبدونه من الأرباب المختلفة غير قادرة على جلب نفعٍ إلى عابديها ولا دفع ضررٍ عنهم أبداً. إنّ هذه الآيات تكشف عن أنّ مشركي عصر الرسالة المحمّديّة كانوا يعتقدون بأنّ تلكَ المعبودات تضرُّ أو تنفع عُبّادها[4]، وهذا الذي كان الدافع لهم إلى عِبادتها.

إنّ هذه الآيات ونظائرَها ممّا يعكس ويصوّر عقائد المشركين في عصر الرسالة، تحكي عن أنّه رغم أنّهم كانوا يعتقدون بالتوحيد في الخالقيّة، إلاّ أنّهم كانوا مشركين في بعض الأمور المتعلّقة بربوبيّة الحق تعالى، إذ كانوا يعتقدون بأنّ معبوداتهم مؤثرة – على نحو الاستقلال – في الأمور والأشياء، أي إنَّها فاعلة في صفحة الكون من دون إذنِ اللّه ومشيئته بل بصورة مستقلّةٍ وحسب مشيئتها وإرادتها لا غير، وهي من صفات الربِّ الحقيقيّ.

ولقد عَمَدَ القرآنُ الكريمُ – بهدف منع أُولئك المشركين عن عبادة الأصنام بصورة جذرية – إلى إبطال هذا الاعتقاد الفاسد وهذا التصوّر الخاطئ، وقال بأنّ هذه الأصنام لا تضرّ ولا تنفع ولا مثقال ذرّة، فليس لهم أيّ تدبير وربوبيّة.

(1) سورة يوسف، الآية 39.
(2) سورة مريم، الآية 81.
(3) سورة يس، الآيتان 74 و 75.
(4) راجع: سورة يونس، الآية 18، وسورة الفرقان، الآية 55.

ففي بعض الآيات يندّد القرآنُ بالمشركين لكونهم يتّخذون لله تعالى نظيراً وندّاً، وشبيهاً ومثيلاً، إذ يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾[1].

وقد ورد تقبيح اتّخاذ الندّ لله في آيات قرآنيّة أُخرى أيضًا[2]، ويتّضح من الآيات المذكورة أنّ المشركين كانوا يعتقدون بأنّ لتلك الأصنام شؤوناً مثل شؤون اللهِ سبحانه، ثم انطلاقاً من هذا التصوّر كانوا يحبّون تلك الأصنام ويودّونها بل ويعبدونها!!.

وبعبارة أُخرى: لقد كان المشركون يعبدون تلك الأوثان والأصنام لكونها - حسب تصوّرهم وزعمهم - «أنداداً» و «نظراء» لله سبحانَه في التدبير. إنّ القرآن الكريم ينقل عن المشركين يومَ القيامة بأنّهم يقولون تنديداً بأنفسهم وبأصنامهم:

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3]، أجل إنّ دائرةَ ربوبيّة الله واسعة، ومن أجل هذا كان مشركو عصر الرسالة موحّدين في أُمور هامّة، كالرزق والإحياء والإماتة والتدبير الكلي للكون كما يقول القرآن الكريم: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[4].

﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾[5].

(1) سورة البقرة، الآية 165.
(2) راجع سور: البقرة، الآية21، إبراهيم،الآية30، سبأ، الآية33، الزمر، الآية 8، فصّلت، الآية9.
(3) سورة الشعراء، الآيتان 97 و 98.
(4) سورة يونس، الآية 31.
(5) سورة المؤمنون، الآيات 84 -87.

وَلكنَّ هؤلاء الأفراد أنفسَهم – كما مرّ في آيات سورة مريم – ينسبون بعض الأمور والشؤون مثل النَصر في القتال والحفظ في السَفَر، وَما شابهَ ذلك، إلى مَعْبُوداتهم وأصنامهمْ ويَعْتَقدون بتأثيرها الذاتيّ والمُستقلّ في مصائرهم.

وأبْرزُ من كل ذلك؛ الشفاعةُ التي كانوا يرون أنّها حقٌّ طلْقٌ لتلك الأصنام وكانوا يَعتقدون بأنّها تشفع من غير إذن اللّه، وأنّ شفاعَتها مفيدةٌ لا مَحالة ومؤثّرة قطعاً وجزماً.

وعلى هذا فلا منافاة بين أن يكون بعض الأفراد يعتقدون بتدبير اللّه لبعض الأمور دون سواه فيكونون موحّدين في هذا المجال، بينما يعتقدون بتدبير الأصنام والأوثان لأمور وجوانب أُخرى من مصائرهم وشؤونهم كالشفاعة والإضرار والإنفاع والإعزاز والمغفرة، فيكونون مشركين في هذه المجالات وَلكنّ «التوحيد في الربوبيّة» يفنّد كلَّ لون من ألوان تصوّر الاستقلال، والتأثير المستقلّ عن الإذن الإلَهيّ كليّاً كان، أو جزئياً.

فهو يُبطل أيّ إسناد، لتأثير غير اللّه في مصير الإنسان والكون، وتدبير شؤونها بمعزلٍ عن الإذن الإلَهيّ وبهذا يُبطل ويرفُضُ عبادةَ غير اللّه تعالى.

إنَّ الدّليل على التوحيد الربوبيّ واضحٌ تمامَ الوضوح، لأنّ تدبيرَ عالم الخلق، في مجال الإنسان والكون، لا ينفصل عن مسألة الخَلْق، وليس شيئاً غير عمليّة الخَلق. فإذا كانَ خالقُ الكونِ والإنسان واحداً، كان مدبّرهما بالطبع والبداهة واحداً كذلك، لوضوح العلاقة الكاملة بين عمليّة التدبير وعملية الخَلْق للعالم.

ولهذا فإنّ اللّه تعالى عندما يصف نفسَه بكونه خالقَ الأشياء يصف نفسَه في ذات الوَقت بأنّه مدبّرُها ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[1].

(1) سورة الرعد، الآية 2.

وفـي آية أُخرى يعتبر التناسقَ والانسجام السائـد والحاكم على الكون دليلاً على وحدة مدبر العالم إذ يقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

إنَّ التوحيد في التدبير لا ينافي وجودَ مدبّرات أُخرى تقومُ بوظائفها بإذن الله في صفحـة الكون، فهي بالحقيقة مظاهر لربوبيّة الحقّ تعالى. ولهذا فإنَّ القرآن الكريم مـع تأكيده الشديد على التوحيد في الربوبيّـة والتدبير يصرّح بوجود مدبّرات أُخرى في صفحة الكون إذ يقول: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾[2].

التوحيد في الحاكميّة والتقنين

بعـد أن ثبت سابقًا أنّ للكون مدبّراً حقيقيّاً واحداً هو الله تعالى وأنّ تدبير العالم وحياة الإنسان بيده دون سواه، كان تدبير أمر الإنسان في صعيد الشريعة – سواء في مجال الحكومة أو التقنين أو الطاعة أو الشفاعة أو المغفرة – برمّته بيده تعالى، ومن شؤونـه الخاصّة به، فلا يحقّ لأحد أن يتصرّف في هذه المجالات والأصعدة من دون إذن الله تعالـى، ولهذا يُعتبر التوحيدُ في الحاكميّة، والتوحيد في التشريع، والتوحيد في الطاعة، والتوحيد في الشفاعة والمغفرة.. من فروع التوحيد في التدبير وشقوقه ولوازمـه. فـإذا كان النبيّ ﷺ حاكمـاً على المسلمين فإنّ هـذا نابعٌ من اختيار الله تعالـى إيّاه لهذا المنصـب. وانطلاقاً من هذه العلّة ذاتها تجـب إطاعتهُ ﷺ بل إنّ إطاعتـه نفس إطاعـة الله، قـال تعالـى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[3]. وقال أيضاً: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[4].

(1) سورة الأنبياء، الآية 22.
(2) سورة النازعات، الآية 5.
(3) سورة النساء، الآية 80.
(4) سورة النساء، الآية 64.

فلـو لم يكن الإذنُ الإلهيّ مـا كانَ النبيّ ﷺ حاكماً ولا مُطاعاً، فحكومتهُ وطاعتهُ مظهـرٌ لحاكميّة اللّه وطاعته. كما أنّ تحديدَ الوظيفَة وتشخيصِ التكليف بما أنّه من شُؤون الربوبيّة، لم يَحقّ ولا يحقّ لأحد أن يحكم بغير ما أمر اللّه به، وأن يقضيَ بغير ما أنزل: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

وهكذا تكون الشفاعة ومغفرة الذنوب من حقوق اللّه الخاصة به فلا يقدر أَحَدٌ أنْ يَشْفَعَ لأحدٍ من دُون إذنه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[2].

وَعَلـى هذا الأساس يكـونُ شراء صُكوك الغفـران وبَيعُها، تصوّراً بـأنّ لأحدٍ غير المقـام الربوبيّ أن يَهبَ الجنّـة لأحَد، أو يخلّصَ أحداً مـن العذاب الأخروي كما هو رائـجٌ فـي المسيحيّة، أمراً باطلاً لا أساس له مـن الصحَّة في نظر الإسلام كما جاء في القرآن الكريم: ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[3].

فالموَحِّدُ – في ضوء ما قلناه – يجب أن يعتقدَ في مجال الشريعة بأنّ اللّه وحده لا سواه هو الحاكم والمرجَع، إلاّ أنْ يعيّن اللّه شخصاً للقيادة، وبيانِ الوظائف الدينيّة.

(1) سورة المائدة، الآية 44.
(2) سورة البقرة، الآية 255.
(3) سورة آل عمران، الآية 135.

المفاهيم الرئيسة

- المرتبــة الخامسة من مراتب التوحيد هو: التوحيد في الربوبيّة وتدبير الكون والإنسان.
- التوحيد الربوبي يكون في مجالين:

  1. التَدبير التكوينيّ.
  2. التَدبير التشريعيّ.
- إنّ التوحيدَ في العبادة هو الأصل المشترك والقاعدة المتفق عليها بين جميع الشرائع السماوية.
- وجــوب عبادة اللّه وحده، والاجتناب عن عبــادة غيره أَمرٌ مسلَّمٌ لا كلامَ فيه، وإنّمــا الكلام هــو في أنّ بعض الأعمال والممارَســات هل هي مصداق لعبادة غير اللّه أم لا.
- المرتبة السادسة من مراتب التوحيد هي التوحيد في الحاكميّة والتقنين.
- يُعتبــر التوحيدُ فــي الحاكمية، والتوحيد في التشريــع، والتوحيد في الطاعة، والتوحيــد في الشفاعــة والمغفرة.. من فــروع التوحيد فــي التدبير وشقوقه ولوازمه.
- فالموَحِّــدُ يجــب أن يعتقدَ - في مجــال الشريعة - بأنّ اللّه وحــده لا سواه هو الحاكم والمرجَع، إلاّ أنْ يعيّن اللّه شخصاً للقيادة، وبيانِ الوظائف الدينيّة.

أسئلة الدرس

1- ما هو المقصود من التوحيد في الربوبيّة؟

2- ما هو الربط بين التوحيد في الربوبيّة والتوحيد في الخالقيّة؟

3- عرّف التوحيد في الحاكميّة والتقنين.

التوحيد

عـن محمّد بـن أبي عمير، قال: دخلت على سيّـدي موسى بن جعفر عليه السلام فقلت لـه: يا ابن رسـول الله علّمني التوحيد فقـال: «**يا أبا أحمـد لا تتجاوز فـي التوحيد مـا ذكـره الله تعالـى ذكره في كتابه فتهلك واعلـم أنّ الله تعالى واحد، أحد، صمد، لـم يلـد فيـورث، ولم يولد فيشـارك، ولم يتّخذ صاحبـة ولا ولداً ولا شريـكاً، وإنّه الحيّ الذي لا يموت، والقادر الذي لا يعجز، والقاهر الذي لا يغلب، والحليم الذي لا يعجـل، والدائـم الـذي لا يبيـد، والباقي الـذي لا يفنى، والثابت الـذي لا يزول، والغنيّ الذي لا يفتقر، والعزيز الذي لا يذلّ، والعالم الذي لا يجهل، والعدل الذي لا يجـور، والجـواد الـذي لا يبخـل، وإنّـه لا تقدّره العقـول، ولا تقع عليـه الأوهام، ولا تحيـط بـه الأقطـار، ولا يحويه مـكان، ولا تدركه الأبصار وهـو يدرك الأبصار وهـو اللطيـف الخبير، وليـس كمثله شيء وهـو السميع البصيـر ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾**[1] وهـو الأوّل الـذي لا شـيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وهو القديم وما سواه مخلوق محدث، تعالى عن صفات المخلوقين علوّاً كبيراً»[2].

(1) سورة المجادلة، الآية 7.

(2) الصدوق، التوحيد، ص74، ح32.

الدرس السابع

الصفات الإلهية (1)
صفات الذات



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يفهم الطرق التي يستفاد منها في معرفة صفات الله الجماليّة والجلاليّة.
2. يفرّق بين الصفات الذاتيّة والصفات الفعليّة.
3. يبيّن الصفات الثبوتيّة مع أمثلة لها.

طرق معرفة الصفات الإلهيّة

لقـد أسلفنا في بحث المعرفة أنّ أبرز طرق المعرفة بالحقائق تتمثّل في: الحسّ، والعقل، والوحي.

ويمكـن لمعرفة الصفـات الإلهيّة الجماليّـة والجلاليّة الاستفـادة من الطريقين التاليين:

1. طريق العقل:

إنّ التأمّـل في عالـم الخَلق، ودراسة الأسرار الكامنة فيـه والتي تدل برمّتها على أنّها مخلوقة لله، تقودنا إلى كمالات الله الوجودية، فهل يمكن أن يتصوّر أحدٌ أنّ بناء الكَون الشاهق قد تمّ من دون علم وقدرة واختيار.

إنّ القـرآن الكريـم يدعـو - تأييـداً لحكم العقل فـي هذا المجـال - بالتدبّر في الآيـات التكوينيّة فـي صعيد الآفـاق والأنفس إذ يقـول: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]. أي أُنظُروا نظرة تدبّر وتأمل لتكتشفوا الحقائق العظيمة.

على أَنّ من البديهيّ أنّ العقلَ يسلك هذا الطريق بمعونة الحسّ، أي أنّ الحس يبدأ أوّلاً باكتشـاف وإدراك الموضوع بصـورة عجيبة، ثم يعتبر العقـل عظمة الموضوع، وتكوينه العجيب، دليلاً على عظمة الخالق وجماله.

(1) سورة يونس، الآية 101.

2. طريق الوحي:

فبعد أن أثبتت الأدلّة القاطعةُ النبوّةَ والوحيَ، واتّضح أنّ الكتاب الذي أتى به النبيّ ﷺ وكذا قوله كان برمّته من جانب الله، كان من الطبيعيّ أن يكون في مقدور الكتاب والسُّنّة أن يساعدا البشريةَ في معرفة صفات الله، فقد ذُكرت صفات الله الجماليّة والجلاليّة في هذين المصدرين بأفضل نحو.

ويكفي أن نعرف أنّه جاء بيان قرابة 140 صفة لله تعالى في القرآن الكريم، ونكتفي هنا بذكر آية واحدة تذكر بعض تلك الصفات: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

هذا والجدير بالذكر أنّ هناك من احتج بعجز البشر عن معرفة الموجود الأعلى فترك البحثَ عن صفات الله، ونهى عن ذلك، وهؤلاء في الحقيقة هم «**المعطّلة**» لأنّهم حَرَموا الإنسان من المعارف السامية التي أرشد إليها العقلُ والوحيُ معاً.

ولو كانَ البحثُ والنّقاش حولَ هذه المعارف مَمنُوعاً حقاً لكان ذِكرُ كلِ هذه الصفات في القرآن الكريم، والأمرُ بالتدَبر فيها غيرَ ضروريّ بل لغواً.

ويجب أن نقول مع بالغ الأسف إنّ هذا الفريق حيث إنّه أوصد على نفسه بابَ المعرفة، وقع نتيجةً لتعطيل البحث العلميّ في ورطة «**تجسيم الله وتشبيهه وإثبات الجهة له سبحانه**».

(1) سورة الحشر، الآيتان 23 و 24.

أقسام الصفات الإلهيّة

تنقسم الصفات الإلهيّة إلى ثلاثة أقسام وهي:

1. الصفات الثبوتيّة: ومنها الصفات الذاتيّة والصفات الفعليّة.
2. الصفات السلبيّة.
3. الصفات الخبريّة.

الصفات الثبوتيّة

حيث إنّ الذاتَ الإلهيّة لا مثيلَ لها ولا نظير، ولا يُتصوّر لله عديل ولا شبيه، فهو سبحانه أعلى من أن يعرفه الإنسان بالكُنْه، أي ليس للإنسان سبيلٌ إلى معرفة حقيقة الذات الإلهيّة، على حين يمكن معرفته تعالى عن طريق صفاته الجماليّة والجلاليّة.

والمقصود من الصفات الجماليّة هي الصفات التي تدلّ على كمال الله في وجوده وذلك كالعلم والقدرة، والحياة، والإرادة والاختيار وما شابه ذلك. وتُسمّى بالصفات الثبوتية أيضاً.

والمقصود من الصفات الجلاليّة هي الصفات التي يجلّ الله تعالى عن وصفه بها، لأنّ هذه الصفات تدلّ على نقص الموصوف بها وعجزه، والله تعالى غنيٌّ غِنىً مطلقاً، ومنزّه عن كلّ نقص وعيب.

والجسمانيّة، والاحتياج إلى المكان والزمان، والتركيب وأمثاله من جملة هذه الصفات، وتسمّى هذه الصفات أيضاً بالصفات السلبية في مقابل الصفات الثبوتية (التي مرَّ ذكرها أوّلاً) والمقصود في كلتا التسميتين واحد. والصفات الثبوتيّة بدورها تنقسم الي قسمين:

الأول: صِفات الذات.

الثاني: صِفات الفِعل.

والمقصـودُ من (صفات الذات) هي الصفات الّتي تنتزع من مقام الذات الإلهية مباشرة، كالعلم والقدرة والحياة، وإن لم يصدر منه سبحانه فعلٌ من الأفعال.

والمقصـود مـن (صفات الفعل) هـي الصفات التـي تُوصف الـذات الإلهيّة بها بملاحظـة صـدور فعل مّـا منه تعالـى، كالخالقيـة، والرازقيـة وما شابَـهَ ذلك من الصفـات التي تنتزَعُ من مقام الفعل، ويوصَف بهـا اللّه تعالى بعد ملاحظة ما صدر منه من الأفعال.

وبعبارة أُخرى ما لم يصدر من اللّه فعل كالخالقيّة والرازقيّة والغفاريّة والراحميّة لا يمكـن وصفه فعـلاً بالخالق والرازق وبالغفّـار والرحيم، وإن كان قـادراً ذاتاً على الخلق والإرزاق والمغفرة والرحمة.

ونذكّـر بأنّ كلَّ صفات الفعل التي يوصف بهـا اللّه تعالى نابعةٌ من كماله الذاتي، وأن الكمـال الذاتي المطلق لـه تعالى هو مبدأ جميع هذه الكمالات الفعلية ومنشؤها. وفيما يلي سوف نتحدّث عن الصفات الذاتيّة، وأما الصفات الفعليّة فسوف تكون في الدرس اللاحق.

الصفات الذاتية

1. العلمُ الأزَليّ:

علـمُ اللّه – لكونـه عينَ ذاته – أزليٌّ، كما أنّه مثل ذاته مطلقٌ، ولا نهاية له. إنّ اللّه تعالى – مضافًا إلى علمه بذاته – يعلم بكل شيء ممّا سوى ذاته، كليّاً كان أم جزئياً، قبل وقوعه وتحقّقـه، وبَعد وقوعه وتحقّقه. ولقد أكّد القرآنُ الكريمُ على ذلك تأكيداً كبيـراً إذ قـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. وقـال أيضـاً: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2].

(1) سورة العنكبوت، الآية 62.
(2) سورة الملك، الآية 14.

ولقد وَرَدَ مثل هذا التأكيد المكرّر والقويّ على أزليّة العلم الإلَهيّ، وسعته وإطلاقه في الأحاديث المرويّةَ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام: مثل قول الإمام جَعْفَر الصادق عليه السلام: «**لَمَ يَزَل عالماً بالمَكان قَبْلَ تكوينه كَعلْمه به بَعْدَ ما كوَّنَهُ وَكذلك علمُهُ بجَميع الأشياء**»[1].

2. القُدرةُ الواسعَةُ:

إنّ قدرةَ اللّه مثلُ علمه أَزَليّةٌ، وَلكونها عينَ ذاته فهي مثلُ علمه تعالى، مطلقةٌ وغير محدودة. إنّ القرآن الكريم يؤكّد على سعة قدرة اللّه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا﴾[2]. ويقول: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾[3]. وقالَ الإمام جعفرُ الصّادق عليه السلام: «**الأشياءُ لَهُ سَواءٌ علماً وقُدْرةً وَسُلْطاناً، ومُلْكاً وإحاطةً**»[4].

وأمّا إذا كان إيجاد الأشياء المستحيلة والممتنعة ذاتاً خارجة عن إطار القُدرة الإلهيّة، فليس ذلك لأجْل نقص في القدرة الإلهيّة، بَلْ لاجل عدم قابليّة الشيء الممتنع، للتحقّق والوجُود (فهو نَقْصٌ في جانب القابل لا في جانب الفاعل).

يقول الإمام عليٌّ عليه السلام في الردّ على من سَألَ حول إيجاد الممتنعات: «**إنّ اللّه تبارك وتعالى لا يُنسَبُ إلى العَجز، والّذي سَألْتني لا يَكُونُ**»[5].

3. الحياة:

إنّ اللّه العالِمَ القادرَ حيٌّ كذلك قطعاً، لأنّ الصفتين السابقتين من خصوصيات الموجود الحي وتوابعه، ومن هذا تتضح دلائل الحياة الإلهيّة أيضاً.

(1) الصدوق، التوحيد، ص 137، الباب 10، الحديث 9.
(2) سورة الأحزاب، الآية27.
(3) سورة الكهف، الآية 45.
(4) الصدوق، التوحيد، ص128، الباب 9، الحديث 15.
(5) م.ن، ص 125، باب القُدرة، ح9.

علـى أنّ صفة الحياة التـي يُوصف بها الحقُّ تعالى هي مثل سائر الصفات الإلهيّة منزَّهـةٌ عـن كلّ نقص، ومـن كل خصوصيّات هـذه الصّفة في الإنسـان وما شابهه (كعروض الموت)، وحيث إنّ اللّه حيّ بالذات لهذا لا سبيلَ للموت إلى ذاته المقدّسة كما يقول: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[1].

4. الإرادةُ والاختيار:

إنَّ الفاعلَ الواعي لفعله أكملُ من الفاعلِ غير الواعي لفعله، كما أنّ الفاعلَ المريدَ لفعلـه المختار فيه (وهو الّـذي إذا أراد أن يفعلَ فَعَل، وإذا لم يُرِدْ أن يفعَلَ لم يفعل) أكمَـلُ من الفاعل المضطرّ المجبور، أي الذي ليـس أمامَه إلاّ أحد أمرين: إمّا الفعل وإمّا الترك.

وبالنظر إلى ما قلناه، وكذلك نظراً إلى أنّ اللّه أكملُ الفاعلين في صفحة الوُجود، فـإنَّ من البديهي أن نقول إنَّ اللّه فاعلٌ مختارٌ، وليس تعالى بمجبورٍ من جانب غيره، ولا بمضطرٍ من ناحية ذاته. والمقصود من قولنا: إن اللّه مريدٌ، هو أنّه تعالى مختارٌ وليس بمجبورٍ ولا مضطَرّ.

إنّ الإرادة – بمعناهـا المعـروف في الإنسان والذي هـو أمر تدريجي وحادث – لا مكان لها في الذات الإلهيّة المقدسة.

مـن أجل هـذا وُصفت الإرادة الإلهيّة فـي أحاديث أهل البيت: بأنّهـا نفسُ إيجاد الفعـل وعينُ تحقّقه، مَنعاً من وقوع الأشخاص في الانحراف والخطأ في تفسير هذه الصفة الإلهيّة وتوضيحها.

(1) سورة الفرقان، الآية 58.

قـال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**الإرادة مـن الخَلق: الضميرُ وما يَبْدُو لهم بعـدَ ذلـك مـن الفعْـل. وأمّا مـنَ الله تعالـى فإرادتُـهُ: إحداثُه لا غير، ذلـك لأنَّه لا يُرَوّي ولا يَهمُّ ولا يَتَفَكَّرُ، وهذه الصّفاتُ مَنْفيّةٌ عَنْهُ وَهيَ صفاتُ الخَلْق. فإرادَةُ الله، الفعْلَ؛ لا غير ذلكَ يَقولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ بلا لَفْظ ولا نُطْق بلسان ولا همّة ولا تفكّر ولا كيف لذلكَ، كما أنَّه لا كيفَ له**»[1].

فظهـر ممّـا ذكرناه: إنّ وصفـه سبحانه في مقـام الذات بأنّه مريـد، بمعنى أنّه مختار ووصفه به في مقام الفعل بمعنى انّه موجد ومحدث.

(1) الكليني، الكافي، ج1، ص109 باب الإرادة انّها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل، الرواية 3.

المفاهيم الرئيسة

- حيـث إنّ الـذاتَ الإلهيّة لا مثيلَ لها ولا نظيـر، ولا يُتصوّر للّه عديل ولا شبيه، فهـو سبحانه أعلى من أن يعرفـه الإنسان بالكُنْه، أي ليس للإنسان سبيلٌ إلى معرفةِ حقيقة الذات الإلهيّة.
- المقصـود مـن الصفات الجمالية هي الصفات التي تـدلّ على كمالِ اللّه في وجوده وذلك كالعلم والقدرة، والحياة، والإرادة والاختيار وما شابه ذلك.
- المقصود من الصفات الجلالية هي الصفات التي يجلّ اللّه تعالى عن وصفه بها.
- يمكن لمعرفة الصفات الإلهيّـة الجمالية والجلاليّة الاستفادة من الطريقين التاليين: طريق العقل وطريق الوحي.
- تنقسمُ الصفات الإلهيّة إلى قسمين:

1. صفـات الذات: وهـي الصفات الّتي يلازم تصوُّرها تصـوّرَ الذات الإلهيّة، كالعلم والقدرة.
2. صفـات الفعـل: وهي الصفـات التي تُوصـف الذات الإلهيّـة بها بملاحظة صدور فعلٍ مّا منه تعالى، كالخالقية، والرازقية...

أسئلة الدرس

1- ما هي الطرق التي يستفاد منها في معرفة الصفات الإلهية؟ وتكلم عنها.

2- ما هي الصفات الثبوتية؟ وإلى ماذا تنقسم؟

3- ما هو المقصود من الصفات الفعليّة؟

علم الله بالأشياء

حدّثنا عبد الله بن محمّد بن عبد الوهاب، قال: حدّثنا أحمد بن الفضل بن المغيرة، قال: حدّثنا أبو نصر منصور بن عبد الله بن إبراهيم الإصفهاني، قال: حدّثنا عليّ بن عبد الله، قال: حدّثنا الحسين بن بشّار، عن أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام قال: سألته أيعلم الله الشيء الذي لم يكن أن لو كان كيف كان يكون أو لا يعلم إلّا ما يكون؟ فقال: إنّ الله تعالى هو العالم بالأشياء قبل كون الأشياء، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] وقال لأهل النار: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[2] فقد علم الله عز وجل أنّه لو ردّهم لعادوا لما نهو عنه، وقال للملائكة لمّا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3] فلم يزل الله عز وجل علمه سابقاً للأشياء قديماً قبل أن يخلقها، فتبارك ربّنا تعالى علوّاً كبيراً خلق الأشياء وعلمه بها سابق لها كما شاء، كذلك لم يزل ربّنا عليماً سميعاً بصيراً[4].

(1) سورة الجاثية، الآية 29.
(2) سورة الأنعام، الآية 28.
(3) سورة البقرة، الآية 30.
(4) الصدوق، التوحيد، ص132، باب العلم، ح8.

الدرس الثامن

الصفات الإلهية (2)
الصفات الفعلية

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح صفة التكلّم.
2. يبيّن مسألة خلق القرآن وقدمه وربطها بصفة التكلّم.
3. يشرح صفات الفعل التالية: الصدق والحكمة.

بعـد أن اطَّلعنا على أُمّهات المطالـب المتعلّقة بصفات الذات ينبغي التعرّف على بعض صفات الفعل. وندرس هنا ثلاث صفات فقط من صفات الفعل:

1 - التكلّم.

2 - الصدق.

3 - الحكمة.

كون الله متكلّماً

إنّ القـرآن الكريـم يصـفُ اللّه تعالى بصفـة التكلّم إذ يقـول: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾[1]. وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾[2]. وعَلى هذا الأساس لا شكّ في كون التكلّم إحدى الصّفات الإلهيّة.

إنّمـا الكلام هو في حقيقـة التكلّم وأنّ هذه الصفة هل هي مـن صفات الذات أم مـن صفـات الفعل؟ إذْ مِنَ الواضح أنّ التكلّم بالشَـكل الموجود عند الإنسان لا يجوزُ تصوّرُهُ في الحقّ تعالى.

وحيـث إنّ صفَةَ التَكلّم ممّـا نطق بها القرآن الكريم، وَوَصَف بها اللّه، لذلك يجب الرّجوع إلى القرآنِ نفسه لِفَهم حقيقته كذلك. إنّ القرآن يقسّم تكلّم اللّهِ مع عباده –

(1) سورة النساء، الآية 164.

(2) سورة الشورى، الآية 51.

كما عرفنا – إلى ثلاثة أنواع، إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]. إذَن فلا يمكن للبشر أن يكلّمهُ اللّه إلاّ من ثلاث طرق:

1. «وَحْياً» وهو الإلهام القلبيّ.
2. «أو مِنْ وَراءِ حجابٍ» كأن يكلّم اللّهُ البشرَ من دون أن يراه كتكلّم اللّه مع موسى عليه السلام.
3. «أو يُرسلَ رسولاً» أي مَلَكاً يوحي إلى النبيّ بإذنِ اللّه تعالى.

ففي هذه الآية بَيَّنَ القرآنُ تكلُّمَ اللّه بأنّه تعالى يوجدُ الكَلامَ تارةً من دون واسطة، وَأحْياناً مع الواسطة، عَبر مَلك من الملائكة.

كما أنّ القسمَ الأوّل تارةً يكون عن طريق الإلقاء والإلهام إلى قلب النبي مباشرةً، وتارةً بالإلقاء إلى سَمْعه ومنه يصلُ الكَلامُ إلى قلبه. وعلى كلّ حال يكونُ التكلّم بصُوره الثلاث بمعنى إيجاد الكلام وَهَو من صفات الفعل. إنّ هذا التَفْسير والتحليل لصفة التكلّم الإلَهيّ هو أحدُ التفاسير التي يمكن استفادتها بمعونة القرآنِ وإرشاده وهدايته.

وهناكَ تفسيرٌ آخرٌ لهذه الصفة وهو: أنَّ اللّه اعتبر مخلوقاته من كلماته فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[2].

فالمقصودُ من «الكلمات» في هذه الآية هو مخلوقات اللّه الّتي لا يقدرُ شيءٌ غيرُ ذاته سبحانه على إحصائها وعدّها، ويدعم هذا التفسيرَ للكلمة وصفُ القرآن الكريم المسيحَ ابنَ مريم عليه السلام بأنّه «كلمة اللّه» إذ قال: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾[3].

(1) سورة الشورى، الآية 51.
(2) سورة الكهف، الآية 109.
(3) سورة النساء، الآية 171.

إنّ الإمـام أميـرَ المُؤمنين عليه السلام فسّر تَكَلّم الله تعالى في إحدى خُطَبه وأحاديثه بأنّه إيجادٌ وفعلٌ، فقال: «**يَقُولُ لِمَنْ أرادَ كَوْنَهُ؛ كُنْ، لا بصَوت يَقرَعُ، ولا بنداء يُسْمَعُ وَإنّما كَلامُهُ سُبحانَه فعلٌ منه، أنشَأهُ وَمَثَّله**»[1].

فإذا كان الكلام اللفظيّ معرباً عمّا في ضمير المتكلّم، فما في الكون من عظائم المخلوقات إلى صغارها يعرب عن علم الله تعالى وقدرته وحكمته.

هل القرآن مخلوق أم قديم؟

اتّضح مـنَ البَحْث المتَقَدّم الذّي تضمّن تفسيـراً لحقيقة كلام الله، بنحوين، أنَّ التفسيرَ الثاني لا يخالف التفسير الأوّل، وانّه سبحانه متكلم بكلا الوجهين. كما ثَبَتَ أنَّ كلامَ الله حادثٌ وليس بقديم، لأنّ كلامَهُ هو فِعْلُه، ومن الواضح أنّ الفعلَ حادثٌ، فَيَنتُجُ من ذلك أنّ «**التكلّم**» أمرٌ حادثٌ أيضاً.

ومع أنّ كلامَ الله حادثٌ قطعاً فإنّنا رعايةً للأدب، وكذا دَرءاً لسوءِ الفهم لا نقول: إنّ كلام الله (القـرآن) مخلـوق إذ يمكـن أن يصفـه أحدٌ في ضوء ذلـك بالمجعول والمختلق وإلاّ فإنّ ما سوى الله مخلوقٌ قطعاً.

يقول سليمان بن جعفـر الجعفري: سألت الإمام عليَ بن موسى بن جعفر عليه السلام: يـا ابن رسول الله أخبرني عن القـرآن أخالقٌ أو مخلوقٌ؟ فأجاب عليه السلام قائلاً: «**ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنّه كلامُ الله عزّ وجلّ**»[2].

وهنـا لا بدّ من التذكير بنقطة تاريخية في هذا المجال وهي أنّه طُرحت في أوائل القـرن الثالث الهجري، في عام 212 هـ في أوساط المسلمين مسألة ترتبط بالقرآن الكريم، وهي: هل القرآنُ حادثٌ أو قديمٌ؟

(1) نهج البلاغة، الخطبة: 186.

(2) الصدوق، التوحيد، ص 223، باب القرآن ما هو، الحديث 2.

وقد صارت هـذه المسألة سبباً للفرقة والاختلاف الشديدين، في حين لم يمتلك القائلون بِقدَم القرآن أيَّ تبرير صحيح لمزعمتهم، لأنّ هناك احتمالات يكون القرآنُ حسب بعضها حادثاً، وحسب بعضها الآخر قديماً.

فإذا كان المقصود من القرآن هو كلماته التي تُتلى وتُقرَأ، أو الكلمات التي تلقّاها الاَمينُ جبرائيل، وأنزلها على قلب رسول الله ﷺ فإنّ كل ذلك حادثٌ قطعاً ويقيناً.

وإذا كان المقصـود هـو مفاهيم الآيـات القرآنيّة ومعانيهـا، والتي يرتبط قسمٌ منها بقصص الأنبياء، وغزوات الرسول الأكرم ﷺ، فهي أيضاً لا يمكن أن تكون قديماً.

وإذا كان المقصـودُ هو علم الله بالقرآن لفظاً ومعنى فإنّ من القطعيّ والمسلَّم بـه هـو أنّ علم الله قديمٌ، وهو مـن صفات الذات، ولكن العلمَ غيـرُ الكلام كما هو واضحٌ.

كون الله صادقاً

ومـن صفاته سبحانه «الصدقُ» وهو القول المطابق للواقع في مقابل الكذب الذي هـو القول المخالف للواقع. فاللّه تعالى صـادقٌ لا سبيلَ للكذب إلى قوله، ودليلُ ذلك واضـحٌ تمام الوضـوح، لأنّ الكذبَ شيمةُ الجَهَلة، والعَجَـزة والجُبَناء. والله منزّهٌ عن ذلك كُلّه. وبعبارة أُخرى؛ إنَّ الكذبَ قبيحٌ والله منزّهٌ عن القبيح.

كون الله حكيماً

ومِنَ الصّفات الكماليّة الإلهيّة «**الحكمةُ**» كما يوحي بذلك تسميتهُ تعالى بالحكيم. والمقصود من كون الله حكيماً:

أوّلاً: أنّ أفعال الله تعالى تتسم بمنتهى الإتقان والكمال.

ثانياً: أنَّ الله تعالى منزّهٌ عن الأفعال الظالمة، والعابثة.

ويدل نظامُ الخلق الرائع العجيب على المعنى الأوّل حيث أُقيم صرحُ الكَون العظيم على أتمّ نظام وأحسن صورة، إذ يقول: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[1].

ويشهد بالمعنى الثانيِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾[2].

وهو أمرٌ يَدْعَمُه العلمُ والعقْلُ كلَّما تقدَّم بهما الزمنُ، وَوَقفنا على أَسرارِ الكونِ وقوانينه.

(1) سورة النمل، الآية 88.

(2) سورة ص، الآية 27.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ القرآن يقسّم تكلّم اللّه مع عباده، إلى ثلاثة أنواع، إذ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.
- لا يمكن للبشر أن يكلّمهُ اللّه إلاّ من ثلاث طرق:

1 . «وَحْياً».

2 . «أو منْ وَراءِ حجاب».

3 . «أو يُرسلَ رسولاً...».

- إذا كان المقصود من القرآن هو كلماته التي تُتلى وتُقرَأ، أو الكلمات التي تلقّاها الأمينُ جبرائيل، وأنزلها على قلب رسول اللّه ﷺ فإنّ كل ذلك حادثٌ قطعاً ويقيناً.
- إذا كان المقصود هو مفاهيم الآيات القرآنيّة ومعانيها، والتي يرتبط قسمٌ منها بقصص الأنبياء، وغزوات الرسول الأكرم ﷺ، فهي أيضاً لا يمكن أن تكون قديماً.
- إذا كان المقصودُ هو علم اللّه بالقرآن لفظاً ومعنى فإنّ من المسلَّم به هو أنّ علم اللّه قديمٌ، وهو من صفات الذات، ولكن العلمَ غيرُ الكلام كما هو واضحٌ.
- مِنَ الصّفات الكماليّة الإلهيّة «**الحكمةُ**» كما يوحي بذلك تسميتهُ تعالى بالحكيم.

أسئلة الدرس

1- كيف تُفسر صفة التكلم للّه سبحانه وتعالى؟

2- ما هو المقصود من خلق القرآن وقدمه؟

3- ما هو المقصود من صفة الحكمة؟

معرفة اللّه

عـن الإمام أبي عبـد اللّه الصادق عليه السلام قال: «اسم اللّه غير اللّه، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوق ما خلا اللّه، فأمّا ما عبّرت الألسن عنه أو عملت الأيدي فيه فهو مخلوق واللّه غاية من غاياه، والمغيّى غير الغاية، والغاية موصوفة، وكلّ موصوف مصنوع، وصانع الأشياء غير موصوف بحدّ مسمّى، لم يتكوّن فتعرف كينونته بصنع غيره، ولم يتناه إلى غاية إلّا كانت غيره، لا يذلّ مَنْ فَهِم هذا الحكم أبداً وهو التوحيد الخالص، فاعتقدوه وصدّقوه وتفهّموه بإذن اللّه عز وجل، ومن زعم أنّه يعرف اللّه بحجاب أو بصورة أو بمثال فهو مشرك لأنّ الحجاب والمثال والصورة غيره وإنّما هو واحد موحّد، فكيف يوحّد من زعم أنّه عرفه بغيره، إنّما عرف اللّه من عرفه باللّه فمن لم يعرفه به فليس يعرفه، إنّما يعرف غيره، واللّه خالق الأشياء لا من شيء، يسمّى بأسمائه فهو غير أسمائه والأسماء غيره، والموصوف غير الواصف فمن زعم أنّه يؤمن بما لا يعرف فهو ضالّ عن المعرفة، لا يدرك مخلوق شيئاً إلّا باللّه، ولا تدرك معرفة اللّه إلّا باللّه، واللّه خلْو من خلقه، وخلقه خلو منه، إذا أراد اللّه شيئاً كان كما أراد بأمره من غير نطق، لا ملجأ لعباده ممّا قضى، ولا حجّة لهم فيما ارتضى، لم يقدروا على عمل ولا معالجة ممّا أحدث في أبدانهم المخلوقة إلّا بربّهم، فمن زعم أنّه يقوى على عمل لم يرده اللّه عزّ وجلّ فقد زعم أنّ إرادته تغلب إرادة اللّه تبارك اللّه ربّ العالمين»[1].

(1) الصدوق، التوحيد، ص138، باب صفات الذات وصفات الأفعال، ح7.

الدرس التاسع

الصفات الإلهية (3)
الصفات السلبيّةُ والصفات الخبريّة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح معنى الصفات السلبيّة.
2. يشرح معنى الصفات الخبريّة.
3. يبيّن المقصود من عين الله ويد الله.

الصفات السلبيّة

تقدّم الكلام عن القسم الأول من الصفات الإلهيّة والآن يأتي الحديث عن القسم الثاني وهو الصفات السلبيّة.

ذكَرْنا عند تصنيف صفات اللّه تعالى أنَّ الصفات الإلهيّة على نَوعين: صفات الجمال، وصفات الجلال، وأنّ ما هو من سِنخ الكمال ومقولته يُسمّى «**الصفات الجماليّة**» أو «**الثبوتية**»، وما هو من مقولة النقص وسنخه يسمّى «**الصفات الجلالية**» أو «**السلبية**».

والهَدَف من الصّفات السَلبيّة هو تنزيه ذات اللّه سبحانه من النقص، والحاجة والفقر.

إنّ اللّه تعالى لكونه غنيّاً موصوفاً بالكمال المطلق، منزَّهٌ عن كُلّ وصف يحكي النقص، والحاجة والفقر، ولهذا قال علماء العقيدة المسلمون (علماء الكلام) إنّ اللّه ليس بجسم ولا جسماني، ولا محلاً لشيءٍ، ولا حالاًّ في شيء، ذلك لأنّ كل هذه الخصوصيات ملازمة للنقص والاحتياج ومستتبعة للفقر والإمكان، وهي تعارضُ كونه غنياً غنىً مطلقاً، وتنافي كونه واجبَ الوجود قطعاً ويقيناً.

وسوف نتناول مسألة تنزيه الله عن التجسيم في نقطتين:

1. إنّ الله لا يرى بالعين مطلقاً:

هذا ومن الصفات التي تحكي النقص كون الشيء مرئياً، ذلك لأن الشيء لا يكون مرئياً إلاّ بعد تحقّق شروط ضرورية هي:

أ. أن يكون في مكانٍ وجهةٍ خاصةٍ.

ب. أن لا يكون في ظلمة، بل يشع عليه النور.

ج. أن يكون بينه وبين الرائي فاصلة معينة ومسافة مناسبة.

ومن الواضح أنّ هذه الشرائط من آثار الكائن الجسماني ومن خصائص الموجود المـادّي لا الاِلَه ذي الوجـود الأسمى والأعلى من ذلك. هذا مضافـاً إلى أنّ كون الله مرئياً لا يخلو من حالتين:

الأولى: إمّا أن يكونَ كلّ وجودِه مرئياً.

الثانية: وإمّا أن يكونَ بعض وجودِه مرئياً.

وفي الصورة الأولى يكون الله المحيط؛ مُحاطاً ومحدوداً.

وفي الصورة الثانيّة يكونُ الحق تعالى ذا أجزاء وأبعاض.

وكلا الأمرين لا يليقان بالله سبحانه فهو تعالى محيطٌ غير محاط به، مطلق غير مقيد، منزّه عن التركُّب والتبعُّض.

علـى أنَّ ما قلناه يرتبط بالرؤيـة الحسّيّة والبصريّة، لا الرؤيـة القلبيّة، والشهود الباطنيّ الّذي يتحقّق للمرء بفضل الإيمان الكامل، واليقين الصادق، فإنّ هذا القسمَ خـارجٌ عن محـطّ البحث وإطار النقاش. ولا ريب في إمـكان وقوعه بل وقوعه لأولياءِ الله، وعباده الصالحين المقربين.

قال ذعلب اليمانـيّ وهو من أصحاب الإمام علي عليه السلام قلت للإمام عليه السلام: «**هل**

رأيتَ ربَّك يا أميرَ المؤمنين؟ قالَ الإمام عليه السلام: أفَأعْبُدُ ما لا أرى، فقال ذعلب: وكيف تراهُ؟ فقال عليه السلام: لا تراهُ العُيُونُ بمشاهدة العَيانِ وَلكِنْ تدركهُ القُلُوب بحَقائقِ الإيمان»[1].

إنّ الرؤية بالبصر علاوةً على كونها ممتنعةً عقلاً، مرفوضةً من جانبِ القرآن الكريم، فقد صرّحَ القرآن الكريم بنفي إمكان ذلك.

فعندما طَلَب النبيّ موسى عليه السلام من الله (تحت إلحاح وضغط من قومه) أن يريه نفسَه ردّ عليه سبحانه بالنفي المؤكد قائلاً: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾[2].

2. رؤية الله في القرآن الكريم:

ويمكن أن يَسأَل أحد: إذا كانت رؤيةُ الله بالبصر والعَين غير ممكنة فلماذا قال القرآن الكريم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾[3]؟.

والجواب على ذلك هو: أنّ المقصود من النظر في الآية الكريمة، هو انتظار الرحمة الإلهيّة، لأنّ في الآية شاهدين على ذلك:

1 ـ إن النظر في هذه الآية نُسبَ إلى الوجوه وقال ما معناه: إنّ الوجوه المسرورة تنظرُ إليه. ولو كان المقصود هو رؤية الله بالبصر لنُسِبَ النظر إلى العيون لا إلى الوجوه.

2 ـ إن الكلام في هذه السورة عن فريقين: فريق يتمتّع بوجوهٍ مسرورةٍ مشرقةٍ وقد بيّن ثوابَها بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾.

وفريق يتسم بوجوه حَزينة مكفهرّة وقد بيّن جزاءها وعقابها بقوله: ﴿تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ﴾[4].

(1) نهج البلاغة، الخطبة 179.
(2) سورة الأعراف، الآية 143.
(3) سورة القيامة، الآيتان 22 و23.
(4) سورة القيامة، الآية 25.

والمقصود من الفقرة الثانيّة واضح وهو أنّ هذا الفريق يعلم بأنّه سيصيبه عذابٌ يفقر الظهر، ويكسره ولهذا فهو ينتظر مثل هذا العذاب الأليم.

وبقرينة المقابلة بين هذين الفريقين يمكن معرفة المقصود من الآية الأولى وهو أنَّ أصحاب الوجوه المسرورة تنتظر رحمة الله، فقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ كنايةٌ عن انتظار الرَّحمة الإلهيّة، ولهذا النّوع من التكنية وذكر شيء وإرادة شيء آخر كناية نظائر في المحاورات العرفية فيقال فلانٌ عينه على يد فلان، أي أنّه ينتظر إفضاله وإنعامه عليه.

وخلاصة القول؛ أنّه كما ينتظر أصحابُ الوجوه الحزينة عذاباً إلَهيّاً، ينتظرُ أصحابُ الوجوه المسرورة رحمةً إلَهيةً كُنّي بها بالنَظَر إليه جرياً على العادة المألوفة في المحاورات العرفيّة العربيّة، وبقرينة المقابلة التي هي من قوانين البلاغة وقواعدها.

هذا مضافاً إلى أنّه يجب أن لا يُكتفى في تفسير الآيات القرآنيّة بآية واحدة بل لا بدّ من استعراض ما يشابهُها من الآيات من حيثُ الموضوع، والتوصل إلى المفهوم الحقيقي بعد ملاحظة مجموعة تلك الآيات. وفي مسألة الرُؤية لو لاحظنا كلّ الآيات المتعلّقة بها في القرآن الكريم، بالإضافة إلى الأحاديث الشريفة في هذا المجال لاتّضحَ عدمُ إمكان رؤية الله تعالى في نظر الإسلام من دون غموضٍ.

الصِّفات الخَبَريّة

كُلُّ ما ذُكر إلى هُنا من الصّفات الإلهيّة (ما عدا التكلّم) كانَ برمّته من نوع الصّفات التّي يقضي العقلُ بإثباتها لله أو نَفْيها عنهُ. غَير أنَّ هناكَ مجموعةً من الصّفات وَرَدَت في آياتِ القرآنِ وفي السُّنة ولم يكن لها من مُسْتَنَدٍ ومَصْدرٍ سوى النقلِ مثل:

1 ـ يَدُ اللّه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾[1].

2 ـ وَجْهُ اللّه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[2].

3 ـ عَيْنُ اللّه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[3].

4 ـ الاسْتواء عَلى العَرش: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[4].

والعلّة في تسمية هذا النوع من الصفات، بالصفات الخبرية، هو ثبوتها للّه بإخبار الكتابِ والسُنّة بِها فقط.

بيان لحقيقة الصفات الخبرية

للحصول على التفسير الواقعيّ لهذا النوع من الصفات يجب أيضاً ملاحظة كلّ الآيات المتعلّقة بهذا المجال. كما أنّه يجب أن نعلم أنّ اللّغة العربيّة شأنها شأن غيرها من اللّغات الأخرى زاخرة بالكنايات والاستعارات والمجازات، وبما أنّ القرآن نزل بلغة القوم لذلك استخدم هذه الاساليب أيضاً. وفيما يلي بيان هذه الصفات وتفسيرها على ضوءِ ما مرّ:

1. بيان معنى اليد:

في الآية الأولى قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ لأنّ مبايعة الرسول بمنزلة مبايعة المرسِل، ثم يَقُول بعد ذلك: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وهذا يعني أن قدرة اللّه أعلى وأقوى من قدرتهم وَلا يعني أنّ للّه يَداً جسمانيّة حسيّة تكون فوق أياديهم. ويشهد على ذلك أنّهُ قال في ختام الآية وعقيب ما مرّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5]. فمن نكث بيعته

(1) سورة الفتح، الآية 10.
(2) سورة البقرة، الآية 115.
(3) سورة هود، الآية 37.
(4) سورة طه، الآية 5.
(5) سورة الفتح، الآية 10.

فـلا يضرّ اللّه شيئاً لأنّ قـدرة اللّه فوق قدرتهم. إنّ هذا النمط من الكلام والخطاب الـذي يتضمـن تهديدَ الناكثيـن لعهدهم والتنديـد بهم، وامتـداح الموفين بعهدهم وتبشيرهـم، يدل على أنّ المقصود من «يَد اللّه» هـو القدرةُ والحاكمية الإلهيّة. على أنّ لفظة «اليَد» تُستخدَم أحياناً في جميع اللُغات للكناية عن القُدرة والقُوة، والسُلطة والحاكميـة، ومـن هذا الباب قولِهم: فَوْقَ كل يدٍ يدٌ، أي فـوقَ كُلّ قوةٍ قوةٌ أعلى، وفوق كلّ قدرةٍ قدرةٌ أكبر.

2. **بيان معنى الوجه:**

إنّ المقصودَ من الوَجه الذي نُسِبَ إلى الحقّ تعالى هنا هو ذاته سبحانه لا العضوُ الخاصُ الموجودُ في جسم الإنسان ومـا يشابهُهُ. فالقرآنُ عندما يتحدّث عن هلاك مـا سوى اللّه وفنائـه يقـول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[1]. ثم يخبر عقيبَ ذلـك مباشرةً عن بقاء الذات الإلهيّة ودوامها وأنّه لا سبيل للفناء إليها فيقول: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾[2]، أي تَبقى ذاته المقدسة، ولا تفنى أبداً.

مـن هـذا البيان يتّضح بجلاءٍ معنى الآية المبحوثة هنـا، ويتبيّن أنّ المقصودَ هو أنّ اللّه ليـس في جهـة أو نقطة معيّنة، بل وجوده محيط بجميـع الأشياء فأينما وَلَّيْنا وُجوهَنـا، فقد وَلَّيْنا وجوهَنا شطرهُ. ثـم إنّ القرآن أتى لإثبات هذه الحقيقة العظيمة بوصفين للّه تعالى:

أ. واسعٌ: أيْ إنّ وجود اللّه لا نهاية له ولا حدود.

ب. عَلِيمٌ: أيْ إنّه عارفٌ بجميع الأشياء.

(1) سورة الرحمن، الآية 26.

(2) سورة الرحمن، الآية 27.

3. بيان معنى عين الله:

في الآية الثالثة يذكر القرآنُ الكريم أنّ نوحاً عليه السلام كُلّف من جانب الله بصنع سفينة وإعدادها. وحيث إنّ صنعَ تلك السفينة كان في مكان بعيد عن البحر، لذلك استهزأ قومُه به، وسخر به الجهلة منهم، وآذَوه. ولذا في مثل هذه الظروف قال له الله تعالى: اصنع أنتَ السفينة ولا تُبالي، فأنتَ تفعل ذلك تحت إشرافنا، وهو أمرٌ قد أوحينا نحن به إليك. فالمقصود من قوله ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾[1] هو أن نوحاً قامَ بما قام من صُنْع السفينة حسب أمر الله له، ولهذا فإنّ الله سيحفظه ويكلاؤه برعايته، ويحميه، ولن يَصل إليه من المستهزئين شيءٌ إذ هو في رعاية الله، ويعمل تحت عنايته.

4. بيان معنى الاستواء على العرش:

إنّ العَرشَ في اللغة العربيّة بمعنى السرير، ولفظ «**الاستواء**» إذا جاء مع لفظة «**على**» كان المعنى هو الاستقرار والاستيلاء. وحيث إنّ الملوك والأُمراء بعد أن جلسوا على منصة العرش يعمدون إلى تدبير الأمور، وتسييرها في بلادهم، لهذا كان هذا النوعُ من التعبير (أعني: الاستواء على العرش) كناية عن الاستيلاء، والسيادة، والقدرة على تدبير الأمور، خاصة إذا نُسبَ ذلك إلى الله سبحانه. هذا مضافاً إلى أنّ الأدلّة العَقلية والنقلية أثبتت تنزّه الحق تعالى عن المكان.

وممّا يشهد بأنّ الهدف من هذا النمط من التعابير، ليس هو الجلوسُ على السَرير الماديّ، بل هو كناية عن تدبير أُمور العالم أمران:

أ. إنّ هذه العبارة جاءت في كثير من آيات الكتاب العزيز مسبوقةً بالحديث عن خلق السماوات والارض، للإشارة إلى أنّ هذا الصرح العظيم قائم من غير أعمدة مرئيّة.

(1) سورة هود، الآية 37.

ب. إن هـذه العبارة جاءت فـي آيات كثيرة من الكتاب العزيز ملحوقةً بالكلام عن تدبير العالم.

إنّ ورود هذا التعبير في القرآن الكريم مسبوقاً تارةً بالحديث عن الخلق، وملحوقاً تـارة أُخرى بالحديث عن التدبير يمكن أن يساعدَنا على فهم المقصود من الاستواء علـى العرش، وأنّ القرآن يُريدُ بهـذه العبارة أن يُفَهّمَ البشريـةَ أنَّ خلق الوجود على سعتـه، وعظمته، لم يوجب خروج هذا الكون العظيم عـن نطاق تدبيره ومشيئته، بل اللّه تعالى مضافاً إلى كونه خالقَ الكون، وموجده، فهو مدّبرُه، ومصرّفُ شؤونه. وها نحن نختارُ من بين الآيات العديدة في هذا الصعيد آيةً جامعةً للحالتَين (المذكورتين سابقاً) تفيد ما ذكرناه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾[1]، [2].

(1) سورة يونس، الآية 3.

(2) يراجَع في هذا الصدد الآيات: 2، سورة الرعد، 4، سورة السجدة، 54، سورة الأعراف.

المفاهيم الرئيسة

- الهَـدَف مـن الصّفـات السَلبيّـة هـو تنزيـه ذات الله سبحانه مـن النقص، والحاجة والفقر.
- إنّ الله – تعالـى– لكونه غنيّاً موصوفاً بالكمـال المطلق، منزَّهٌ عن كُلّ وصف يحكي النقص، والحاجة والفقر.
- إنّ كون الله مرئياً لا يخلو من حالتين:

1. إمّا أن يكونَ كلّ وجودِه مرئياً، وفي هذه الصورة يكون الله المحيط؛ مُحاطاً ومحدوداً.
2. وإما أن يكونَ بعض وجودِه مرئياً، وفي هذه الصورة يكونُ الحق – تعالى– ذا أجزاء وأبعاض.

وكلا الأمريـن لا يليقـان بالله سبحانـه فهو تعالى محيطٌ غيـر محاط به، مطلق غير مقيد، منزّه عن التركب والتبعّض.

- يجب أن لا يُكتفى في تفسير الآيات القرآنيّة بآية واحدة بل لا بدّ من استعراض مـا يشابهُها مـن الآيات من حيثُ الموضوع، والتوصـلُ إلى المفهوم الحقيقي بعد ملاحظة مجموعة تلك الآيات.
- إنّ الله ليسـ في جهة أو نقطة معيّنة، بل وجوده محيط بجميع الأشياء فأينما وَلَّيْنا وُجوهَنا، فقد وَلَّيْنا وجوهَنا شطرهُ.

أسئلة الدرس

1- ما هو الدليل على نفي التجسيم لله؟

2- كيف نفى القرآن الكريم القدرة على رؤية الله ؟

3- ما هو المقصود من الصفات الخبرية؟

الولاية والتوحيد

عـن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام فـي قول الله عز وجل: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا﴾[1] قال: «إنّا الله تبارك وتعالى لا يأسف كأسفنا، ولكنّه خلق أولياء لنفسه يأسَفون ويرضون، وهم مخلوقون مدبّرون، فجعل رضاهم لنفسه رضى وسخطهم لنفسه سَخَطاً، وذلك لأنّه جعلهم الدعاة إليه والأدلّاء عليه، فلذلك صاروا كذلك، وليس أنّ ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك، وقد قال أيضاً: من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها. وقال أيضاً: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾[2] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾[3] وكل هذا وشبهه على ما ذكرت لك، وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء ممّا يشاكل ذلك ولو كان يصل إلى المكوّن الأسَف والضجر وهو الذي أحدثهما وأنشأهما لجاز لقائل أن يقول: إنّ المكوّن يَبيد يوماً ما، لأنّه إذا دخله الضجر والغضب دخله التغيير وإذا دخله التغيير لم يؤمن عليه الإبادة، ولو كان ذلك كذلك لم يعرف المُكوِّن من المكوَّن، ولا القادر من المقدور، ولا الخالق من المخلوق، تعالى الله عن هذا القول علوّاً كبيراً، هو الخالق للأشياء لا لحاجة، فإذا كان لا لحاجة استحال الحدّ والكيف فيه، فافهم ذلك إن شاء الله»[4].

(1) سورة الزخرف، الآية 55.
(2) سورة النساء، الآية 80.
(3) سورة الفتح، الآية 10.
(4) الصدوق، التوحيد، ص164، باب معنى رضاه عزوجل وسخطه، ح2.

الدرس العاشر

العَدلُ الإلَهيُّ

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر الأسباب التي تؤدّي إلى فعل الظلم.
2. يشرح أدلّة إدراك العقل للحسن والقبح.
3. يبيّن كيف يتجلّى العدل الإلهيّ في التكوين والتقنين.

مقدّمة

إنّ لمسألة العدل الإلهي في التاريخ الإسلاميّ أخذاً وردًّا طويلين، ويتبيّن ذلك من خلال النقاشات التي دارت بين المذاهب الإسلامية، وخاصّة في زمن الإمامين الصادقين عليهما السلام، فقد كثر الكلام في زمانهما عن الجبر والتفويض، واختيارية الإنسان، وانقسم المسلمون حينذاك إلى فرق متعدّدة يمكن حصرها في ثلاث فرق وهي الأشاعرة الذين قالوا بالجبر الإلهي، والمعتزلة الذين قالوا بالتفويض، والإمامية الذين قالوا بدورهم باختياريّة الإنسان وأنه لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين.

وقد أطلق على كلّ من الإماميّة والمعتزلة وصف العدليّة انسجامًا مع قولهم بعدم الجبر الإلهي في مقابل الأشاعرة الذين بقولهم بالجبر نسبوا الظلم إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والملاحظ أن مسألة العدل الإلهي ترتبط بمسألة القضاء والقدر وبمسألة الجبر والتفويض، فكل هذه المسائل تنسجم فيما بينها، ولذلك سوف نتكلم عن الجبر والتفويض في الدروس اللاحقة.

العدل من الصفات الجمالية

يعتقـدُ المسلمون جميعاً بعدل اللّه تعالى والعَدلُ مـن الصفات الإلهيّة الجماليّة. وَيَنطلـقُ اعتقـاد المسلميـن جميعًا بعدل اللّه عزّ وجـلّ من نفي القـرآن لأيّ نوع من أنـواع الظُلم عَن اللّه تعالى، ووَصفه بكونه «قائماً بالقسط» كما يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ﴾[1]. ويقـول أيضـاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا﴾[2]. ويقـولُ كذلـك: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾[3].

إنّ العقـل مضافـاً إلى الآيات المذكورة يحكـم بوضوح بالعَدل الإلَهـيّ لأنَّ العَدْلَ صفةُ كمال، والظلمُ صفةُ نقص، والعقلُ يحكمُ بأنّ اللّه تعالى مُستجمعٌ لجميع صفات الكمال، منزَّهٌ عن كلّ عيبٍ ونقصٍ في مقام الذات والفعل.

الذات الإلهيّة منزّهة عن الظلم

الظلمُ أساساً نابعٌ من أَحَد عواملَ ثلاثة:

1 ـ جَهل الفاعلِ بقبح الظُلم.

2 ـ احتياج الفاعلِ للظُلم إلى الظلم مع علمه بقبحه، أو عجزه عن القيام بالعدل.

3 ـ كـون فاعـلِ الظُلم سفيهاً غيرَ حكيم، فهو لا يبالي بإتيان الأفعالِ الظالمة رغم علمه بقبحها، ورغمَ قدرته على القيام بالعدل.

ومن البديهي أنّه لا سبيل لأيّ واحدٍ من هذه العَوامل إلى الذات الإلهيّة المقدّسة، فهو تعالى منزّهٌ عـن الجَهل، والعَجز، وعن الاحتياج والسَّفه، ولهذا فإنّ جميع أفعاله تتسم بالعَدل والحكمة.

(1) سورة النساء، الآية 40.
(2) سورة يونس، الآية 44.
(3) سورة آل عمران، الآية 18.

ولقد أشار الشيخ الصدوق إلى هذا إذ قال: «**والدليل على أنّه لا يقع منه عزّ وجلّ الظلم ولا يفعلهُ أنّه قد ثبت أنّه تبارك وتعالى قديم غنيٌّ عالم لا يجهل، والظلم لا يقع إلاّ من جاهل بقبحه أو محتاج إلى فعله منتفع به**»[1]. كما أشار إليه المحقّق نصير الدين الطوسي بقوله: «**واستغناؤه وعلمه يدلاّن على انتفاء القبح عن أفْعاله تعالى**»[2].

معنى العدل

ونظراً إلى هذه الآيات اتّفقَ المسلمون على ثبوت العدل للّه تعالى والاعتقاد بكونه عادلاً، إلاّ أنّهم اختلفوا في تفسير العدل الإلَهي واختارَ كلُّ فريقٍ إحدى النظريّتين التاليتين:

1. إنّ العقلَ البشريّ السليمَ يدرك بنفسه حسنَ الأفعال وقبحها، ويعتبر الفعلَ الحَسَن علامةً لكمال فاعله، والفعلَ القبيحَ علامةً لنقصان فاعله. وحيث إنّ اللّه مستجمعٌ بذاته لجميع صفات الكمال، لهذا فإنّ فعلَه كاملٌ ومحمودٌ، وذاته المقدّسة منزّهةٌ عن كل فعلٍ قبيح. هذا ويجدُر التذكيرُ بنقطة هامّة هنا، وهي أنّ العقلَ لا يحكم على اللّه بشيءٍ، ولا يقول: يجب على اللّه أن يكونَ عادلاً، بل كلُّ ما يفعلهُ العقلُ هنا هو أن يكتشفَ واقعيّةَ الفعلِ الإلَهيّ، يعني أنّه بالنَظَر إلى كمالِ اللّه المطلَق، وتنزُّهه سبحانه عن كلّ نقصٍ وعيب، يكتشف أنّ فعلَه كذلك في غاية الكمال، وأنّه منزَّه أيضاً عن النقص، فهو بالتالي سيعامل عباده بالعدل، ولا يظلم أحداً منهم أبداً. وما ذكَرَتهُ الآياتُ القرآنيّة في هذا المجال إنّما هو في الحقيقة تأكيدٌ وتأييدٌ لما أدركه الإنسان من طريق العقل. وهذا هو ما اصَطُلِحَ عليه في علم الكلام الإسلاميّ بمسألة الحُسن والقُبح

(1) الصدوق، التوحيد، ص 396 و 397.

(2) الحلي، كشف المراد، تحقيق: حسن زادة آملي، قم- إيران، مؤسسة النشر الإسلامي، 1417هـ، ص470.

العقليّيـن، ويُسمّى القائلون بهذه النظرية بالعَدليّة، ويقف في طليعتهم الشيعةُ الإماميّةُ الاثنا عشرية.

2. وتقابـل تلك النظرية، نظريةٌ أُخرى وهي أنّ العقـلَ البشريّ عاجز عن إدراك الحُسـن والقُبح في الأفعال حتى فـي صورتها الكليّة، وتحصر الطريق لمعرفة الحسـن والقبـح فـي الوحي الإلَهـيّ وهذا ما يصطلـح عليه بالحسـن والقبح الشرعييـن، فمـا أمـرَ به اللّه فهـو حَسَنٌ وما نهـى عنه فهو قبيـحٌ. وعلى هذا الأساس فلو أَمَرَ اللّه بإلقاءِ إنسان بَـريء في النار، أو إدخال عاصٍ في الجنة كان ذلـك عينَ الحسن والعـدل. وقول هذا الفريق هـو: إنّ وصف اللّه بالعدل ليس إلاّ لكون هذا الوصف جاء في القرآن الكريم ليس إلاّ.

إدراك العقل للحسن والقبح

حيث إنّ مسألة الحُسن والقُبح العقليّين تُمَثّلُ الأساس والقاعدة للكثير من عقائد الشيعة الإمامية، لذلك نشير فيما يأتي إلى دليلَين من أدلّتها العديدة:

1. إنّ كلَّ إنسان مهما كان دينه ومسلكه، وأينما حلّ من بقاع الأرض. يدرك بنفسه حُسنَ العـدل، وقبح الظلم، وكذلك يدرك حُسنَ الوفـاءِ بالعهد، وقبحَ نقضه، وحسـنَ مقابلـة «**الإحسـان بالإحسـان**» وقبـح مقابلـة «**الإحسـان بالإساءة**». ودراسـةُ التاريخ البشـريّ تشهدُ بهذه الحقيقـة وتؤكّدُها، ولم يُـرَ حتى اليوم إنسانٌ عاقلٌ ينكرها قط.

2. لوفَرَضْنا أنّ العقل عجز تماماً عن إدراك حسنِ الأفعال وقبحها، واحتاج الناس فـي معرفة حسن جميع الأفعال وقبحهـا إلى الشرع، لزم من ذلك عدم إمكانِ إثبـات الحسـن والقبح الشرعيّين أيضاً ذلك لأنّنا لـوفَرضنا أن الشارع أخبَرَ عن حُسن فعل أو قبح آخر لا يمكننا أنْ نتوصَّل إلى معرفة حُسن ذلك الفعلِ أو قبحِه، بواسطة هذا الإخبار، ما دمنا نحتمل الكذب في إخبار الشارع وكلامه،

إلاّ إذا ثبت قَبْل ذلك قبحُ الكذب وتنزّه الشارع عن هذه الصفة القبيحة، ولا يمكن إثبات ذلك إلاّ من طريق العقل[1].

هذا مضافاً إلى أنّه يُستفاد من الآيات القرآنيّة أنّ العقل البشريّ قادرٌ على إدراك حسن بعض الأفعال أو قبحها، ولهذا احتكم القرآنُ إلى العقل واللبّ، ودعا إلى تحكيمه أكثر من مرة إذ قال: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2]. وقال أيضاً: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾[3].

وهنا يُطرح سؤال لا بدّ من الإجابة عليه وهو أن الله تعالى قال: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾[4]. والسؤال الآن هو: إذَنْ لا يمكن أن يُسأل الله عن أيّ فعل قامَ به والحال أنّه بناءً على كون الحُسن والقبح عَقْليَّيْن إذا فَعَلَ الله قبيحاً - افتراضاً - يُسأل ويُقال: لماذا فَعَلَ هذا الفعْل؟

والجواب هو: إنّما لا يُسأَل الله عن فعله لأنّه حكيمٌ، والحكيم لا يصدر منه القبيحُ قط، ففعلهُ ملازمٌ للحكمة أبداً، ولهذا لا يَبقى هناك ما يَستدعي المساءلة والاستفسار.

تجلّيات العدل الإلهيّ في مجالي التكوين والتقنين

إنّ للعَدل الإلَهي في مجالات التكوين والتشريع والجزاء، مظاهر مختلفة نبيّنها واحداً بعد آخر:

1. **العَدلُ التكوينيّ:** لقد أعطى الله تعالى لكلّ مخلوق خَلَقَه، ما هو لائقٌ به، ولازمٌ له، ولم تَغِبْ عنه القابليّاتُ عند الإفاضة والإيجاد أبداً.

(1) وعبارة المحقّق الطوسي في تجريد الاعتقاد تشير إلى هذا البرهان حيث قال: «ولانتفائهما مطلقاً (أي عقلاً وشرعاً) لو ثبتا شرعاً» أي لو انحصر إثبات الحسن والقبح في إخبار الشرع لانتفى حسنُ الأفعال وقبحُها بالكلية، ولم يثبُتا لا شرعاً ولا عقلاً.

(2) سورة القلم، الآيتان 35 و 36.

(3) سورة الرحمن، الآية 60.

(4) سورة الأنبياء، الآية 23.

يقول القرآنُ الكريمُ في هذا الصدد: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1].

2. **العدلُ التشريعيّ:** لقد هدى اللّٰهُ الإنسان الّذي يمتلكُ قابليّة الرُشد والتكامل، واكتساب الكمالات المعنويّة، بإرسال الأنبياء، وتشريع القوانين الدينيّة له. كما أنّه لم يُكلّف الإنسان بما هوَ فوق طاقته، ووُسعه، كما يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وحيث إنّ العَدل والإحسان وإيتاء ذي القربى توجب كمال الإنسان وتوجب الأفعالُ الثلاثة الأخرى (الفحشاء والمُنكر والبغي) سقوطَه، أمرَ سبحانه بالأعمال الثلاثة الأولى، ونهى عن الأفعال الأخيرة.

ويقول عن ملائمة التكاليف الإلهيّة لاستطاعة الإنسان وقدرته وعدم كونها خارجة عن حدود هذه الاستطاعة أيضاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[3].

3. **العدل في الجزاء:** إنّ اللّٰه لا ينظر إلى المؤمن والكافر، والمحسن والمسيء من حيث الجزاء نظرةً سواء قط، بل يجازي كُلاًّ طبقاً لاستحقاقه ووفقاً لعَمله فيثيبُ المحسنَ، ويعاقبُ المسيء.

وعلى هذا الأساس لا يعاقبُ مَن لَمْ تبلُغْهُ تكاليفهُ عن طريق الأنبياء والرسل، ولم تتم عليه الحجةُ كما يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[4]. ويقول أيضاً: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ﴾[5].

(1) سورة طه، الآية 50.
(2) سورة النحل، الآية 90.
(3) سورة البقرة، الآية 286.
(4) سورة الإسراء، الآية 15.
(5) سورة الأنبياء، الآية 47.

الهدفيّة في خلق الإنسان

إنّ اللّه خلـق الإنســان، وكان لخلقه وإيجاده هدفٌ خاصٌ، وهو وُصول الإنسان إلى الكمالِ الإنساني المطلوبِ الذي يتحقّق في ظلّ عبادة اللّه، وطاعته.

ولــو كان وصــولُ الإنســان إلى الهـدف متوقّفاً على مقدّمــات، هَيَّــأ سبحانه تلكَ المقدّمــات، وسهّل لَــه طريق الوُصول إلى الهدف، وإلاّ كان خلـقُ الإنسان عبثاً خالياً عَنِ الهَدَف.

من هنا بعث اللّه أنبياءَه ورسُله وزوّدهم بالبيّنات والمعاجز، كما أنّه ترغيباً لعباده فــي الطاعة، وتحذيراً لَهُمْ عن المعصيَةِ ضمَّنَ تلكَ الرسالات وَعْدَه ووعيده، فبشّروا وأنذروا.

وهذا الّذي قُلناه هو خلاصة ما يسمّى في كلام «**العدليّة**» بـ « **قاعدة اللُّطف**» وهي مــن فُروع قاعدة الحُسنِ والقبحِ العقليّين، كما أنّها هي الأساس والمنطَلَق للكثيرِ من قضايا العقيدة ومسائلها.

المفاهيم الرئيسة

- يعتقدُ المسلمون جميعاً بعدل اللّه تعالى والعَدلُ من الصفات الإلهيّة الجماليّة.
- إنّ العقل مضافاً إلى الآيات المذكورة يحكم بوضوح بالعَدلِ الإلَهيّ لأنَّ العَدْلَ صفةُ كمالٍ، والظلمُ صفةُ نقصٍ.
- الظلمُ نابعٌ من أَحَدِ عواملَ ثلاثة:

1. جَهل الفاعلِ بقبح الظُلم.
2. احتياج الفاعلِ للظُلم إلى الظلم مع علمه بقبحه، أو عجزه عن القيام بالعدل.
3. كون فاعلِ الظُلم سفيهاً غيرَ حكيم، فهو لا يبالي بإتيان الأفعالِ الظالمة رغم علمه بقبحها، ورغمَ قدرته على القيامِ بالعدل.

- ومن البديهي أنّه لا سبيل لأيّ واحدٍ من هذه العَوامل إلى الذات الإلهيّة المقدّسة، فهو تعالى منزّهٌ عن الجَهل، والعَجز، وعن الاحتياج والسَفه.
- اختلف المسلمون في تفسير العدل الإلَهي فمنهم من قال بنظريّة الحسن والقبح العقليين ومنهم من قال بالحسن والقبح الشرعيين.
- إنّ اللّه خلق الإنسان، وكان لخلقه وإيجاده هدفٌ خاصٌ، وهو وُصول الإنسان إلى الكمالِ الإنساني المطلوبِ الذي يتحقّق في ظلّ عِبادةِ اللّهِ وطاعتهِ.

أسئلة الدرس

1- ما معنى العدل؟ بيّن ذلك.

2- ما هو الدليل الذي يطرح على كون الحسن والقبح عقليّين؟

3- اذكر بعض المظاهر التي تتجلّى فيها عدالة اللّه سبحانه وتعالى.

الحكمة في أفعال اللّه

عن جابر بن يزيد الجُعْفي، قال: «**قلت لأبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: يا ابن رسول الله إنّا نرى من الأطفال من يولد ميّتاً، ومنهم من يسقُط غير تامّ، ومنهم من يولد أعمى أو أخرس أو أصمّ، ومنهم من يموت من ساعته إذا سقط على الأرض، ومنهم من يبقى إلى الاحتلام، ومنهم من يعمَّر حتّى يصير شيخاً، فكيف ذلك وما وجهه؟ فقال عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أولى بما يدبّره من أمر خلقه منهم، وهو الخالق والمالك لهم، فمن منعه التعمير فإنّما منعه ما ليس له، ومن عمّره فإنّما أعطاه ما ليس له، فهو المتفضّل بما أعطاه وعادل فيما منع، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون، قال جابر: فقلت له: يا ابن رسول الله وكيف لا يسأل عمّا يفعل؟ قال: لأنّه لا يفعل إلّا ما كان حكمة وصواباً؛ وهو المتكبّر الجبّار والواحد القهّار فمن وجد في نفسه حرجاً في شيء ممّا قضى الله فقد كفر، ومن أنكر شيئاً من أفعاله جحد**»[1].

(1) الصدوق، التوحيد، مصدر سابق، ص386، ح13.

الدرس الحادي عشر

القضاء والقَدَر (1)

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى القضاء والقدر لغة.
2. يشرح المعنى الاصطلاحي للقضاء والقدر.
3. يذكر نماذج من الكتاب والسنة تتحدّث عن القضاء والقدر.

القدر والقضاء لغةً واصطلاحًا

1. **لغة:**

أ. **القدر:** قال ابن فارس: «**القدر بفتح الدال وسكونه حدّ كل شيء ومقداره وقيمته وثمنه، ومنه قوله تعالى:** ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾[1] **أي قدر بمقدار قليل**»[2].

وقال الراغب: «**القدر والتقدير تبين كمية الشيء، يقال قدرته وقدّرته وقدّره بالتشديد: أعطاه القدرة فتقدير الأشياء على وجهين: أحدهما بإعطاء القدرة، والثاني (وهو ما يهمنا) بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه مخصوص حسب ما اقتضت الحكمة**»[3].

ب. **القضاء:** (قضى) القاف والضاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾[4] أي أحكم خلقهن. والقضاء الحكم. قال الله سبحانه في ذكر من

(1) سورة الطلاق، الآية 7.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الإعلام الإسلامي، 1404هـ، ج5، ص36.
(3) الراغب الأصفهاني، مفردات غريب القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، ط دار الكتاب العربي، مادة«قدر»، ص409.
(4) سورة فصلت، الآية: 12.

قـال: ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾[1] أي أصنع واحكـم. ولذلك سُمي القاضي قاضياً لأنه يحكم الأحكام وينفذها[2].

2. **اصطلاحًا:**

بعد أن اتَّضَحَ معنى الْقَدر والقضاء من حيث اللُّغة، نَعْمَدُ إلى بيان معناهما حسب المصطلَح الديني:

أ. **القَـدَر:** إنَّ لوُجـود كلّ مخلـوق مـن المخلوقـات بحكم كونه مـن الموجودات الممكنـة (أي موصوفاً بصفة الإمكان) حَدّاً معيناً، ومقـداراً خاصّاً. فلوجود «**الجمـاد**» مثلاً حدّ خاص، ومقدار معيّن، ولوجود «**النبات**» و«**الحيوان**» مقدار وحَدّ آخر.

وحيـث إنّ الوجود المقدَّر لـكلّ شيء هو بدوره مخلوق لله تعالـى، لذا فإنّ من الطبيعي أن يكونَ التقديرُ والتحديدُ نفسه تقديراً إلَهياً.

كما أنّ هذا التقديرَ من جهة كونه فعلَ الله يسمّى «**التقدير الفعلي**» ومن جهة كون الله يعلم به قبل خَلْقه يُسمّى «**التقدير العلميّ**». وفي الحقيقة إن الاعتقاد بالقَدَر، اعتقادٌ بخالقية الله بلحاظ خصوصيات الأشياء.

وحيـث إنّ هذا التقدير الفعليّ مُستنـدٌ إلى علم الله الأزليّ، لهذا فإنَّ الاعتقاد بالقَدَر العلميّ يكون في حقيقته اعتقاداً بعلم الله الأزلي.

ب. **القضـاء:** إنّ «**القضـاء**» كما أسلفنا يعني الحَتمَ والجَـزمَ بوجود الشيء، ومن المُسلَّـم أنّ حتميـة وجود أيّ شيء وتحقّقه على أسـاس العليّة والمعلولية رهن تحقّـق علّتـه التامّة، وحيـث إنّ سلسلة العلـل والمعلـولات (وبالأحرى النظام العلّـي) تنتهي إلـى الله تعالى، لهذا فـإنّ حتمية تحقّق أيّ شـيءٍ يستند – في

(1) سورة طه، الآية: 72.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص99.

الحقيقة – إلى قدرة الله ومشيئته سبحانه. وهذا هو قضاءُ الله في مقام الفعل والخَلق. وعلمُ اللهِ الأزَليّ في مجال هذه الحتميّة يكون قضاءَ الله الذاتيّ.

ممّا تقدّم يتبيّن معنا أن القدر متقدّم على القضاء، فإنّ القضاء هو نتيجة ما قدّر، ولكن درج بين العلماء أن يذكروا القضاء قبل القدر لسهولة التلفظ بها لا أكثر.

كلُّ ما سَلَف يرتبط بقضاءِ الله وقَدَره التكوينيين، فعليّاً كان أم ذاتياً، وقد يكونُ «**القضاء والقدر**» مرتبطين بعالم التشريع ومجاله، بمعنى أنّ أصلَ التشريع، والتكليف الإلَهيّ يكون قضاءَ الله، وكذا تكون كيفيته وخصوصيّته كالوجوب، والحرمة، وغير ذلك تقديراً تشريعياً لله تعالى.

وعليه يكون معنى القضاء والقدر التشريعي؛ الأوامر والنواهي الإلهية الواردة في الكتاب والسنّة. وقد ذكّر الإمام أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام في جواب من سَأل عن حقيقة القضاء بهذه المرحلة من «**القضاء والقدر**» إذ قال: «**الأمرُ بالطاعَة، والنَّهْيُ عَن المعصيَة، والتَمْكينُ من فعْل الْحَسَنَة، وترك المَعْصيَة، والمعُونَةُ على القُرْبة إلَيْه، والخذْلانُ لمَنْ عصاهُ، والوَعْدُ والوَعيْدُ، والتَرْغيْب والتَرْهيْبُ كُلُّ ذلكَ قضاءُ الله في أفعالنا وقَدَرُهُ لأعمالنا**»[1].

هذا ولعلّ اقتصار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام – في الإجابة على سؤال السائل – على شرح «**القضاء والقَدَر**» التشريعيين، كان رعايةً لحال السائل، أو الحاضرين في ذلك المجلس، لأنّه كان يُستنبطُ منَ القضاء والقدر التكوينيين وشمولهما لأفعال الإنسان في ذلك اليوم الجَبْرُ وسلبُ الاختيار.

ولهذا ختم الإمام عليه السلام كلامه المذكور بقوله: «**أمّا غير ذلك فلا تَظُنَّهُ فَإنَّ الظّنَّ لَهُ مُحْبِطٌ للأعمال**»[2]. والمقصود هو أنَّ قيمةَ الأعمال تنبُعُ من كونِ الإنسان

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج5، ص84، ح20.
(2) م.ن.

مختاراً يأتي بأفعاله باختيارٍ وإرادة منه، ومع فَرضِ الجَبْرِ لا تبقى للأفعالِ أيَّةُ قيمة. والحاصلُ أنّ «**القَضاء والقدر**» قَد يكونان في مجال التكوين، وقد يكونان في مجال التشريع.

القضاء والقدر في الكتاب والسنّة

القضاءُ والقدرُ من العقائد الإسلامية المسلَّمة الّتي وَرَدَت في الكتاب والسُّنة، وأيَّدَتْها الأدلّة والبراهينُ العقليّةُ القاطعةُ.

1. الآيات القرآنيّة:

إنّ الآيات التي تَتَحدَّثُ عن «**القضاء والقدر**» كثيرة جداً ونحن نأتي بنماذج منها هنا:

يقول القرآن حول القدر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1].

ويقول أيضاً: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[3].

كما يقول حول القضاء: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[4].

ويقول أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾[5].

2. الروايات:

هناك العديد من الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام في مسألة القدر والقضاء، منها ما يحكي عنها من الناحية العقائديّة، ومنها ما يحكي عنها من

(1) سورة القمر، الآية49.
(2) سورة الحجر، الاية 21.
(3) سورة الطلاق، الآية 3.
(4) سورة البقرة، الآية 117.
(5) سورة الأنعام، الآية2.

الناحية العباديّة، وهذا طبعًا يرجع للارتباط والانسجام بين الإيمان بالقضاء والقدر عند الإنسان وبين عمله.

وفي تفسير القضاء والقدر يقول الإمام الرّضا عليه السلام: «**القَدَرُ هي الهَنْدَسَة، وَوَضْعُ الحُدود من البقاء والفَناء. والقضاء هو الإبرامُ، وإقامة العَيْن**»[1].

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: لا يجد عبد طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه وأن الضار النافع هو الله عز وجل**»[2].

وعنه عليه السلام أيضًا أنّه قال لأحد أصحابه: «**أو تدري ما «قدر؟، قال: لا. قال: هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء، ثمّ قال: إن الله إذا شاء شيئًا أراده، وإذا أراده قدّره، وإذا قدّره قضاه، وإذا قضاه أمضاه**»[3].

وعنه عليه السلام أنّه قال: «**إن القضاء والقدر خلقان من خلق الله، والله يزيد في الخلق ما يشاء**»[4].

عن الأصبغ بن نباتة، قال: إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عدل من عند حائط مائل إلى حائط آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتفرّ من قضاء الله؟ فقال: «**أفرّ من قضاء الله إلى قدر الله عزّ وجلّ**»[5].

لقد تبيّن أنّ لعمل الإنسان دخالة في القدر، ويمكن للإنسان أن يتصرّف به حينئذٍ، وهذا - طبعًا- يرجع لحرّية الاختيار التي أولاها الله إليه، أمّا القضاء فهو ما حكم به الله عزّ وجلّ ويكون متأخرًا عن القدر رتبة، ويبتني عليه، وبعبارة أخرى

(1) الكليني، الكافي، ج 1، ص 158.
(2) م.ن، الكافي، ج2، ص58، ح7.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج5، ص122، ح69.
(4) الصدوق، التوحيد، ص354، باب القضاء والقدر...، ح1.
(5) م.ن، ص 369، بيانه في حديث الشقي من شقي، ح 8.

حسب القدر يكون القضاء، وذلك كلّه يرجع بنهايته إلى إذن الله سبحانه وتعالى، ولذلك ينسب إليه.

وَبالنَظَر إلى هذه الآيات والرّوايات العديدة في هذا الصعيد لا يُمكنُ لمسلم أن يُنكر «**القضاءَ والقدرَ**» وإنْ لَم يجب الإلمامُ بتفاصيل هذه المسألة ومعرفةُ جزئياتها.

وأساساً لا يَصْلُح الخَوضُ في هذه المسائل الدقيقة لمن لم يمتلك القابلية الذهنيّة والفكرية اللازمة لمثل هذه الحقائق الدقيقة، إذ طالما يمكن أن يتورّط مثل هذا في شكٍّ أو تردّد في عقيدته، ويقعَ في الضلال في نهاية المطاف.

ولهذا قال الإمام علي عليه السلام مخاطباً هذا الفريق من الناس:

«**طَريقٌ مُظْلمٌ فَلا تَسْلكوهُ، وبَحرٌ عَميق فَلا تَلجُوهُ، وسرُّ الله فلا تَتكَلَّفوه**»[1].

نعم تحذير الإمام عليه السلام هذا مُوَجّه إلى مَن لا يمكنه فهمُ هذه المعارف الدقيقة، وهضمها واستيعابها، بل وربّما يُؤدّي به الدُخول فيها إلى الضلال والانحراف.

ويشهد بهذا الموضوع أنّه عليه السلام طالَما عَمَد- في موارد ومواضع أُخرى - إلى شرح وبَيان مسألة القضاء والقدر[2].

(1) نهج البلاغة، الكلمات القصار، 287.

(2) الكليني، الكافي، ج 1، ص 158.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ سلسلة العلل والمعلولات تنتهي إلى الله تعالى، لهذا فإنّ حتمية تحقّق أيّ شيءٍ يستند إلى قدرةِ الله ومشيئته سبحانه، وهذا هو قضاءُ الله في مقامِ الفعل والخَلق.
- القضاءُ والقدرُ من العقائد الإسلاميّة المسلَّمة الّتي وَرَدَت في الكتاب والسُّنة.
- إنّ الوجود المقدَّر لكلّ شيء هو بدوره مخلوق لله- تعالى-، لذا فإنّ من الطبيعيّ أن يكونَ التقديرُ والتحديدُ نفسه تقديراً إلَهياً.
- التقدير من جهة كونه فعلَ الله يسمّى «**التقدير الفعليّ**» ومن جهة كون الله يعلم به قبل خَلْقه يُسمّى «**التقدير العلميّ**».
- بالنَظَر إلى الآيات والروايات العديدة لا يُمكنُ لمسلم أن يُنكر «**القضاءَ والقدرَ**» وإنْ لَم يجب الإلمامُ بتفاصيل هذه المسألة ومعرفةُ جزئياتها.
- إنّ أصلَ التشريع، والتكليف الإلَهيّ يكون قضاءَ الله، وكذا تكون كيفيته وخصوصيّته كالوجوب، والحرمة، وغير ذلك تقديراً تشريعياً لله تعالى.
- لا يَصْلُح الخَوضُ في هذه المسائل الدقيقة لمن لم يمتلك القابلية الذهنيّة والفكريّة اللازمة.

أسئلة الدرس

1- ما هو المعنى الاصطلاحي للقضاء والقدر ؟

2- ما الذي يتقدّم رتبة القضاء أم القدر؟ ولماذا؟

3- اذكر آيتين من الآيات التي تحكي عن القضاء والقدر.

سرّ الله

روي أنّـه جاء رجل إلـى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا أميـر المؤمنين أخبرني عن القَدَر، قال عليه السلام: بحر عميق فلا تلجه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال عليه السلام: طريق مظلم فلا تسلكه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال عليه السلام: سـرّ الله فلا تكلّفه[1] قـال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القـدر، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أمّـا إذا أبيت فإنّي سائلك، أخبرني أكانت رحمـة الله للعباد قبل أعمال العباد أم كانـت العباد قبل رحمـة الله؟! قال: فقال له الرجل: بل كانـت رحمة الله للعباد قبل أعمـال العباد، فقال أميـر المؤمنين عليه السلام: قوموا فسلّموا على أخيكـم فقد أسلم وقد كان كافـراً، قـال: وانطلق الرجل غير بعيد، ثمّ انصرف إليه فقال له: يا أمير المؤمنين أبالمشيّة الأولى نقوم ونقعد ونقبض ونبسط؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: وإنّك لبَعْدُ في المشيّة[2] أما إنّي سائلك عن ثلاث لا يجعل الله لك في شيء منها مخرجاً: أخبرني أخلـق الله العباد كما شاء أو كما شـاؤوا؟ فقال: كما شاء، قال عليه السلام: فخلق الله العباد لمـا شـاء أو لما شاؤوا؟ فقال: لما شاء، قال عليه السلام: يأتونه يـوم القيامة كما شاء أو كما شاؤوا؟ قال: يأتونه كما شاء. قال عليه السلام: قم فليس إليك من المشيّة شيء[3] [4].

(1) في البحار باب القضاء والقدر: «فلا تتكلفه».

(2) وفي نسخ أخرى: «وإنك لبعيد في المشيئة».

(3) إنّ السائل توهّم أنّ أعمال العباد لو كانت واقعة بقدر الله تعالى لزم الظلم إذا عذّبوا عليها إذ لا محيص لهم عن القدر، كمـا أنّ هـذا التوهّم ألجأ المفوّضة إلى التفويض ونفي القدر فأجاب عليه السلام أنّ أعمال العباد مسبوقة برحمته، مرتبطة بها، مقدّرة بها كسائر الأشياء، فإنّ رحمته وسعت كلّ شيء، فإن كانت مقدّرة بها فلا معنى لأنّ يكون في التقدير ظلم، فالجواب يرجع إلى نفي الملازمة بإثبات ضدّ الظلم في القدر، وحيث إنّه عليه السلام نفى التفويض وأثبت القدر توهّم الجبر فرجـع وقـال: «أبا لمشيئة الأولى - إلـخ» إذ إثبات القدر في الأعمال يستلزم كونها بمشيئته، وهذا من عجيب أمر هذا المبحث إذ نفي أحد الطرفين يجرّ إلى الطرف الآخر والقرار في الوسط يحتاج إلى قريحة لطيفة وفكرة دقيقة، فأثبت عليه السلام للعبد مشيئة ولله تعالى المشيئة إلّا أنّها متقدّمة حاكمة عليها مؤثّرة فيها. وقوله: «فليس إليك من المشيئة شيء» أي ليـس شـيء من مشيئتك مفوّض إليك من دون تأثير مشيئته، وهـذا هو الأمر بين أمرين، وفي نسخة آخرى «فليس إليك في المشيئة شيء» وفي نسخة أخرى «فليس لك من المشيئة شيء» وفي نسخة أخرى «ليس لك في المشيئة شيء».

(4) الصدوق، التوحيد، ص353، ح12.

الدرس الثاني عشر

القضاء والقدر (2)

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن كيف لا يتنافى القضاء والقدر مع الاختيار.
2. يشرح مسألة « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين».
3. يبيّن عدم التنافي بين علم الله الأزلي وحريّة الإنسان.

الحديث عن القضاء والقدر يجرّنا تلقائيًّا إلى الحديث عن اختيارية الإنسان وحرّيّته، وذلك للارتباط الوثيق بينهما، وسوف نتناول هذه المسألة ضمن نقاط أربع:

لا تنافي بين القضاء والقدر والاختيار

إنّ «القَضاء والقَدَر» في مجال أفعال الإنسان لا ينافيان اختياره، وما يوصف به من حرّية الإرادة قط، لأنَّ التقديرَ الإلَهيَّ في مجال الإنسان هو فاعليّتُهُ الخاصّة وهو كونه فاعلاً مختاراً مريداً، وأن يكون فعلُهُ وتركُهُ لأيّ عَمَل تحت اختياره وبإرادته.

إنّ القضاء الإلَهي في مجال فعل الإنسان هو حتميَّتُهُ وتحقُّقُهُ القطعيُّ بعد اختيار الإنسان له بإرادته. وبعبارة أُخرى؛ إنّ خلْقَةَ الإنسان مجبولةٌ على الاختيار، ومزيجةٌ بحرّية الإرادة ومقدّرة بذلك، وإنّ القضاءَ الإلَهيَّ ليس إلاّ هذا، وهو أنَّ الإنسان متى ما أَوْجَدَ أسباب وقوع فعْلٍ مّا تمَّ التنفيذ الإلَهيّ من هذا الطريق.

إنّ بعض الأشخاص يَعتَبر أن العصيان، ظاهرة ناشئة من التقدير الإلَهيّ، ويتصوَّر أنّ العاصي لا يقدر على اختيار طريق آخر غير ما يسلكهُ، في حين يَرفُضُ العقلُ والوحيُ هذا التصوّرَ لأنّ العقلَ يقضي بأنَّ الإنسان هو الّذي يختار بنفسه مصيرَه وهو كذلك في نظر الشرع أيضاً، أي إنّه حَسْب نظر الوَحْي يقْدر انْ يكون إنساناً شاكراً صالحاً، أو كافراً طالحاً. ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1].

(1) سورة الإنسان، الآية 3.

وفي عصر الرّسالة كان ثمّت فريق من الوثنيّين يتصوّرون أنّ ضلالَهم ناشئٌ من المَشيئة الإلهيّة. وكانوا يقولون: لَوْ لَمْ يُرِد اللّه أن نكون مشركين لما كنا مشركين.

إنّ القرآن الكريم يروي منطقَهم وتصوُّرَهم هذا بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ﴾[1]. ثم يقول في معرض الردّ عليهم: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾[2].

وفي الختام نُذَكّر بأنّ سُنَنَ اللّه الكليّة في عالم الخلق والتي تؤدّي إلى سعادة الإنسان تارةً، وإلى شقائه وخُسرانه تارة أُخرى، هي من مظاهر «القضاء والقَدَر» الإلَهيّين، وأنّ البشر هو الّذي يختار أحد هذين بنفسه. وقد مرّت الإشارَةُ إلى أُمورٍ في هذا المجال في الأبحاث السابقة المتعلّقة بالإنسان وموقعه في نظرة الإسلام إلى الحياة.

الاختيار حقيقة مسلّمة

إنّ اختيار الإنسان، وحريّة إرادته، حقيقة مسلّمةٌ وواضحةٌ، وفي مقدور كلّ أحَدٍ أن يُدركَه، ويقف عليه من طُرُقٍ مختلفة نشير إليها فيما يأتي:

1. إنّ وجدان كُلّ شخص يشهَد بأنّه قادرٌ في قراراته على أن يختارَ أحدَ الطرفين: الفعلَ أو التركَ، ولو أنّ أحداً تردّد في هذا الإدراك البديهي وجب أن لا يقبل أيَّة حقيقة بديهية أيضاً.
2. إنَّ المدحَ والقدحَ للأشخاص المختلفين في كلّ المجتمعات البشرية الدينيّة وغير الدينيّة، علامةٌ على أن المادحَ أو القادحَ اعتبر الممدوح، أو المقدوحَ فيه، مختاراً في فعله، وإلاّ لَما كانَ المدحُ والقدح منطقياً، ولا مُبرَّراً.

(1) سورة الأنعام، الآية 148.
(2) سورة الأنعام، الآية 148.

3. إذا تَجاهَلنا اختيارَ الإنسان وحرّية إرادته، كان التشريعُ أمْراً لَغواً وغيرَ مفيد أيضاً، لأنّ الإنسان إذا كان مضطراً على سلوك دون اختياره، بحيث لا يمكنه تجاوزه، والخروجَ عنه، لم يكن للأمرِ والنهي والوَعد والوعيد، ولا الثواب والعقاب أيُّ مَعنى.

4. نَحنُ نرى طوالَ التاريخ البشري أشخاصاً أقدَموا على إصلاح الفرد، أو المجتمع البشري وبذَلوا جهوداً في هذا السبيل فَحَصَلُوا على نتائجها وثمارها. إنّ مِنَ البَديهي أنّ تحقّق هذه النتائج لا يتناسب مع كون الإنسان مجبوراً، لأنّه مع هذا الفَرض تكونُ كلُّ تلك الجهود لاغيةً وغيرَ منتجة. إنَّ هذه الشواهدَ الأربعةَ تؤكّدُ مبدأَ الاختيار، وحرية الإرادة، وتجعله حقيقة لا تقبل الشك والترديد.

على أنّنا يجب أن لا نستنتج من مبدأ حرية الإنسان وكونه مختاراً أن الإنسان متروكٌ لحاله، وأن إرادته مطلقةُ العنان، وأنّه ليس لله أيّ تأثير في فعله، لأنّ مثل هذه العقيدة التي تعني التفويض تنافي أصل احتياج الإنسان الدائم إلى الله، كما أنّ ذلك يحدّد دائرةَ القُدرة والخالقية الإلَهيّتين، ويقيّدهما، بل حقيقة الأمر هي على النحو الذي سيأتي بيانهُ في الدرس اللاحق إن شاء الله.

لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين

بعد وَفاة النبيّ الأكرم ﷺ طُرحَت مسائل خاصّة في المجتمع الإسلامي منها مسألة كيفية صدورِ الفعل من الإنسان. فقد ذَهَبَ فريق إلى اختيار عقيدة الجبر، وقالوا بأنَّ الإنسان فاعلٌ مجبور، مسيَّر. وفي المقابل ذَهَبَ فريقٌ آخر إلى اختيار نظرية مخالفة، وقالوا إنّ الإنسان كائن متروكٌ لحاله، مفوّضٌ إليه، وأنّ أفعاله لا تستند إلى الله مطلقاً.

إنّ كلا الفريقين تصوّرا ـ في الحقيقة ـ أنّ الفعل إمّا أنّه يجب أن يستند إلى الإنسان، أو يستند إلى الله، أي إمّا أن تكون القدرة البشرية لوحدها هي المؤثرة، وإمّا أن تكون القدرةُ الإلهيّة هي المؤثّرةُ، ليس إلاّ. في حين هناك طريق ثالث أرشدنا إليه الأئمة المعصومون. يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**لا جَبْرَ ولا تفويضَ، ولكن أمرٌ بَين الأمرين**»[1].

يعني أنّ فعل الإنسان في حال كونه مستنداً إلى العبد، مستند إلى الله أيضاً، لأنّ الفعلَ صادرٌ من الفاعل، وفي نفس الوقت يكون الفاعلُ وقدرتهُ مخلوقين لله، فكيف يمكن أن ينقطع عن الله تعالى؟ إنّ طريقة أهل البيت: في بيان حقيقة الفعل البشريّ تتطابق تماماً مع ما جاء في القرآن الكريم.

فإنّ هذا الكتاب السماوي ربّما نَسَب فعلاً ـ مع نسبَته وإسناده إلى فاعله إلى الله تعالى أيضاً، يعني أنه يقبل كلا الإسنادين وكلتا النسبتين، إذ يقول: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2]. والمراد هو أنّ النبيَّ الأكرمَ صلى الله عليه وآله وسلم عندما قام بفعل لم يفعَلْه بنفسه، بل فَعَله بالقُدرة الإلهيّة، وعلى هذا الأساس تصحّ كلتا النسبتين.

لا تنافي بين علم الله الأزلي وحرّية الإنسان

نحن مع إعتقادنا باختيار الإنسان، وحريّة إرادته، نعتقد أنّ اللهَ كان عالماً بفعلنا من الأوّل، ولا منافاة بين العقيدتين، فإنّ على الذين لا يمكنُهم الجمعُ بين هذين الاعتقادين أنّ يعلموا بأنَّ علم الله الأزليّ تعلَّقَ بصُدُور الفعل من الإنسان على نحو الاختيار، ومن الطبيعيّ أن لا يتَنافى مثلُ هذا العلم مع حريّة الإنسان وكونه مختاراً.

(1) الصدوق، التوحيد، ص352، الباب 59 الحديث 8.
(2) سورة الأنفال، الآية 17.

وبعبـارة أُخـرى؛ إنّ العلم الإلَهيّ كمـا تعلّق بأصلِ صُدُور الفعل مِـنَ الإنسان تعلّق كذلك بكيفيَّة صُدُور الفعل عنه (وهو اختيار الإنسان وانتخابه بنفسه).

إنّ مثـل هـذا العلم الأزَليّ ليس فقط لا يتنافى مع اختيـار الإنسان بل يُثبتُ ذلك، ويؤكّـدُهُ، لأنّ الفعلَ إذا لم يصدُر من اختيار الإنسـان لم يكن علمُ اللّه آنذاك كاشفاً عـن الواقع، لأنّ كاشفيّة العلم إنّما تكـون إذا تحقّقت على النحو الّذي تعلّق بالشيء. ومـن الطبيعـيّ أنّ العلمَ الإلَهيّ تعلّق بصـدورِ الفعل البشريِّ علـى النحو الاختياريّ، يعنـي أن يقوم الإنسان بهذا العَمَل بصورة حرّة وباختياره وإرادته، ففي هذه الصورة يجب أن يقع الفعل ويتحقّق بهذه الخصوصية، لا على نحو الجبر والاضطرار.

مِن هذا البَيان اتّضَحَ عدمُ تنافي إرادة اللّه الأزليّة مع اختيار الإنسان، وكونه حرّاً في إرادته.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ «**القَضاء والقَدَر**» في مجال أفعال الإنسان لا ينافيان اختياره.
- إنّ القضـاء الإلَهـي في مجال فعـلِ الإنسان هو حتميَّتُهُ وتحقُّقُـهُ القطعيُّ بعد اختيار الإنسان له بإرادته.
- إنّ اختيـار الإنسان، وحريّة إرادته، حقيقة مسلّمـةٌ وواضحةٌ، وفي مقدور كلّ أحَدٍ أن يُدركَه، ويقف عليه من طُرُقٍ مختلفة.
- ذَهَبَ فريق إلى اختيار عقيدة الجبر، وقالوا بأنَّ الإنسان فاعلٌ مجبور، مسيَّر، وفـي المقابل ذَهَبَ فريقٌ آخر إلى اختيار نظريّـة مخالفة، وقالوا إنّ الإنسان كائن متروكٌ لحاله، مفوّضٌ إليه، وأنّ أفعاله لا تستند إلى اللّه مطلقاً.
- مع اعتقادنا باختيـار الإنسان، وحريّة إرادته، نعتقد أنّ اللّه كان عالماً بفعلنا من الأوّل، ولا منافاة بين العقيدتين.
- إنّ العلـم الإلَهيّ كما تعلّـق بأصل صُدُور الفعل منَ الإنسان تعلّق كذلك بكيفيّة صُدُور الفعل عنه (وهو اختيار الإنسان وانتخابه بنفسه).

أسئلة الدرس

1- لماذا لا يتنافى القضاء والقدر مع اختيار الإنسان؟ بيّن ذلك؟

2- اشرح المصطلحات التالية: الجبر- التفويض- الاختيار.

3- كيف يمكن الجمع بين القول بعلم اللّه الأزلي بأفعال الإنسان واختياريّة الإنسان؟

التشبيه والجبر

عـن الحسيـن بن خالد، عن أبي الحسن عليّ بن موسـى الرضا عليه السلام، قال: قلت لـه: يـا ابن رسـول الله إنّ الناس ينسبوننا إلـى القول بالتشبيـه والجبر لما روي من الأخبـار في ذلـك عن آبائك الأئمّة عليهم السلام، فقال: «**يا ابن خالد أخبرني عن الأخبار التي رويت عن آبائي الأئمّة عليهم السلام في التشبيه والجبر أكثر أم الأخبار التي رويت عـن النبـي صلى الله عليه وآله وسلم فـي ذلـك؟!**»، فقلت: بل ما روي عن النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك أكثر، قال: «**فليقولـوا: إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقـول بالتشبيـه والجبـر إذاً، فقلـت لـه: إنّهـم يقولون: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل من ذلك شيئاً وإنّما روي عليه، قال: فليقولوا فـي آبائـي عليهم السلام: إنّهم لم يقولوا من ذلك شيئاً وإنّما روي عليهم، ثمّ قال عليه السلام: من قال بالتشبيه والجبر فهو كافر مشرك ونحن منه براء في الدنيا والآخرة، يا ابـن خالـد إنّما وضع الأخبار عنّا فـي التشبيه والجبر الغلاة الذين صغّروا عظمة الله، فمـن أحبّهـم فقد أبغضنا، ومـن أبغضهم فقد أحبّنا، ومن والاهم فقد عادانا، ومن عاداهم فقد والانا، ومن وصلهم فقد قطعنا، ومن قطعهم فقد وصلنا، ومن جفاهـم فقـد برّنا، ومن برّهم فقـد جفانا، ومن أكرمهم فقـد أهاننا، ومن أهانهم فقـد أكرمنـا، ومن قَبلهم فقد ردّنا، ومن ردّهم فقد قبلنـا، ومن أحسن إليهم فقد أساء إلينا، ومن أساء إليهم فقد أحسن إلينا، ومن صدّقهم فقد كذّبنا، ومن كذّبهم فقد صدّقنا، ومن أعطاهم فقد حَرَمنا، ومن حرمهم فقد أعطانا، يا ابن خالد من كان من شيعتنا فلا يتّخذنّ منهم وليّاً ولا نصيراً**»[1].

(1) الصدوق، التوحيد، ص353، ح12.

الدرس الثالث عشر

البَداء

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى البداء.
2. يوضّح أصل إطلاق لفظة البداء في التاريخ الإسلاميّ.
3. يبيّن ما هو أثر الاعتقاد بالبداء.

مقدمة

إنّ لله تعالى في شأنِ الإنسان نوعين من التقدير:

1. تقدير محتومٌ وقطعيٌّ لا يقبل التغييرَ والتبديلَ مطلقاً.
2. تقديرٌ معلّقٌ ومشروطٌ وهو يتغيَّر ويَتَبَدّلُ مع فقدان بعضِ الشرائط، ويحلُّ محلَّه تقديرٌ آخرُ.

وبالنَّظَـر إلى هـذا الأصل نُذَكّرُ بأن الاعتقاد بالبَداء هـو أَحَدُ الأُصول الاعتقاديّة الإسلاميّة الأصيلَة التي اتَّفَقَتْ جميعُ الفرَقِ الإسلاميّة على الاعتقاد بها إجمالاً، وإنْ أحجَـمَ البعضُ عـن استخدام لَفظة «البَـداء» وهذا الاستيحاش مـن استعمال لفظة «البَـداء» لا يَضُرُّ بالقَضيّة أيضاً، إذ إنّ المقصود هو بَيان محتوى «البَداء» ومعناه، لا لفظه واسمه.

حقيقة البداء

إنّ حقيقةَ «البَداء» تقومُ في الحقيقة على أصلين:

الأوّل: أنّ لله تعالـى قدرةً وسلطـةً مُطلقةً، فهو قادرٌ على تغييـر أيّ تقدير، وإحلال تقديـرٍ آخـر محلَّه متى شاءَ، في حيـن يعلم سلفاً بكلا التقديريـن، ولا سبيل لأيّ تغييـرٍ إلـى علمه قط أيضـاً، لأنّ التقديرَ الأوّل لم يكن بحيـث يحدُّ من قدرة الله أو يَسلُـبَ منـه القـدرةَ، فإنّ قـدرة الله تعالى على خـلاف ما تعتقـدُهُ اليهود من

كَونها محدودةً لقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، قدرةٌ مطلقةٌ، أو كما قال القرآن: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[1].

وبعبارة أُخرى: إنّ خلاّقية الله وإعمال السُّلطة والقُدرة من جانبه تعالى مستمرٌ، وبحكم قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2] فالله تعالى لم يفرغ سبحانه عن أمر الخلقِ، بل عمليّة الخَلق لا تزال متواصلة ومستمرة.

روى الصدوق بإسناده عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّه قال في قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لم يعنوا أنّه هكذا، ولكنّهم قالوا قد فرَغَ من الأمر فلا يزيدُ ولا ينقص (أي في العمر والرّزق وغيرهما)، فقال الله جلّ جلالُه تكذيباً لقولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[3]. ألم تسمع الله عزَّ وجَلَ يقول: ﴿يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[4]،[5].

فالعقيدة الإسلاميّة تقومُ على أساس الاعتراف بقدرة الله المطلقة وسلطته التي لا تُحدُّ، وبدوام خلاّقيته واستمرارها، وبأنّ الله تعالى قادر كلّما شاءَ ومتى شاء أن يُغيّر المقدَّرات المرتبطة بالإنسان في مجال العُمر والرزقِ وغيرهما، ويُحلَّ مَحَلَّ ذلك مقدرات أُخرى، وكلا التقديرين موجودان في «أُمّ الكتاب» وفي علم الله سبحانه.

الثاني: إنّ إعمالَ القُدرة والسُّلطَة من جانبِ الله تعالى، وإقدامَه على إحلال تقديرٍ مكان تقديرٍ آخر لا يتمُّ من دون حكمة ومصلَحة، وإن قسماً من هذا التغيير يرتبط في الحقيقة بعَمل الإنسان وسلوكه، وإنتخابه، واختياره، وبنمط حياته الصالح أو السيّء، فهو بهذه الأمور يُهيِّئُ أرضيّة التغيير في مصيره.

(1) سورة المائدة، الآية 64.
(2) سورة الرحمن، الآية 29.
(3) سورة المائدة، الآية 64.
(4) سورة الرعد، الآية 39.
(5) الصدوق،التوحيد، ص 167، الباب 25، ح 1.

وَلْنفترض أنَّ إنساناً لم يراعِ – لا سمح اللّٰه – حقوقَ والدَيه، فإن منَ الطبيعيّ أنّ هذا العَمل غير الصالح سيكونُ له تأثيرٌ غير مرغوب في مصيره.

فإذا غيَّر من سُلُوكه هذا في النصف الآخر من حياته، واهتمَّ برعاية حقوق والدَيْه فإنَّه في هذه الحالة يكون قد هَيَّأ الأرْضيّة لتغيير مصيرِه، وصار مشمولاً لقوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾. وينعكس هذا الّذي ذكرناه إذا انعكسَ الأمر.

إنَّ الآيات والرّوايات في هذا المجال كثيرةٌ نذكرُ بعضها هنا:

1. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1].

2. ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[2].

3. يروي السيوطيُ في تفسيره «**الدرّ المنثور**» أنَّ الإمام أمير المؤمنين علياً عليه السلام سأل رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لأُقرنَّ عَيْنَك بتفسيرها ولأُقرنَّ عَين أُمّتي بَعدي بتفسيرها: الصّدَقةُ على وَجهها، وبرُّ الوالدَين وَاصطناعُ المعروف يُحوّلُ الشقاءَ سعادةً ويزيدُ في العُمُر ويقي مصارَع السُّوء**»[3].

وقالَ الإمام الباقُر عليه السلام: «**صلةُ الأرحام تُزَكّي الأعْمالَ، وتُنمّي الأموالَ، وَتَدْفَعُ البَلوى، وتُيَسِّرُ الحساب، وَتُنْسئُ في الْأَجَل**»[4].

وبالنَظر إلى هذين الأصلين يتَّضح أن الاعتقاد بالبداء عقيدة إسلاميّة قطعيّة، وأنّ جميع الفرق الإسلامية تعتقد به بغضِّ النظر عن التعبير والتسمية، واستخدام لفظ «**البَداء**».

(1) سورة الرعد، الآية 11.
(2) سورة الأعراف، الآية 96.
(3) السيوطي، الدر المنثور، بيروت– لبنان، دار المعرفة للطباعة والنشر، ج 4، ص66.
(4) الكليني، الكافي، ج2، ص 470، الحديث 13.

أصل لفظة البداء

وفي الختام نُذَكّرُ بُنقطتين لنعرف لماذا أُطلقت لفظة «**البدَاء**» على هذه المسألة في الرّوايات فجاء التعبير عن هذه العقيدة الإسلامية بقولهم: «**بَدا لله**»:

1. إنّ استخـدامَ هـذه اللَّفظة في هذه المسألة جاء تبعـاً للنَبيّ الاَكرم ﷺ، فقد روى البخاريُ في صحيحه أنّ النبيّ قال في شأن ثلاثة أشخاص: أبرص وأقرع وأعمى: «**بدا لله عزَّ وجلّ أن يَبْتَليهُمْ...**»[1]. ثم ذكر بعد ذلك قصّتهم بصورة مفصَّلـة وبيَّـن كيـف أن اثنين منهـم سُلبَت منهمـا سلامتُهمـا بسبب كفران النعمة، وأصابَهما ما أصيب به أسلافُهم من الأمراض.
2. إنّ هـذا النّوع مـن الاستعمال من باب المشاكلة، والتحـدّث بلسان القوم حتى يفقهوا، ويفهموا الموضوع. فقد تعارَفَ في العرف الاجتماعي أنَّه إذا غيَّرَ أحد قراراً قد اتخذه أن يقول بدا لي. وقد تَحدَّث أئمةُ الدين بلسان القوم ليمكنهم تفهيم مخاطبيهم، وقد استعملوا مثلَ هذه اللفظة في حق اللّه تعالى.

والجديـر بالذِّكر أنّ القرآنَ الكريمَ استخدمَ في شـأن اللّه تعالى ألفاظاً وصفات مثـل المكر والكيد، والخداع والنسيان، في حين أنّنا نعلم أنّ اللّه تعالى منزَّهٌ عن مثل هـذه الأمور (بمعانيها ومفاهيمها الرائجة بين البشر) قطعـاً ويقيناً، ومع ذلك كرّرَ القرآنُ الكريمُ هذه الصفات واستعمل الألفاظ في حق اللّه سبحانه:

- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[2].
- ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[3].

(1) البخاري، الصحيح، ج 4، ص 171 – 172، باب حديث أعمى وأبرص وأقرع.
(2) سورة الطارق الأيتان15 ـ 16.
(3) سورة النمل، الآية 50.

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾[1].
- ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2].

وعَلى كلّ حالٍ فإنّ لمحقّقي الشيعة حول استعمال لفظ البداء، بالنظر إلى امتناع حصـول التغيّر، والتبـدّل في علم الله تعالى دراسات وتحقيقات قَويّةً وشيِّقةً لا مجال لذكرها هنا، ونحن نحيل من يحب الاطّلاعَ عليها إلى الكتب والمؤلّفات التي تتضمن هذه الأبحاث[3].

أثر الاعتقاد بالبَداء

لـو اعتقد الإنسان أنّ مِنَ الناس من كتب فـي السعداء فلن تتبدّل حاله ولن يكتب فـي الأشقياء، ومنهم من كتب في الأشقياء فلـن تتبدّل حاله ولن يكتب في السعداء، وجـفّ القلم بما جرى لـكلّ إنسان، عندئذ لا يتوب العاصي مـن معصيته، بل يستمرّ فـي مـا هو عليه، لاعتقاده بأنّ الشقاء قد كُتب عليه ولـن تتغيّر حاله، ومن الجائز أن يوسوس الشيطان الى العبد المنيب أنّه من السعداء ولن يكتب في الأشقياء وتؤدّي به الوسوسـة الى التساهل في الطاعة والعبادة، ولعدم استيعاب بعض المسلمين معاني الآيـات والروايـات المذكورة في المشيئة، اعتقد بعضهـم أنّ الإنسان مجبور على ما يصدر منه، وآخرون على أنّ الأمر كلّه مفوّض للإنسان.

(1) سورة النساء الآية 142.

(2) سورة التوبة، الآية 67.

(3) التوحيد للصدوق، ص 331 ـ 336؛ تصحيح الاعتقاد للشيخ المفيد ص 24؛ عدة الأُصول ج2، ص 29؛ كتاب الغيبة، ص 262 ـ 264 طبعة النجف.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ للّه تعالى في شأنِ الإنسان نوعين من التقدير:

1. تقدير محتومٌ وقطعيٌّ لا يقبل التغييرَ والتبديلَ مطلقاً.
2. تقديرٌ معلّقٌ ومشروطٌ وهو يتغيَّر ويَتَبَدّلُ مع فقدان بعضِ الشرائطِ، ويحلُّ محلَّه تقديرٌ آخرٌ.

- إنّ حقيقةَ «**البَداء**» تقومُ على أصلين:

1. إنّ للّه تعالى قدرةً وسلطةً مُطلقةً.
2. إنّ الإقدام من جانب اللّه تعالى على إحلال تقدير مكان تقدير آخر لا يتمُّ من دون حكمة ومصلَحة، وإن قسماً من هذا التغيير يرتبط في الحقيقة بِعَمل الإنسان وسلوكه، وانتخابه، واختياره.

- أُطلقت لفظة «**البدَاء**» على هذه المسألة في الرّوايات فجاء التعبير عن هذه العقيدة الإسلامية بقولهم: «**بَدا للّه**»:

1. إنّ استخدامَ هذه اللَّفظة في هذه المسألة جاء تبعاً للنَبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.
2. إنّ هذا النّوع من الاستعمال من باب المشاكلة، والتحدّث بلسان القوم حتى يفقهوا، ويفهموا الموضوع.

أسئلة الدرس

1- عرّف المصطلحين التاليين: التقدير المحتوم- التقدير المعلّق.

2- ما هي حقيقة البداء؟ وما هو الربط بين البداء والعلم الإلهي؟

3- ما هو أثر الاعتقاد بالبداء على أفعال وتصرفات الإنسان؟

البداء

الحسيـن بن محمّد، عن معلّى بن محمّد قـال: سئل العالم عليه السلام كيف علم الله؟ قال: علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى، وقضى ما قدَّر، وقدَّر ما أراد، فبعلمه كانت المشيئة، وبمشيئته كانت الإرادة، وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضـاء، وبقضائه كان الإمضاء، والعلم متقدّم علـى المشيئة، والمشيئة ثانية، والإرادة ثالثة، والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء.

فللّـه تبارك وتعالى البداء فيمـا علم متى شاء، وفيما أراد لتقديـر الأشياء، فإذا وقـع القضاء بالإمضاء فلا بداء، فالعلم في المعلـوم قبل كونه، والمشيئة في المنشأ قبـل عينه، والإرادة في المراد قبـل قيامه، والتقدير لهـذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلهـا عياناً ووقتاً، والقضاء بالإمضاء هو المبرم من المفعولات، ذوات الأجسام المدركات بالحواسّ من ذوي لون وريح ووزن وكيل وما دبَّ ودرج من إنس وجن وطير وسباع وغير ذلك ممّا يدرك بالحواسّ.

فللّه تبارك وتعالى فيه البداء ممّا لا عين له، فإذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بـداء، والله يفعل ما يشاء، فبالعلم علم الأشياء قبل كونها، وبالمشيئة عرف صفاتها وحدودها وأنشأها قبل إظهارها، وبالإرادة ميّز أنفسها في ألوانها وصفاتها، وبالتقدير قـدَّر أقواتهـا وعـرف أوَّلها وآخرهـا، وبالقضاء أبـان للناس أماكنهـا ودلَّهم عليها، وبالإمضاء شرح عللها وأبان أمرها وذلك تقدير العزيز العليم[1].

(1) الكليني، الكافي، ج1، ص203، ح16.

الدرس الرابع عشر

النبوّة (1)

ضرورة النبوّة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن الدليل العقليّ على ضرورة النبوّة.
2. يشرح الدليل النقليّ على ضرورة النبوّة.
3. يستذكر طرق معرفة النبوّة.

الأدلّة على ضرورةِ النُبوّةِ

تميّـز علـم الـكلام الإسلامـي بقدرته على إظهـار الأدلـة بشقيهـا العقلية منها والنقلية، ولذلك نجد النقاش في العقائد الإسلامية نقاشًا بنّاءً وشيّقًا، وخاصّة فيما يتعلق بالأصول والأركان، وسوف نطرح هنا بعض الأدلة التي تثبت ضرورة النبوة:

1. **بعث الرسل للهداية والإرشاد:**

لقد اختار اللّه الحكيم رجالاً صالحين لهداية البَشَر وإرشادهم، وحمّلهم رسالته إلى أفراد النوع الإنساني، وهؤلاء الرجال هُمُ الأنبياء والرُسل الذين بواسطتهم جَرى فيضُ الهداية من جانب الحق تعالى إلى عباده. وهـذا الفيضُ المبارك بدأ بالنزول من جانب الله منذ أن تهيّأ البشرُ للاستفادة منه وإلى عصر النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ويجـب أن نعلـم بأنَّ دين كلّ نبيٍّ من الأنبياء يُعدّ بالنسبـة إلى عصره وأُمّته أكملَ دين، وأتَمَّ شريعة، ولو أنّ هذا الفيض الربانيّ لم يستمرّ لما بلغ البشرُ إلى حدِّ الكمال.

وحيـث إنّ خَلـقَ الإنسان هو مـن فعل الله «**الحكيم**» فلا بـدّ أن يكون له من هَدَف وغرض، ونظراً إلى أن تركيب الكيان البشري- مضافاً إلى الغرائز التي هي مشتركة بينـه وبيـن الحيوان- ينطـوي على العَقـل أيضاً، لهذا لا بُـدّ أنْ يكـونَ لِخَلقه غرض عُقلائيٌّ، وهَدَفٌ مَعْقولٌ.

ومـن جانب آخر، فـإنّ عَقل الإنسـان، وإنْ كان مؤثّـراً ومفيداً فـي سلوكه طريقَ الكمال، إلاّ أنّه غيرُ كاف لذلك.

ولـو اكتُفيَ في هداية الإنسان بالعقل وحده لما عَرفَ الإنسان طريقَ الكمال بشكل كامل قط، ونذكر للمثال مسألة الوقوف على قضايا المبدأ والمعاد التي هي من أَهم مسائل الفكر البشري، وقضاياه على مدار التاريخ.

فإنّ البشر يريد أن يَعْلَم من أين جاء؟ ولماذا جاءَ؟ وإلى أين يذهب؟ ولكنّ العقلَ لا يقدر وحـدَه على إعطاء الإجابات الصحيحة الكافية على كلّ هذه الأسئلة، ويشهد بذلك أنّه رغم كل ما أحرزته البشرية المعاصرة من التقدّم والرقيّ في ميادين العلم لا يزالُ قِسمٌ عظيمٌ من البشريّة وثنيّين.

إنّ عجـز العَقل والعلم البشريَّين، وقصورهما لا ينحصر في مجال قضايا المبدأ والمعـاد، بل الإنسان لم يتمكّن مـن أن يختار الطريقَ الصحيحَ في كثير من مجالات الحياة أيضاً.

إنّ اختلاف الرؤى والنظريّات البشريّة في قضايا الاقتصاد، والأخلاق، والعائلة، وغير ذلك من مناحي الحياة ومجالاتها، خير دليل على قصوره عن الإدراك الصحيح لهذه المسائل، ولهذا ظهرت المدارس المتعارضة.

مـع أخـذ كلّ هذا بنظـر الاعتبار يحكم العقـلُ الصحيـحُ بأنّه لا بـدّ - بمقتضى الحكمـة الإلهيّة - من بعـث وإرسال قادة ربانيّين، ومربّين إلَهيّيـن، ليعَلِّموا البَشريّة النهجَ الصحيحَ للحياة.

إنَّ الّذيـن يَتصـوَّرون أنّ في مقدور «**الهدايـات العقليّـة**» أنّ تحلَّ محلّ «**الهدايات الإلهيّة السّماويّة**» يجب أن يدركوا أمرين:

أ. إنّ العَقل والعلم البشريّين قاصران عن المعرفة الكاملة بالإنسان، وبمسيره في صعيـد الماضي والمستقبل، في حين يعلم خالقُ البشر - بحكم كون كلّ صانع عارفاً بمصنوعه - بالإنسان، ومحيطٌ بأبعاده، وأسرار وجوده، إحاطةً كاملةً.

ب ـ إنّ الإنسان بمقتضى غريزة حبّ الذات المودَعة في كيانه، يحاول – علماً أو جهلاً – أن يُتابعَ منافعَه الشخصيّة ويهتمّ بها، فيعجز في تخطيطه وبرمجته عن الخروج من دائرة منافعه الفرديّة أو الجماعية بشكلٍ كاملٍ.

ولهذا من الطبيعي أن لا تتّسم البرامج البشريّة بالجامعيّة والشموليّة الكاملة، ولكن برامج الأنبياء والمرسلين لكونها من جانب اللّه العالم، المحيط، الحق، المنزّه، مبرّأةٌ عن مثل هذه النقيصة.

وبملاحظة هاتين النقطتين يمكن القولُ – على وَجه القطع واليقين –: بأنّ البشر ليس في غنىً قط عن الهدايات الإلهيّة، وعن برامج الأنبياء، لا في الماضي، ولا في المستقبل إنما هو في حاجةٍ مستمرةٍ إليها.

2. تقوية الأسس التوحيدية:

تعرّفنا سابقًا على الأدلّة الّتي تثبت من طريق العقل ضرورةَ النبوّة، ووُجوب إرسال الرسل الإلَهيّين. والآن ندرس ضرورة إرسال الرسل في ضوء أهدافها المذكورة في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة، وإن كانت النظرةُ القرآنيّة إلى هذه المسألة هي نوع من التحليل العقليّ في حقيقته.

إنّ القرآن يُلَخّص أهدافَ بعثة الأنبياء في الأمور التالية:

أ ـ تقوية أُسُس التوحيد ومكافحة كلّ نوع من أنواع الانحراف في هذا الصعيد. كما يقول القرآن: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

يقول الإمام أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام حول الهدف من بعث الأنبياء: «**ليعلم العبادُ ربّهم إذ جهلوه، وليقرّوا به بعد إذ جحدوه، وليثبتوه بعد إذ أنكروه**»[2].

(1) سورة النحل، الآية 36.

(2) نهج البلاغة، الخطبة: 147.

ب ـ إيقاف الناس على المَعارف والرسالات الإلهيّة وعلى طريق التزكية والتهذيب. كما يقول: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[1].

ج ـ إقامة القسط في المجتمع البشريّ. كما يقول: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾[2]. ومن المُسلَّم أن إقامة القسط رهنُ معرفة الناس للعدالة في جميع الأبعاد والمجالات، كما ويتوقف على أن يقوموا بتحقيق ذلك من طريق الحكومة الإلهيّة.

د ـ الفَصل في الخُصُومات وحَلّ الخلافات. كما يقول: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[3]. ومن البديهيّ أنّ اختلافات الناس لا تنحصر في مجال العقائد، بل تشمل شتّى مجالات الحياة المتنوّعة.

هـ ـ إتمام الحجّة على العباد. كما يقول: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4]. ومن المسلَّم أن لله تعالى في خلق الإنسان هدفاً وغرضاً، وهذا الهدف إنّما يتحقّق عن طريق تنظيم برنامج كامل لجميع شؤون البشر. وهذا البرنامج يجب أن يصل إلى البشرية، بحيث تَتِمُّ حُجّةُ الله على الناس ولا يبقى عذرٌ لأحدٍ ليقول: أنا لم أعرفِ البرنامجَ الصحيح للحياة.

(1) سورة الجمعة، الآية 2.
(2) سورة الحديد، الآية 25.
(3) سورة البقرة، الآية 213.
(4) سورة النساء، الآية 165.

طُرُق معرفةِ الأنبياء

إنّ فطرةَ البَشر تقضي بأن لا يَقْبَلَ الإنسان أيّ ادّعاءٍ من غير دليل، ومن قَبِل شيئاً أو زعماً من دون دليل، فإنّه يكون قد خالف فطرته الإنسانيّة.

إنّ ادّعـاءَ النبـوّة أعظمُ ادّعاءٍ يمكـن أن يطرحه فردٌ من أفراد البشـر، ومن البديهي أن زعماً وادعاءً في مثل هذه العظمة يجب أن يستند إلى برهان قاطع، ويُقرَنَ بالدليل الساطع.

ويمكن أن تكون الأدلّة في هذا المجال أحد أُمورٍ ثلاثة:

الأول: أن يصـرّح النبـيُ السابقُ الذي ثبتت نبوّتُه بالأدلّـة القاطعة، على نبوة النبي اللاحـق كما صَرّح السيـدُ المسيح عليه السلام بنبوة النبي محمّـد خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله وسلم وبشّر بمجيئه.

الثاني: أنْ تشهَـد القرائنُ والشواهـد المختلفة على صِدقِ دعـواه. وهذه الشواهد والقرائـن يمكـن تحصيلُهـا مـن سيرته فـي حياته، وفـي محتوى دعوتـه، ومن الشخصيات التي آمنت به، وانضوت تحت لوائه، وكذا في طريقة دعوته، وأُسلوبه فـي العمل لنشـر مبادئـه، وتبليغها. وهـذه الطريقة هـي التي يُستفـاد منها في المحاكـم في العالم اليـوم لتمييز الحق عن الباطل، والبـريء عن المجرم. وقد استفـاد كثيرون مِن هذه الطريقة ذاتها للتأكّد من صِدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصحّة دعواه النبوة في صدر الإسلام.

الثالث: الإتيـان بالمعجـزة. يعني أن يُقـرِنَ مدّعي النبوة دعواه، بعمـلٍ خارقٍ للعادة ويتحدّى به الآخرين، ويكونَ ذلك العمل الخارق مطابقاً لدعواه.

إنّ الطريقيـن الأوّليـن ليسـا عامّين فـي حين يكـون الطريق الثالـث عامّاً، وقد استفـادت البشريّـةُ على طـول التاريخ مـن هذا الطريـق لمعرفة الأنبيـاء والإيمان بدعوتهـم وكان الأنبياء بدورهم يُقرنون دعواهم للنبـوة بذلك، ويستفيدون من هذا الطريق الثالث. وسوف يأتي الحديث عن هذا الطريق في الدرس التالي.

المفاهيم الرئيسة

- اختـار اللّٰه رجـالاً صالحين لهداية البَشَـر وإرشادهم، وحمّلهـم رسالته إلى أفراد النوع الإنساني، وهؤلاء الرجال هُمُ الأنبياء والرُسل.
- لـو اكتُفـيَ في هداية الإنسـان بالعقل وحده لما عَرفَ الإنسـان طريقَ الكمال بشكل كامل قط.
- إنّ عجز العَقل والعلم البشريَّين، لا ينحصر في مجال قضايا المبدأ والمعاد، بل في كثير من مجالات الحياة أيضاً.
- إنّ القرآن يُلَخّص أهدافَ بعثة الأنبياء في الأمور التالية:

1. تقوية أُسُس التوحيد ومكافحة كلّ نوع من أنواع الانحراف في هذا الصعيد.
2. إيقاف الناس على المَعارف والرسالات الإلهيّة وعلى طريق التزكية والتهذيب.
3. إقامة القسط في المجتمع البشريّ.
4. الفَصل في الخُصُومات وحَلّ الخلافات.
5. إتمام الحجّة على العباد

- طُرُق معرفة الأنبياء:

1. أن يصـرّح النبيُ السابقُ – الذي ثبتت نبوّتُه بالأدلّة القاطعة – بنبوّة النبي اللاحق.
2. أنْ تشهَد القرائنُ والشواهد المختلفة على صِدقِ دعواه.
3. الإتيان بالمعجزة.

أسئلة الدرس

1- ما هو الدليل العقلي على ضرورة بعث الأنبياء؟

2- بماذا يلخص القرآن الكريم أهداف بعث الانبياء؟

3- ما هي الأمور التي من خلالها يمكن إثبات دعوى مدّعي النبوة؟

طريق إثبات الرسالة

عـن هشام بن الحكم، عن الإمام أبي عبـد الله الصادق عليه السلام أنه قال للزنديق الـذي سأله: من أيـن أثبت الرسل والأنبياء فقال: «**أنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعـن جميـع ما خلـق، وكان ذلـك الصانع حكيمـاً متعالياً لـم يجز أن يشاهـده خلقـه، ويلامسـوه، ويباشرهم ويباشـروه، ويحاجهم ويحاجـوه، ثبت أن لـه سفـراء فـي خلقه يعبرون عنـه إلى خلقـه وعبـاده، ويدلونهم علـى مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبرون عنه عز وجل وهم الأنبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدبـون بالحكمـة، مبعوثـون بهـا، غيـر مشاركين للناس في شيء مـن أحوالهم، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثم ثبت ذلك في كل دهر وزمان ما أتت بـه الرسـل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجة يكون معه علم على صدق مقالته وجواز عدالته**»[1].

(1) الصدوق، محمّد بن علي، علل الشرائع، بيروت- لبنان، مؤسسة التاريخ العربي، ج1، ص183، ح3.

الدرس الخامس عشر

النبوّة (2)

الوحي والمعجزة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يشرح كيف أنّ الوحي ليس وليد نبوغ الأنبياء وتفكّرهم الخاص.
2. يبيّن العلاقة المنطقيّة بين المعجزة والنبوّة.
3. يبيّن الفرق بين المعجزة وكلّ من الكرامة والسحر.

الوحي

1. صلة النبيّ بعالم الغيب:

أوْضَحنا في السابق طُرُقَ التعرّف على النبيّ الواقعيّ وتمييزه عن مدّعي النبوة كذباً. والآن يجب أنْ ندرسَ طريقَ اتصال النَبي بعالم الغيب ونعني به «**الوحي**».

إنّ «الوحيَ» الذي هو أهَمُّ طريقٍ من طُرُق اتّصال الأنبياء بعالم الغيب ليس ناشئاً عن الغريزة أو العقل بل هو علم خاص يفيضُ به اللّه تعالى على الأنبياء خاصّة، ليبَلّغُوا الرسالات الإلهيّة إلى البشر. إنّ القرآنَ يصفُ الوحيَ قائلاً: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1].

إنّ هذه الآية تفيد أنّ معرفةَ الأنبياء بالرّسالات الإلهيّة ليست نابعةً وناشئةً من استخدام أشياء كالحواسّ الظاهريّة وما شابه ذلك، بل ينزل به مَلَك الوحي على قلب النبي. وعلى هذا الأساس لا يمكن تحليل حقيقة الوحي المعقّدة وتفسيرها بالمقاييس العادية.

وفي الحقيقة إنّ نزول الوَحْي هو أحدُ مظاهر الغيب الّتي يجبُ الإيمان بها وإنْ لم تتضّح لنا حقيقةُ هذه الظاهرة كما يقول: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[2]؟

(1) سورة الشعراء، الآيتان 193 و 194.
(2) سورة البقرة، الآية 3.

2. الوحي ليس وليد نبوغ الأنبياء وتفكّرهم الخاص:

إنّ الّذين يريدونَ مقايسة كلّ شيء، وتفسيرها بالمقاييس الماديّة والأدوات الحسيّة، ويريدون صَبَّ الحقائق الغيبيّة في قوالب حسّية يفسرون ظاهرة «الوحي» بصور مختلفة، جميعها باطلة في نظرنا، وفيما يأتي نقدُ هذه التفسيرات والتحليلات في عدة نقاط:

أولاً: ثمت فريق يعتبر الأنبياء من نوابغ البشر، ويعتبرون الوحي حصيلة التفكير، ونتيجةً لفعاليات حواسّهم الباطنيّة. إنّ حقيقة «**الروح الأمين**» في تصور هذا الفريق هي روحُ هؤلاء النوابغ الزكية، ونفوسُهم الصافية النقية، وإنّ الكتب السماويّة كذلك ليست سوى أفكارهم السامية وتصوّراتهم الراقية. إنّ هذا النوع من التفسير والتحليل لظاهرة الوحي ليس سوى الانبهار بالعلم التجريبيّ الجديد الذي يعتمد الأساليب الحسيّة - لا غير - وسيلةً لتفسير كلِّ حقائق الوجود. إنّ المشكلة الهامّة في هذه النَظَريّة هي منافاتُها لما قاله الأنبياء والرُسُلُ الإلَهيّون. فالأنبياء والرُسُل يصرّحون ويعلنُون باستمرار بأنّ ما أتوا به إلى البشر ليس إلاّ الوحي الإلَهيّ.

وعلى هذا الأساس يكون التفسيرُ السالفُ للوحي مستلزماً لتكذيب الأنبياء، وهذا ممّا لا يليقُ بمقام الأنبياء الرفيع ومنزلتهم المرموقة، وصدقهم، وصلاحهم الذي أخبر بها التاريخُ الثابتُ. وبعبارة أُخرى: إنّ المصلحين على نوعين: مصلحون يَنسبون برامجَهم إلى الله، ومصلحون آخرون يَنسبُون برامجهم إلى أنفسهم، ويَطْرحونها على المجتمع على أنّها وليدةُ عقولِهم، وأفكارهم. وقد تكون كلتا الطائفتين مخلصتين، تتسمان بالاخلاص والخير. وعلى هذا لا يمكن عدّ هذين الصنفين من رِجالِ الإصلاحِ صنفاً واحداً.

ثانياً: ثمّت فريقٌ آخر يعتبر الوحيَ - منطلقاً من نفس الدافع الذي ذُكر في النظرية المتقدّمة - نتيجةَ تجَلّي الحالات الرُّوحيّة في النبيّ.

إنّ النبــيَّ حسب زَعْم هــذا الفريق بسبَب إيمانه القويّ بــاللّه، وفي ضوءِ عبادَته الكثيــرة للّه يصل إلــى درجة يجدُ في ذاته طائفــةً من الحقائق العاليــة ويتصوّر أنّ هــذه الحقائق أفيضــت وأُلقيت إليه من عالم الغيب فيما لا يكــون لِما توصل إليه من الحقائق المذكورة من منشأ سوى نفسه ذاته ليس إلاّ.

إنّ أصحــاب هــذه النظريــة يقولون: نحــن لا نشُــكُّ مطلقاً في صــدق الأنبياء بل نعتقد بأنّهم شاهــدُوا حقائق عالية، ولكنّ الكلامَ هو في منشأ هذه الحقائق العالية. فالأنبيــاء يتصــوّرون أنّ منشأ هذه الحقائق هو عالم الغيــب، الخارج عن هذا العالم المــادي، أي أنّ هــذه الحقائق قد أُلقيتْ إليهم من ذلك العالَم، على حين يكون منشأ ذلك أنفسهم، لا غير. إنّ هذه النظرية ليست كلاماً جديداً بل هي في الحقيقة طرحٌ مجــدَّدٌ لإحــدى النظريّات التي كانت مطروحةً في العَهــد الجاهليّ حول الوحي ولكن في لباسٍ جديد.

وحاصلُ هذه النظرية: هو أنّ الوحيَ ما هو الاّ حصيلة تخيُّلات الأنبياء، ورجوعهم إلــى بواطنهم وتعمّقهــم في نفوسهم، وأنّهــم بسبب كثرة التفكّر فــي اللّه، وعبادته، والتفكّر في إصلاح أُممهم، وأقوامهم تمثّلت هذه الحقائق دفعة أمام عيونهم، فَظَنُّوا أنّهــا أُلقيَــت إليهم من عالَم الغيب - وهذا هو - بشكل مــن الأشكال وبنحو مّا، نفسُ تصوُّر الجاهليّين حول الوحي إذ قالوا: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾[1].

إنّ القُرآنَ الكريم ردَّ على هذه النظرية بشدّة وأكَّدَ على أنّ النبيَّ صَدقَ في ادّعائه رؤيةَ مَلَك الوَحي، فهو لم يخطأ لا في قلبه ولا في بصره إذ يقول: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾[2].

(1) سورة يوسف، الآية 44.

(2) سورة النجم، الآية 11.

ويقـول: ﴿مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَاطَغَىٰ﴾[1]. وهـذا يعنـي أنّ النبيّ رأى حقـاً (مَلَك الوحي) بعين الرأس وبعين القلب، بعين الظاهِر وبعين الباطن.

المعجزة

1. العلاقة المنطقية بين دعوى النبوّة والمعجزة:

إنّ بَيـنَ المعجـزة وبين صدق دعـوى النُبوّة علاقـةً منطقيّةً، لأنّـه إذا كان الآتي بالمعجزة صادقاً في دعواه فإنّ من الطبيعيّ أنْ يُثْبِتَ مطلبَهُ.

وإذا كان كاذبـاً في دعواه النبوة ـ افتراضاً ـ لم يكن لائقاً باللّه الحكيم الذي يَهتَمّ بهدايـة عبـاده أن يُمكّنَ الكاذبَ فـي ادّعاء النبوّة من الإتيـان بالمعجزة، لأنّ الناس سَيُؤمنـون بـه إذا رأوا قدرته على الإتيـان بالعَمَل الخارق للعـادة، وسيَعملون بأقواله فيكـونُ ذلك إضـلالاً للناس إذا كان المُدّعـي للنبوّة كاذباً، ولا شـكّ أنّ هذا يتنافى مـع عَدلِ اللّه وحكمته. وهذه من إحدى فروع قاعدة الحسن والقبح العَقليين التي تمّ بحثها سابقاً.

2. الفرق بين المعجزة والكرامة:

إنّ الإتيـان بالعَمَل الخارق للعادة الذي يقترن مع دعوى النبوة، ويتّفق مع الادّعاء، يسمى «**معجزة**». وأمّا إذا صدر العملُ الخارقُ للعادة من عبدٍ للّه صالح لم يَدَّعِ النبوّةَ سُمّـي «**كرامة**». وممّا يشهد بأنّ عبـاد اللّه الصالحين من غير الأنبياء قادرون أيضاً علـى الإتيـان بالأعمـال الخارقة للعادة، نزول مائـدة سماويّة على السيـدة مريم أم النبـي السيد المسيح عليه السلام وانتقـال عرش بلقيس ملكة سبأ فـي سرعة خاطفة من اليمـن إلى فلسطيـن على يد فرد بارز من أنصار النبـي سليمان (آصف بن برخيا) وقد أخبرَ القرآنُ الكريم بكلا الحَدَثين إذ قال في شأن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا

(1) سورة النجم، الآية 17.

﴿ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾[1]. وقال حول حادثة عرش بلقيس أيضاً: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2].

3. الفرق بين المعجزة والسِّحر:

إن الفَـرق بيـن المعجزة وبيـن غيرها من الأعمـال الخارقة يتلخّص في الأمور التالية:

أ. **عَـدَمُ التعلّـم في المعجـزة:** فإنّ الآتي بالمعجزة يقـوم بالإتيان بالمعجزة من دون سَبْـق تعلّم، في حين يتم الإتيـان بالأعمال الخارقة الأُخرى نتيجة سلسلة مـن التعليمات والتمرينات. فالنبـيّ موسى عليه السلام بعد أن انقضت فترةُ شبابه ذَهَـب إلـى مصر، وفـي أثناء الطريق خوطـب أن يا موسى ألـقِ عصاك فإذا العَصا تتحول إلى ثعبان عظيم، بحيث استوحَشَ موسى لذلك[3].

وخُوطب أن أدخل يَدَك في جَيبك، ولمّا أخرجها فإذا هي تضيء إضاءةً قويةً، تخلب الأبصار[4].

ب. **عـدم إمـكان معارضـة المعجـزة:** فـإنّ المعجـزة لكونها تنبُع مـن قدرة الله المطلقـة لا يمكـن معارضتها والإتيـان بمثلها قط، على حيـن يمكن معارضة السِّحـر والشعوذة، وما شابههما ممّا يفعلُه المرتاضون بمثلها لكونها تنشأ من قدرة البشر المحدودة المتناهية.

ج. **التحـدّي:** إنّ الآتـي بالمعجـزة يتحدّى الآخريـن بمعجزتـه أي يدعوهم إلى معارضته ومقابلته بمثله، في حين لا يفعل السَّحَرة والمرتاضون ذلك، لإمكانِ معارضتهم، ومقابلتهم بمثل ما يأتون به.

(1) سورة آل عمران، الآية 37
(2) سورة النمل، الآية 40.
(3) لاحظ سورة القصص، الآية 31.
(4) لاحظ سورة القصص،الآية 32.

د. **عدم المحدودية**: فإنّ معاجزَ الأنبياء ليست محدودة بنوعٍ أو نوعين بل هي متنوّعة بحيث لا يمكن الإشارة إلى جامع مشترَك بينها. كإلقاء العصا وانقلابها إلى حَيّة، وإدخال اليد في الجَيب وإخراجها بيضاءَ تنير مثلاً، ومعجزة إنباعُ الماء، واستخراجه من صخرة بضربةٍ من عصا، ومعجزة تجفيف البحر، وفتح ممرات يابسة عظيمة في قاعه بضربةٍ من عصا على الحجر وغيرها الكثير من المعجزات. إنّنا نقرأ: أنّ النبي عيسى عليه السلام صنع من الطين كهيئة الطير، ثم نَفَخَ فيها الروح فصارت طيوراً حيَّة بإذنِ الله. كما نقرأ أنّه عليه السلام كان بالمسح بيده على وجوه العميان وأجساد المصابين بالبرص يمنحهم الشفاء، بل ويُحيي الموتى، وينبئ عَمّا ادَّخره الناسُ في بيوتهم إلى غير ذلك من المعاجز العديدة.

هـ. و أساساً إنّ الذين يأتون بالمعجزة والكرامة يمتازون عن السَّحَرة الذين يأتون بالخوارق من الأعمال من حيث الهَدَف وكذا من حيث النَفْسيّات. فالفريقُ الأوَّل يهدفون إلى غايات سامية، وأغراض قيّمة، بينما يهدف الفريق الثاني إلى أهدافٍ دنيويّة. ومن الطبيعي أن يختلف الفريقان على أساس ذلك في النفسيات.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ «**الوحـيَ**» ليس ناشئاً عن الغريزة أو العقل بل هو علم خاص يفيضُ به اللهُ – تعالى– على الأنبياء خاصّة.
- إنّ نزول الوَحْي هو أحدُ مظاهر الغيب الّتي يجبُ الإيمان بها وإنْ لم تتضح لنا حقيقةُ هذه الظاهرة كما يقول سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.
- إنّ بَينَ المعجزة وبين صدق دعوى النُبوّة علاقةً منطقيّةً.
- إنّ الإتيـان بالعَمَـل الخـارق للعادة الذي يقتـرن مع دعوى النبـوة، ويتّفق مع الادّعـاء، يسمى «**معجـزة**». وأمّا إذا صدر العملُ الخـارقُ للعادة من عبدٍ للهِ صالحٍ لم يَدَّعِ النبوّةَ سُمّي «**كرامة**».
- إن الفَرق بيـن المعجزة وبين غيرها من الأعمال الخارقة يتلخّص في الأمور التالية: عَـدَمُ التعلّم في المعجزة، عدم إمكان معارضـةِ المعجزة، التحدّي، عدم المحدوديّة، الهدف.

أسئلة الدرس

1- ما هو الردّ على النظريّة القائلة بأن الوحي وليد نبوغ النبي الفكري؟

2- ما هو الفرق بين المعجزة والكرامة؟

3- ما هو الفرق بين المعجزة والسحر؟

طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام

عـن هشام بن سالم، ودرست بن أبي منصور، عنـه قال: قال الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «**الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات: فنبيٌّ منبّأ في نفسه لا يعدو غيرهـا، ونبـيٌّ يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة، ولم يبعث إلى أحد وعليه إمامٌ مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام، ونبيٌّ يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أُرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا، كيونس قال الله ليونس: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾**[1] **قـال: يزيـدون: ثلاثيـن ألفاً وعليـه إمامٌ، والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمامٌ مثل أُولي العزم وقـد كان إبراهيم عليه السلام نبيّاً وليس بإمـام حتّى قال الله: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾**[2] **من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً**»[3].

(1) سورة الصافات، الآية 147.
(2) سورة البقرة، الآية 124.
(3) الكليني، الكافي، ج1، ص230، ح1.

الدرس السادس عشر

النبوّة (3)

عصمة الأنبياء عليهم السلام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن مراتب العصمة الأربعة.
2. يشرح الآيات الظاهرة في عدم العصمة.
3. يبيّن منشأ العصمة وسببها، وكيف أنّها لا تلازم النبوّة.

تفسير العصمة

العِصمــة لغة: «**هي الحفـظ والوقاية، لأن عصم تعني: حفـظ ووقى**»[1]. وتعني بالمصطلـح العقائـدي: «**لطف يفعلـه الله تعالـى بالمكلف، بحيث تمنـع منه وقوع المعصيـة وترك الطاعة، مع قدرتـه عليهما**»[2]. وقال المحقق الجرجاني في كتاب التعريفات: «**العصمة ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها**»[3].

وردت لفظـة العصمة في القرآن الكريم بجميـع مشتقاتها المختلفة ثلاث عشرة مرة، والعصمة كما مرّ آنفاً مشتقة من «**عصم**» وتعني:

1 - **الإمسـاك والمنـع**: ونجد في القـرآن الكريم مفهوم العصمـة بنفس معناه اللغوي، فعلى سبيل المثال:

حينمـا يدعـو الله تعالى الناس إلى الإيمـان، يأمرهم بالاعتصـام بحبل الله، يستعمل كلمة «**العصمة**»، فيقول: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[4].

وفي موقف النبـيّ يوسف عليه السلام وامتناعه عن الاستجابـة والامتثال لدعوة امرأة العزيز ومراودتها إياه يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾[5].

(1) المصباح المنير، ص417، مادة «عصم».
(2) المفيد، النكت الاعتقادية، تحقيق: رضا المختاري، بيروت- لبنان، دار المفيد، 1414هـ-1993م، ص37.
(3) التعريفات: 65، الطبعة الأولى، طهران.
(4) سورة آل عمران، الآية 103.
(5) سورة يوسف، الآية 32.

ومن الملاحظ أنه استعملت لفظة «**العصمة**» في الآية الأولى في الإمساك والتحفظ، وفي الثانية في المنع والامتناع، وكلاهما يرجعان إلى معنى واحد.

2 - وأحياناً يطلق لفظ العصمة على الشيء الذي يمتلك خاصيّة الوقاية، ويمنع الانسان من الوقوع في ما يكره، ومن هذا المنطلق أطلق هذا المصطلح على قمم الجبال.

3 - ونجد أيضًا أن العرب أطلقوا على الحبل الذي يشدّ الرحلَ أو الحمل «**العصام**» لأنه وبواسطة هذا الحبل يحفظ من السقوط والتبعثر.

مراتب العصمة

للعصمة في باب النبوّة مراتب هي:

1. **العصمة في تلقي الوحي وتبليغه:**

وعصمة الأنبياء عليهم السلام في المرحلة الأولى موضعُ اتّفاق الجميع، لأنّ احتمالَ الخطأ والالتباس في هذه المرحلة يؤثر على وثوق الناس، واطمئنانهم، ويوجب أن لا يعتمدَ الناسُ على إخبارات النبي وأقواله، فينتقضُ هدفُ النبوّة في المآل.

هذا مضافاً إلى أنّ القرآن الكريم يصرّح بأنّ الله يحفظُ نبيَّه، ويصونهُ صيانةً كاملةً حتى يبلّغ الوحيَ الإلَهيَّ بصورة صحيحة كما قال: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[1]. ففي هذه الآية ذكَرَ القرآن الكريم نوعين من الحَفَظَة لصيانة الوحي:

أ- الملائكة الذين يحيطون بالنبيّ من كلّ ناحية وجانب.

ب- إنّ الله تعالى نفسه يحيط بالملائكة والنبيّ.

(1) سورة الجن، الآيات 26 - 28.

وهذه النظـارة الشديدة والمراقَبَـة الكاملة انّما هي لتحقيق غرضـ النبوّة، وهو إيصال الوحي الإلَهيّ إلى البشر.

2. عصمة الأنبياء من كلّ معصية وذنب:

إنّ أنبياء الله ورُسُلَه عليهم السلام معصومون من الذنب والزلل، في مجال العمل بأحكام الشريعـة، عصمةً مطلقـةً؛ لأنّ الهدف من بعثة الأنبياء إنّمـا يتحقّق أساساً إذا تمتّعَ الأنبياء والرُّسُل بمثل هذه العصمة، لأنّهم إذا لم يلتزموا بالأحكام الإلهيّة التي كُلّفُوا بإبلاغها إلى الناس، انتفى الوثوق بكلامهم، فلم يتحقّق الغرضُ المنشودُ من بعثِهم، وإرسالهم.

ولقـد أشارَ المحققُ الطوسيُّ إلى هـذا البرهان بعبارة موجَزَة حيث قال: «**ويجب في النبيّ العصمةُ ليحصلَ الوثوقُ فيحصل الغرضُ**»[1].

إنّ عصمـة الأنبيـاء عن المعصية أمر قـد أكّده القرآنُ الكريـمُ في آيات مختلفة نورد هنا بعضها:

أ. إنّ القـرآن الكريـم يعتبر الأنبيـاء أشخاصاً مهدِيّين ومختاريـن من قِبل الله تعالى إذ قال: ﴿وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾[2].

ب. إنَّ القرآنَ الكريمَ يذكّر بأنّ الذي يهديه الله لا يقدر أحد على إضلاله إذ يقول: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلّٖ﴾[3].

ج. يعتبر المعصية ضَلالاً إذ يقول: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ﴾[4].

فيستفـاد مـن مجموعة هذه الآيات أنّ الأنبياء معصومون مـن كلّ أنواع الضلال، ومصونون من كلّ ألوان المعصية.

(1) الحلي، كشف المراد، تعليق: الشيخ جعفر السبحاني، ص 217.
(2) سورة الأنعام، الآية 87.
(3) سورة الزمر، الآية 37.
(4) سورة يس، الآية 62.

إنّ البُرهانَ العَقليّ الذي أقمناه فيما سبق على عصمة الأنبياء يدلّ على عصمتهم قبـل البعثة أيضاً، لأنّ الإنسان الذي صَرَفَ رَدْحاً مِن عمره في الذنب والمعصية، ثم حَمَلَ لواءَ الهداية والإرشاد لم يتمكّن من الحصول على ثقة النّاس به، وسكونهم إلى أقوالـه، بخـلاف من عاش قَبلَ بعثته نقيَّ الجيب، طاهِـرَ الذَيل، فإنّه قادرٌ على جَلب ثقة الناس، وكسب تأييدهم له.

هذا مضافاً إلى أنّ في مقدور معارضي الرسالة، أن يغتالوا بسهولة شخصيّة الرّسول، ويطعنوا فيه بالتلويح بسوابقه قبلَ النبوّة، ويحطُّوا بذلك من شأنه، وشأن رسالته.

إنّ الـذي استطـاع بفضل العيش بطهر ونقاء، فـي بيئة فاسـدة أن يكتسب لقب «**محمّـد الأميـن**» هو الشخص الوحيد الذي يستطيع بشخصيّته السّاطعة النقيّة، أن يُبـدّد حُجُب الدعايات المضادة، ويفنّد مزاعـم أعدائه، ومعارضي رسالته، ويضيء باستقامته العجيبة، البيئةَ الجاهليةَ المظلمة تدريجاً.

هـذا مضافاً إلى أنّ من البديهيّ أنّ الإنسان الذي كان معصوماً من بداية حياته، أفضـلُ مـن الـذي تحلّى بصفـة العصمة منذ أن صـار نَبيّاً، كمـا أنّ تأثيـرَه، ودوره الإرشاديّ لا ريب يكون أقوى، والحكمة الإلهيّة تقتضي اختيار الفَردِ الأحسن الأكمل.

3. عصمة الأنبياء عن الخطأ والزلل:

إنَّ الأنبيـاء- مضافـاً إلى كونهم معصوميـن من الذَّنْب- معصومـون كذلك في الأمور التالية:

أ. في القضاء في المنازعات والفصل في الخصومات.

ب. فـي تشخيص موضوعات الأحـكام الشرعية (مثل أنّ المائـع الفلانيّ هل هو خمرٌ أم لا؟)

ج. في القضايا اليوميّة العاديّة.

إنّ لـزوم وصف النبيّ بالعصمة في المـوارد المذكورة نابعٌ من أنّ الخطأ في مثل هذه المجالات ملازمٌ للخطأ في مجال الأحكام الدينيّة، وبالتالي فإنّ الخطأ في هذه الأمور والمجالات يَضُرُّ بثقة النّاس بشخص النبيّ، ويُوجب في المآل تَعَرُّضَ الغَرَض المنشُود للخَطَر، وإن كان لُزوم العصمة في الصورتين الأُوْلَيَين، أوضح من العصمة في الصورة الأخيرة.

4. الأنبياء منزّهون عن العيوب الجسمية والروحية:

من مراتب العصمة أن لا تكون في وجود الأنبياء أُمور توجب تنفّرَ النّاس وابتعادهم عنهم. فكلُّنا يعلم بأنّ بعضَ الأمراض والعاهات الجسمية، أو بعض الخصال الروحيّة، التي تنم عن دناءة الطبع، وخِسّة النفس توجب تنفّرَ النّاسِ وابتعادهم عنه.

ولهـذا فإنّ على الأنبيـاء أنّ يكونوا مُنَزَّهين عن العيـوب الجسميّة والروحيّة، لأنّ تَنَفّرَ النّاس من النبيّ، واجتنابَهم عنه ينافي الهدف من بعثهم، وهو إبلاغ الرسالات الإلهيّة بواسطة الأنبياء إلى الناس.

كمـا أنّنا نُذَكِّرُ بأنَّ المراد من حكم العقل في هذا المجال هو الكشف عن حقيقة، هـي أنّ على اللّه ـ لكونه حكيماً ـ أنّ يختَارَ للنبوّة من يكون عارياً ومنزَّهاً عن مِثل هذه العيوب[1].

(1) إنّ حكمَ العقل في هذا المجال حكمٌ قَطعيٌّ، ولهذا فإنّ بعضَ الروايات التي وَرَدت حول النبي أيوب وهي تحكي عن ابتلائـه بأمراض منفِّرة، مضافاً إلى كونها مخالفةً للحكمِ القَطعـيِّ للعقل تنافي الروايات المعارضة التي وَرَدَت عن أهل البيت في هذا المجال.فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ أيوب مع جميع ما ابتُلِي به لم تتنْ له رائحةٌ، ولا قَبُحَـتْ له صـورةٌ، ولا خرجَتْ منه مَدّةٌ من دَمٍ، ولا قيحٍ، ولا استَقْذرَهُ أَحَـدٌ رآه، ولا استوحش منه أحدٌ شاهدَه ولا دوّد شيءٌ من جَسَدِه، وهكذا يصنعُ اللّه عزّ وجلّ بجميع من يبتليه من أنبيائه، وأوليائه المكرَّمين عليه، وإنما اجتنَبَهُ الناسُ لِفَقره، وضَعْفِه في ظاهرِ أمرِه، لجَهْلهم بما لَهُ عند ربّه تعالى ذِكْرُهُ، من التأييد والفَرَج».
(الخصـال، الصـدوق، ج 1، أبواب السبعة، الحديث 107) ولهذا فإنّ الروايةَ المخالفةَ لهذا الموضوع، لا أساس لها من الصحة فهي مرفوضة.

منشأ العصمة

يطرح عند الحديث عن عصمة الأنبياء السؤال التالي:

ما هي الخاصيّة التي يمتلكها الأنبياء ويتميّزون بها عن غيرهم حتى تؤدي بهم أن يكونوا معصومين عن الخطايا والذنوب؟ وفي معرض الإجابة عن هذا السؤال يمكن أن نقول أنّ منشأ العصمة وسببها في أمرين:

الأول: إنّ الأنبياء حيث إنّهم يتمتعون بمعرفة واسعة بالله سبحانه، لا يَستبدلون رضاه تعالى بشيءٍ مطلقاً. وبعبارة أُخرى؛ إنّ إدراكهم العميق للعظمة الإلهيّة وللجمالِ والكمال الإلَهيّين يمنعهم من التوجّه إلى أيّ شيءٍ غير الحقّ تعالى، والتفكير في أيّ شيء غير الله سبحانه.

إنّ هذه المرتَبَة والدَّرَجة من المعرفة هي التي قال عنها الإمام أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: «**ما رَأَيتُ شَيئاً إلاّ وَرَأَيْتُ اللهَ قبْلَهُ، وبَعْدَهُ ومَعَهُ**»[1].

وقال عنها الإمام الصادقُ عليه السلام: «**وَلكنّي أَعْبُدُهُ حُبّاً لَهُ فتلكَ عبادةُ الكرام**»[2].

الثاني: إنّ اطّلاع الأنبياء الكامل على نتائج الطاعة وثمارها، وعلى آثار المعصية وتبعاتها السَّيئة، هو سبب صيانتهم عن مخالفة الأمر الإلَهيّ.

على أنّ العصمة المطلقة مختصّة بثلّة خاصّة من أولياء الله، إلاّ أنّ في إمكان بعض المؤمنين الأتقياء أنْ يكونوا معصومين عن ارتكاب المعصية في قسم عظيم من أفعالهم، فالفَرد المتّقي مثلاً، لا يُقدم على الإنتحار، أو قتل الأبرياء أبداً[3].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج70، ص22.

(2) م.ن، 70ج،ص 18 ضمن الحديث 9.

(3) قالَ الإمام عليُّ بن أبي طالب عليه السلام عن هذا الفريق: «هُم والجَنّةُ كَمَنْ قَدْ رآها فَهُمْ فيها مُنَعَّمون، وَهُمْ والنّارُ كَمَنْ قد رَآها فَهُمْ فيها مُعَذَّبُون» نهج البلاغة، الخطبة رقم 193 الموجّهة إلى همّام.

ومن البَيّن أنّ العصمة في هذه الموارد ناشئ من العِلم القطعيّ بآثار هذه الأعمال السيئة. فإذا كان مثل هذا العلم حاصلاً للشخص في مجال تبعات الذنوب الخطيرة جداً أيضاً، كان ذلك موجباً حتماً لصيانة الشخص عن المعصية، وهذا ما يتميّز به الأنبياء وخاصة الأولياء عن الآخرين.

لا تنافي بين العصمة والاختيار

نَظَراً لمَنشأ العصمة نُذَكّر بأنّ العصمة لا تنافي اختيار المعصوم، وكونه حرّاً في إرادته، بل إنّ الشخصَ المعصومَ مع مَعرفته الكاملة بالله، وبآثار الطاعة والمعصية ونتائجهما، يمكنه أن يرتكب المعصية وإنْ لم يستخدم هذه القدرة، مثل الوالد الحنون الذي يقدر على قتل ابنه، ولكنّه لا يفعل ذلك أبَداً.

وأوضحُ من ذلك هو عدمُ صدور القبيح من الله تعالى، فإنَّ الله القادرَ المطلَق يمكنه أن يُدخلَ الصالحين المطيعين في جهنم، أو يُدخل العاصين في الجنة، إلاّ أنّ عدلَه وحكمته يمنعان من القيام بمثل هذا العمل. ومن هذا البيان يتضح أنَّ تركَ المعصية والتزام الطاعة، والعبادة، يُعتبران مفخرة كبرى للأنبياء، لأنّهم مع كونهم قادرين على ترك الطاعة، وفعل المعصية، لا يفعلون ذلك اختياراً، وبإرادةٍ منهم.

العصمة لا تلازم النبوّة

نحن مع اعتقادنا بعصمة جميع الأنبياء لا نرى أنّ العصمة تلازم النبوّة، أي أنّنا لا نرى أنّ كلَّ معصوم هو نبيٌّ بالضرورة كالسيدة الزهراء عليها السلام، وإنْ كان كلّ نبيٍّ معصوماً بالضرورة، فربّ إنسان معصومٌ ولكنّه ليس بنبيّ، فها هو القرآنُ الكريم يقول حول السيدة مريم: ﴿يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

(1) سورة آل عمران، الآية 42.

إنّ استخدامَ القرآن الكريم للفظة «الاصطفاء» في شأن السيّدة مريم عليها السلام، يَدلُّ على عصمتها لأنّ نفسَ هذه اللّفظة «الاصطفاء» استخدمت في شأن الأنبياء سلامُ الله عليهم أيضاً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

هذا مضافاً إلى أنّ الآية قد تحدَّثتْ حول طهارة السيدة مريم عليها السلام، والمقصود هو طهارتها من أيّ نوع من أنواع الرجْس، والمعصية، وليست هذه الطهارة والبراءة هو براءتها من الذنب الذي رَمَتْها اليهودُ به في مجال ولادة عيسى منها من دون والدٍ، لأنّ تبرئة مريم من هذه المعصية ثبتت في الأيّام الأولى لولادة النبيّ عيسى عليه السلام بتكلُّمه[2]، فلم يعد هناك حاجة إلى بيان ذلك مجدّداً.

أضف إلى ذلك أنّ الآية تتحدّث عن مريم قبل ان تحمل بالمسيح، حيث جاء حديث حملها له عبر هذه الآية فلاحظ.

(1) سورة آل عمران، الآية 33.

(2) ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ...﴾، سورة مريم، الآية 29.

المفاهيم الرئيسة

العِصمة لغة: «هي الحفظ والوقاية، لأن عصم تعني: حفظ ووقى».

- للعصمة في باب النبوّة مراتب هي:

1. العصمة في مرحلة تلقّي الوحي وتبليغه.
2. العصمة عن المعصية والذنب.
3. العصمة عن الخطأ في الأمور الفرديّة والاجتماعيّة.
4. عدم إصابتهم بالأمراض المنفّرة.

- يمكن انّ نلَخّص منشأ العصمة وسببها في أمرين:

الأول: إنّ إدراك الأنبياء العميق للعظمة الإلهيّة وللجمالِ والكمال الإلَهيّين يمنعهم من التوجّه إلى أيّ شيءٍ غير الحقّ- تعالى-، والتفكير في أيّ شيء غير الله سبحانه.

الثاني: إنّ اطّلاع الأنبياء الكامل على نتائج الطاعة وثمارها، وعلى آثار المعصية وتبعاتها السَّيئة، هو سبب صيانتهم عن مخالفة الأمر الإلَهيّ.

- مع اعتقادنا بعصمة جميع الأنبياء لا نرى أنّ العصمة تلازم النبوّة، أي أنّنا لا نرى أنّ كلَّ معصومٍ هو نبيٌّ بالضرورة، وإنْ كان كلّ نبيٍّ معصوماً بالضرورة.

أسئلة الدرس

1- ما هي مراتب العصمة الأربعة؟ اذكرها وأوضحها.

2- ما هي الخاصيّة التي يمتلكها الأنبياء والتي تؤدّي بهم الى العصمة؟

3- هل هناك تنافٍ بين العصمة والاختيار؟ بيّن ذلك.

عصمة الأنبياء

اختلف الناس في الأنبياء عليهم السلام فقالت الشيعة الإمامية لا يجوز عليهم شيء من المعاصي والذنوب كبيراً كان أو صغيراً لا قبل النبوة ولا بعدها. وجوّز أصحاب الحديث والحشوية على الأنبياء الكبائر قبل النبوة ومنهم من جوّز ذلك في حال النبوة بشرط الاستتار دون الإعلان، ومنهم من جوّز على الأحوال كلها.

ومنعت المعتزلة من وقوع الكبائر والصغائر المستخفة من الأنبياء عليهم السلام قبل النبوة وفي حالها وجوّزت في الحالين وقوع ما لا يستخف من الصغائر ثم اختلفوا، فمنهم من جوّز على النبي الإقدام على المعصية الصغيرة على سبيل العمد، ومنهم من منع ذلك وقال إنهم لا يقدمون على الذنوب التي يعلمونها ذنوباً بل على سبيل التأويل.

وحكي عن النظام وجعفر بن مبشر وجماعة ممن تبعهما إن ذنوبهم لا تكون إلا على سبيل السهو والغفلة وإنهم مؤاخذون بذلك وإن كان موضوعاً عن أممهم لقوة معرفتهم وعلو مرتبتهم. ثم قال واعلم أن الخلاف بيننا وبين المعتزلة في تجويزهم الصغائر على الأنبياء عليهم السلام يكاد يسقط عند التحقيق لأنهم إنما يجوّزون من الذنوب ما لا يستقر له استحقاق عقاب وإنما يكون حظه تنقيص الثواب على اختلافهم أيضاً في ذلك لأن أبا علي الجبائي يقول إن الصغير يسقط عقابه بغير موازنة فكأنهم معترفون بأنه لا يقع منهم ما يستحقون به الذم والعقاب.

وهذه موافقة للشيعة في المعنى لأن الشيعة إنما تنفي عن الأنبياء عليهم السلام جميع المعاصي من حيث كان كل شيء منها يستحق به فاعله الذم والعقاب لأن الإحباط باطل عندهم وإذا بطل الإحباط فلا معصية[1].

(1) المرتضى، تنزيه الأنبياء، بيروت- لبنان، دار الأضواء، 1409هـ- 1989م، ط2، ص17.



الدرس السابع عشر

النبوّة (4)

طرق إثبات نبوّة النبيّ محمّد ﷺ



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر طرق إثبات نبوّة النبيّ محمّد ﷺ.
2. يشرح بعض معاجز النبيّ الأكرم ﷺ.
3. يبيّن القرائن والشواهد على نبوّة النبيّ الأكرم ﷺ.

تحدَّثنا سابقًا حول النبوّة بصورة عامة، وفي هذا الدرس نتحدَّث حول نبوّة رسولِ الإسلام «**محمّد بن عبد الله**» ﷺ خاصّةً، وقبل ذلك نُذكّرُ بأنَّ النبوّة يمكن أنْ تثبت لشخصٍ بثلاثة طرق:

1. الإتيان بالمعجزة مقروناً بادّعاء النبوّة.
2. جمع القرائن والشواهد التي تشهد بصدق دعواه.
3. تصديق النبي السابق.

إنّ نبـوّة رسولِ الإسـلام ﷺ يمكن أن تثبت بجميع الطُرُق الثلاثة المذكورة، وها نحن نذكرها بصورة مختصرة:

الطريق الأول: المعجزة

يمكن أن نقسّم معاجز النبيّ الأكرم ﷺ إلى قسمين:

الأول: المعاجز العامّة.

الثاني: معجزة القرآن الكريم، وسوف نفرد لذلك درسًا مستقلًا وهو الدرس التالي.

إنّ معاجـز رسـولِ الإسـلام ﷺ كما أسلفنـا لا تنحصر في القـرآن الكريم، بل إنّـه ﷺ كان ربمـا قام بإتيان بعض المعجزات في مناسباتٍ مختلفـة بهدف إقناع الناس.

وفـي هذا الصعيد يجـب التذكيرُ بـأن ثمّت محاسبـةً عقليّةً تثبـت أساساً وجودَ معاجـزَ لرسولِ الإسلام عـدا القرآنِ الكريم. فالنبيُّ الأكرمُ ﷺ تحدّث عن معاجز للنبيّ موسى عليه السلام وعن معاجز للنبيّ عيسى عليه السلام.

فهـل يمكن أنْ نقبل بأنْ يكون رسولُ الإسلام أعلى وأفضل من الأنبياء السابقين، وخاتمهم، وأنّه أثبتَ معاجز عديدة للأنبياء السابقين، ومع ذلك لا تكون له إلاّ معجزة واحدة؟تـرى أمـا كانَ الناسُ ـ وهم يَسمعون بصُدُور كل تلـك المعجزات عن الأنبياء السابقين ـ يتمنّون صدورَ معاجز مختلفة ومتنوّعة على يد رسول الله ﷺ، ولا يكتفون برؤية معجزةٍ واحدةٍ فقط؟!

وكيـف لا تكـون لرسول الله ﷺ معاجز سـوى «**القرآن الكريم**» وهـذا هو القرآنُ نفسُه يثبت صدور معاجز متعددة على يد رسول الله ﷺ نشير إليها فيما يأتي:

1. **شَقّ القَمَر**: عندما اشترط المشركون إيمانهم برسول الله ودعوته بشقّ القَمَر نصفيـن، قام النبـيُّ ﷺ بذلك بإذن الله تعالـى، كما يقول القـرآن الكريم: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾[1]. إنّ ذيـلَ هذه الآية شاهدٌ واضحٌ على أنّ المقصود من الآية ليس هو انشقاق القمر في يوم القيامة بل يرتبط بعصر النبيّ الأكرم ﷺ.
2. **المعـراج**: إنّ عروجَ رسول الله ﷺ في ليلـة واحدة من المسجد الحرام في مكة المكرَّمـة إلى المسجـد الأقصى في فلسطين، ومنه إلـى السَّماء، وقد تمّت هذه الرحلـة في مُدّة قصيرة جـداً، يُعتَبَرُ هو الآخر من معاجـز رسول الإسلام التي ذُكرتْ في القرآن الكريم[2]. على أنّ قُدرة الله أقوى وأسمى من أن تحول العوامل المادية والطبيعية دون تحقّق معراج نبيه الكريم إلى العالَم الأعلى، ووقوعه.

(1) سورة القمر، الآيتان 1 و 2.
(2) انظر سورة الإسراء الآية 1.

3. **الإخبار عن الغيب:** قلنا عند الحديث عن الإخبار بالغَيب أن السيدَ المسيحَ عليه السلام كان يخبر عن الغيب[1] وقد أخبر النبيُّ الأكرمُ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عن الغيب عن طريق الوحي كذلك، ومن إخباراته: الإخبار بغَلَبة الروم على الفرس[2] وبفتح مكة[3].

إنّ هذه المعاجز هي التي ذَكَرَها القرآن الكريم، وأمّا ما ذكرهُ المؤرّخون والمحدّثون المسلمون من معاجز أُخرى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فيفوق ما جاء ذكرُه في القرآن الكريم، وهي وإنْ لم تكن في الأغلب ـ متواترة إلاّ أنّه يتمتع مجموعُها بتواترٍ إجماليٍّ.

الطريق الثاني: القرائن والشواهد على نبُوّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم

إنّ جمع القرائن والشَّواهد - كما أسلفنا- يمكن أنْ تكون من الطُرُق الكفيلة بإثبات صدق دعوى الأنبياء، وها نحن نشير باختصار إلى القرائن الدّالة على صحَّة دعوى النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:

1. النبيُّ الأكرم وسوابقُهُ المشرقةُ:

كانت قريش تُسمّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل بعثه بالرسالة «**محمّد الأمين**» وتودع عنده أماناتها الثمينة، وتستأمنه على أشيائها القيّمة. وعندما حصل خلافٌ بين أربعة قبائل في وضع «**الحَجَر الأسود**» في موضعه بعد تجديد بناء الكعبة، رضي الجميعُ بأن يقومَ عزيزُ قريش- أي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- بهذه المهمّة لكونه رجلاً صادقاً أميناً[4].

(1) انظر سورة آل عمران، الآية 49.
(2) انظر سورة الروم، الآية 2.
(3) انظر سورة الفتح، الآية 27.
(4) ابن هشام، السيرة النبويّة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة- مصر، مكتبة محمد علي صبيح، 1383هـ- 1963م، ج 1، ص 209.

2. النَقاء من تلوّث البيئة الاجتماعية:

لقد نشأ رسول اللّه ﷺ وترعرع في بيئة لم يكن فيها إلاّ الخمر والميسر ووأد البنات، ودفنهنّ أحياءً، وإلاّ أكل الميتة والظلم والغارة، ومع ذلك ورغم نشوئه وترعرعه في مثل هذه البيئة، كان إنساناً نقيّ الجيب، طاهرَ السُّلوك، لم يُوصف بأيّ شيء من الصفات الرَّذيلة، ومن دونِ أن يتلوَّث بأيّةِ لوثةٍ عقائديّة، وفكريّةٍ.

3. محتوى الدعوة الإسلامية:

عندما نُلقي نظرةً فاحصة على محتوى دعوة النبيّ الأكرم محمّد ﷺ نراها تدعو الناس بالضبط إلى مخالفة كلّ ما كان رائجاً في تلك البيئَة، ورفضه رفضاً مطلقاً. إنّهم كانوا يعبدون الأوثان وقد دعاهم إلى التوحيد، ورَفض الأوثان. إنّهم كانوا يُنكرون المعادَ، وقد دعاهُم إلى الإيمان به، واعتبره شرطاً من شروط الإسلام. وكانوا يئدون البنات ويقبرونهنّ وهنّ أحياء، ولم يكن للمرأة أيّة قيمة، ولكنّه أعاد إليها كرامتها الإنسانيّة، ومنزلتها اللائقة بها، كأفضل ما يكون.

4. أدوات الدعوة ووسائلها:

إنّ الأدوات والوسائل التي استخدمها النبيُّ، لنشر دعوته، واستعان بها لنشر دينه، كانت إنسانيّة وأخلاقيّة تماماً. فهو ﷺ لم يستخدم أبداً الأساليبَ اللّا إنسانيّة كقطع الماء على خصومه، أو تسميمه وتلويثه، أو قطع الأشجار وما شابه ذلك من الأساليب اللّا إنسانيّة[1].

بل وأوصى بأن لا يُلحَق الأذى بالنساء والأطفال والعجائز وكبار السنّ، وأن لا تُقطَع الأشجار، وأن لا يُشرع في قتال العدوّ قبل الدعوة إلى الإسلام وإتمام الحجّة عليه.

(1) راجع الكتب التاريخية في هذا المجال.

إنّ الإسلام يرفض رفضاً قاطعاً المنطق المكيافيلي القائل: «**بأنّ الغاية تبرّر الوسيلة**» وكمثال رَفَضَ اقتراح أحد اليهود لإخضاع العدوّ في وقعة خيبر عن طريق إلقاء السم في الماء. إنّ حياة رسول الإسلام ﷺ زاخرة بقصص التعامل الإنساني النبيل مع الأعداء.

5. شخصيّةُ المؤمنين به وخصالُهم:

إنّ دراسة أفكار المؤمنين بالنبيّ، والمنضوين تحت لوائه، وأحوالهم وشخصيّاتهم يمكن أن توضح مدى صدقه وصحة دعواه. فإنّ من البديهيّ أن الدعوة إذا تأثّر بها الشخصياتُ المتميزة في المجتمع فانضووا تحت رايتها، واعتنقوها بصدق وإخلاص، كان ذلك آية صدقها وصحتها ودليلاً على حقّانيتها، وواقعيّتها.

ولكن إذا التفَّ حولَه طلّاب الدنيا، وعُبّادُ المال والشهوة، كان ذلك دليلاً على ضعف ادّعائه. لقد كان بين المنضوين تحت لواء رسول الإسلام شخصيات عظيمة في غاية النُبل والفَضيلة كالإمام عليّ عليه السلام وكسلمان، وعمّار، وبلال، ومصعب، وابن مسعود، والمقداد، وأبي ذر وغيرهم ممّن شهد لهم التاريخُ بالطهر والصفاء، وسموّ الشخصية، ونزاهة الأخلاق.

6. التأثيرُ الايجابي في البيئة الاجتماعية، وتأسيسُ حضارة عظيمة:

إنّ رسول الإسلام استطاع في مدة لا تتجاوز ثلاثاً وعشرين سنة أنْ يغيّر وضعَ الجزيرة العربية تغييراً جوهرياً. لقد استطاع أنْ يصنع من قُطّاع طُرُق، وسَلاّبين، أشخاصاً أُمناء، ومن عُبَّاد أوثان وأصنام، موحّدين بارزين، لم يَصنَعوا حضارةً عظيمة في محلّ سكونتهم فقط بل مدّوا حضارتهم الإسلامية الرائعة الفريدة، إلى مناطق أُخرى من العالم، كذلك.

فها هو جعفر بن أبي طالب عليه السلام من مسلمي صَدر الإسلام يؤكّد على هذه النقطة عندما قال في معرَض الإجابة على سؤال النجاشيّ الذي سأله عن أحوال النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله وسلم: «**أيّها المَلك؛ إنّ الله بَعَث إلينا رَسولاً منّا فَدعانا إلى الله لنوَحّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنّا نعبُدُ نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان، وأمَرَنا بصدقِ الحديث... وأمَرَنا بالصلاة، والزكاة وصلة الرَحم، وحُسن الجوار، ونهانا عن الفواحش، وقولِ الزُّور**»[1].

إنّ هذه القرائن، ونظائرها، يمكن أنْ تقودَنا إلى صدقِ قول رسول الإسلام وحقانيّة هدفه. إنّ من المحتّم أنّ رجلاً بهذه الخصوصيّات لا يرتكب الكذبَ أبداً، وفي النتيجة يجب أن يُقال: إنّه كان صادقاً في ادّعائه النبوّة، وارتباطه بعالم الغيب كما تؤيّد القرائنُ الأخرى بالذات هذا الموضوع أيضاً.

الطريق الثالث: تصديقُ النبيّ السابق

إنّ تصديقَ النبيّ السّابق للنبيّ اللاحقِ هو أحد الطرق لإثبات دعوى النبوة وذلك لأنّ الفرض هو أنّ نبوّة النبيّ السابق قد ثبتت بالأدلّة القاطعة، ولهذا من الطبيعي أن يكون كلامُه سنداً قاطعاً للنبوّة اللاحقة، ويُستفادُ من بعض الآيات القرآنيّة أنَّ أهلَ الكتاب كانوا يعرفون رسول الإسلام كما يعرفون أبناءهم، يعني أنّهم قرأوا علائم نبوَّته في كتبهم السَّماوية، وقد ادّعى رسولُ الإسلام هذا الأمر، ولم يكذّبه أحدٌ منهم أيضاً، كما يقول: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾[2].

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 1، ص 359 – 360.
(2) سورة البقرة، الآية 146.

إنّ رسـولَ الإسـلام ادّعى أنّ السيد المسيحَ عيسى ابنَ مريم عليه السلام بشّر به، وانّه يأتـي من بعده نبيٌّ اسمُه «**أحمد**»: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1]. كما وأنَّ من الطريـف أنْ نَعلـمَ أنّ الانجيل رغم تعرُّضـه للتحريف منذ قرون قد جـاءَ في إحدى نُسَخِـه وهو إنجيل يوحنا (الإصحـاح 14، 15، 16) بتَنَبّؤٍ بمجيء شخصٍ بعد السيّد المسيـح يُدعى «**فارقليطـا**» (أي محمّد، بالسريانيّة) يمكـن للمحقّقين الرجوع إلى ذلك، للوقوف على الحقيقة.

(1) سورة الصف، الآية 6.

المفاهيم الرئيسة

- يمكن أنّ تثبت النبوّة لشخصٍ ما بثلاثة طرق:

1. الإتيان بالمعجزة مقروناً بادّعاء النبوّة.
2. جمع القرائن والشواهد التي تشهد بصدق دعواه.
3. تصديق النبي السابق.

- يمكن أن نقسّم معاجز النبيّ الأكرم ﷺ إلى قسمين:

1. المعاجز العامة. 2. معجزة القرآن الكريم

- إنّ معاجز رسولِ الإسلام ﷺ كما أسلفنا لا تنحصر في القرآن الكريم، بل إنّه ﷺ قام بإتيان بعض المعجزات في مناسباتٍ مختلفة بهدف إقناع الناس.
- القرآنُ نفسُه يثبت صدور معاجز متعددة على يد رسول الله ﷺ منها:

1. شَقّ القَمَر. 2. المعراج. 3. مباهلته مع أهل الكتاب.

- إنّ جمع القرائن والشَّواهد يمكن أنْ تكون من الطُرُق الكفيلة بإثبات صدق دعوى الأنبياء.
- إنّ تصديقَ النبيّ السّابق للنبيّ اللاحقِ هو أحد الطرق لإثبات دعوى النبوّة.

أسئلة الدرس

1-أذكر اثنتين من معاجز الرسول الأكرم ﷺ.

2-هناك قرائن وشواهد عديدة على نبوّة النبيّ الأكرم ﷺ. اذكر ثلاثة منها مع توضيحها.

3-اذكر آية واحد فيها تأكيد من نبيّ سابق على نبوّة نبيّ لاحق.

علم النبيّ ﷺ بالكائنات وتوصيته بالصبر

عن الحسن بن راشد، قال: سمعت أبا إبراهيم عليه السلام (الإمام الكاظم) يقول:

«إنّ الله أوحى إلى محمّد ﷺ: أنّه قد فنيت أيّامك، وذهبت دنياك، واحتجت إلى لقاء ربّك، فرفع النبي ﷺ يده إلى السماء، وقال: اللهمّ عدتك التي وعدتني، إنّك لا تخلف الميعاد.

فأوحى الله إليه: أن ائت أحداً أنت ومن تثق به، فأعاد الدعاء، فأوحى الله إليه: امض أنت وابن عمّك حتّى تأتي أحداً ثمّ لتصعد على ظهره، فاجعل القبلة في ظهرك، ثمّ ادع وأحسّ الجبل بمجيئك، فإذا حسّك فاعمد إلى جفرة منهنّ أنثى وهي تدعى الجفرة تجد قرينها الطلوع وتشخب أوداجها دماً، وهي التي لك، فمر ابن عمّك ليقم إليها، فيذبحها ويسلخها من قبل الرقبة، ويقلّب داخلها فتجده مدبوغاً، وسأنزل عليك الروح وجبرئيل معه دواة وقلم ومداد ليس هو من مداد الأرض يبقى المداد، ويبقى الجلد لا يأكله الأرض، ولا يبليه التّراب، لا يزداد كلّ ما ينشر إلّا جدّة، غير أنّه يكون محفوظاً مستوراً، فيأتي وحي يعلّم ما كان وما يكون إليك، وتمليه على ابن عمّك، وليكتب ويمدّ من تلك الدوات، فمضى ﷺ حتّى انتهى إلى الجبل ففعل ما أمره، فصادف ما وصف له ربّه، فلمّا ابتدأ في سلخ الجفرة نزل جبرئيل والروح الأمين وعدّة من الملائكة لا يحصي عددهم إلّا الله ومن حضر ذلك المجلس، ثمّ وضع عليّ عليه السلام الجلد بين يديه وجاء به والدوات والمداد أخضر كهيئة البقل وأشدّ خضراً وأنور، ثمّ نزل الوحي على محمّد ﷺ، وجعل يملي على عليّ عليه السلام ويكتب عليّ: أنّه يصف كلّ زمان وما فيه غمزه بالنظر والنظر، وخبّره بكلّما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة،

وفسّـر لـه أشياء لا يعلم تأويلها إلّا الله والراسخـون في العلم، فأخبره: بالكاينين من أولياء الله من ذريّته أبداً إلى يوم القيامة، وأخبره: بكلّ عدوّ يكون لهم في كلّ زمان من الأزمنة، حتّى فهم ذلك وكتب، ثمّ أخبره: بأمر يحدث عليه وعليهم من بعـده، فسألـه عنها، فقال: الصبـر، الصبر، وأوصى الأوليـاء بالصبر، وأوصى إلى أشياعهـم بالصبـر والتسليم، حتّى يخرج الفرج، وأخبـره: بأشراط أوانه، وأشراط تولّـده، وعلامات تكـون في ملك بني هاشم، فمن هذا الكتـاب استخرجت أحاديث الملاحم كلّها، وصار الوصي إذا أفضى إليه الأمر تكلّم بالعجب»[1].

(1) الصفـار، محمـد بن الحسـن، بصائر الدرجات، تحقيق: ميـرزا حسن كوجه باغي، بيـروت- لبنان، منشورات الأعلمي، ص527، ح 6.

الدرس الثامن عشر

النبوّة (5)
معجزة القرآن

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يوضّح كيف أنّ القرآن معجزة خالدة.
2. يفهم أوجه من الإعجاز الأدبيّ في القرآن الكريم.
3. يبيّن إعجاز القرآن في أسرار الكون والإخبار عن المستقبل.

القرآن الكريم المعجزة الخالدة

إنّ التاريـخَ القاطـعَ الثابـتَ يشهد بأنّ رسـول الإسلام ﷺ قَـرَنَ دعوَته بالإتيان بمعاجـز عديدة مختلفة، إلاّ أنّـه ﷺ كان يؤكّد- من بين هذه المعاجز- على واحدة منها، وهي في الحقيقة معجزته الخالدة، ألا وهي «القرآن الكريم».

فإنّ نبيّ الإسلام أعلن عن نبوّته ورسالته بالإتيان بهذا الكتاب السَّماويّ، وتحدّى الناسَ به، ودعاهم إلى الإتيان بمثله إن استطاعوا، ولكن لم يستطع أحدٌ- رغم هذا التحدِّي القرآنيّ القاطع - أنْ يأتي بمثله في عَصر النبوّة.

واليـوم وبعد مرور القـرون العديدة لا يزال القرآنُ يتحـدّى الجميع ويقول: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1].

وفـي موضع آخر يقـول - وهو يقنع بأقلّ من ذلـك -: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[2]، ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[3].

إنّنا نعلمُ أنّ أعداء الإسلام لم يألوا جُهداً طيلة (15) قرناً من بدء ظهور الإسلام من توجيه الضربـات إليه، ولم يفتروا عن محاولة إلحاق الضرر بهذا الدين، والكيد

(1) سورة الإسراء، الآية 88.
(2) سورة هود، الآية 13.
(3) سورة البقرة، الآية 23.

لــه بمختلف ألوانِ الكيد، وحتى أنّهم استخدموا سلاح اتّهام رسولِ الإسلام بالسّحرِ، والجنون، وما شابه ذلك، ولكنّهم لم يَستطيعوا قطّ مقابلةَ القرآن الكريم، ومعارضته فقد عجزوا عن الإتيانِ حتى بآية قصيرة مثل آياته.

والعالــمُ اليوم مجهَّــزٌ كذلك بكل أنواع الأفـكار والآلات، ولكنّه عاجز عن مجابهة هذا التحدّي القرآنيّ القاطع، وهذا هو دليلٌ على أنّ القرآنَ الكريمَ فوق كلامِ البشر.

وجوه إعجاز القرآن الكريم

1. الإعجاز الأدبي:

كانــت لرسول الله ﷺ معاجزُ مختلفة ومتعدّدة دُوّنَتْ في كُتُب التاريخ والحديث، ولكــنّ المعجزة الخالدة التي تَتَلألأ من بين تلك المعاجز في جميع العُصُور والدهور هو القرآن الكريم، والسرُّ في اختصاص رسول الإسلام ﷺ، بمثل هذه المعجزة من بيــن جميع الأنبياء، هو أنَّ دينه دينٌ خاتمٌ، وشريعَتــهُ شريعةٌ خاتمةٌ وخالدةٌ، والدينُ الخالــدُ والشريعة الخاتمة بحاجة إلى معجزة خالدة لتكــون برهانَ الرسالة القاطع لكلِّ عصرٍ وجيل، ولتستطيع البشرية في جميعِ القرونِ والدُّهور أنْ ترجع إليه مباشرةً من دون حاجة إلى شهادات الآخرين وأقوالهم.

إنّ القــرآنَ الكريــم يتّسمُ بصفــة الإعجاز من عــدة جهات، يحتــاج البحث فيها بتفصيــلٍ، إلى مجالٍ واسعٍ لا يناسب نطاق هذه الرسالة، ولكنّنا نشير إليها على نحو الإيجاز:

في عصر نزول القرآن الكريم كان أوّلُ ما سَحَر عيونَ العرب، وحيّر أرباب البلاغة والفصاحــة منهم جمالُ كلمات القرآن، وعجيبُ تركيبه، وتفوّقُ بيانه، الذي يُعبَّر عن ذلك كله بالفصاحة والبلاغة.

إنّ هــذه الخصُوصية كانت بــارزةً ومشهودةً للعرب يومــذاك بصورةٍ كاملة، ومن

هنـا كان رسـولُ الله ﷺ بتلاوة آيـات الكتاب، مـرةً بعد أُخرى، وبدعوتـه المكرّرة إلـى مقابلته والإتيان بمثله إن استطاعوا. يدفع عمالقـة اللغة والأدب، وأبطال الشعر وروّاده، إلـى الخضـوع أمام القـرآن، والرضـوخ لعظمة الإسـلام، والاعتراف بكون الكلام القرآنيّ فوق كلام البشر.

فهـا هو «**الوليد بن المغيـرة**» أحد كبار الشعراء والبلغاء في قريش يقول - بعد أنْ سمـع آيات من القـرآن الكريم تلاها عليه رسولُ الإسلام، وطُلـب منه أنْ يبدي رأيه فيهـا -: «**وَوالله إنّ لقَولـه الّذي يقولُ لَحلاوةً، وإنّ عليه لطَلاوةً، وإنّه لَمُثْمرٌ أعلاهُ، مُغدقٌ أَسْفَلُهُ، وإنّه لَيَعْلُو وما يُعلى**»[1].

وليـس «**الوليدُ بن المغيرة**» هو الشخص الوحيدُ الذي يحني رأسه إجلالاً لجمال القـرآن الظاهـري، ولجلاله المعنوي، بل ثمة بلغاء غيره مـن العرب مثل: «**عتبة بن ربيعـة**» و «**الطفيـل بـن عمرو**» أبدَوا كذلك عجزَهم تجاه القـرآن، واعترَفُوا بإعجاز القرآن الأدَبي.

علـى أنّ العَرَب الجاهليـين نَظَراً لتَدَنّـي مستوى ثقافتهم لم يُدرِكـوا من القرآن الكريم إلاّ هذا الجانبَ، ولكن عندما أشرقت شمسُ الإسلام على رُبع الكرة الأرضية، وعَرَفَـتْ به جماعاتٌ بشريةٌ أُخرى اندفعَ المفكّـرون إلى التدبّر في آيات هذا الكتاب العظيـم، ووقفوا مضافاً إلى فصاحَته وبلاغته، وجمال أسلوبه، وتعبيره، على جوانب أُخرى من القرآن الكريم والتي يكون كلٌّ واحدة منها بصورة مستقلّة خيرَ شاهد على انتمائه إلى العالـم القدسيّ، ونشأته من المبدأ الأعلى للكون. وهكذا تتكشف في كلّ عَصر جوانب غير متناهية لهذا الكتاب العظيم.

(1) الشوكاني، فتح القدير، عالم الكتب، ج5، ص329.

2. أمّية الرسول ﷺ:

إذا كان الإعجاز القرآنيُ من الناحية الأدبية قابلاً للدَرك والفهم عند طائفة خاصّة لهـا إلمامٌ كاف بالأدب العربي، فـإنّ الجوانبَ الأُخرى من الإعجـاز القرآني ولحسن الحظ مفهومةً لآخرين. إنّ الآتي بالقرآن الكريم كان شخصاً أُميّاً لم يدرُس، ولم يَتلقَّ تعليماً قبل النبوة، فلا هو دخل مدرسة أو كتّاباً، ولا هو تلمَّذ على أحد، أو قَرَأَ كتاباً كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

إنّ نبيَّ الإسلام ﷺ تلا هذه الآية على قوم كانوا يعرفون حياتَه وتفاصيلها، تمام المعرفـة، فإذا كان له سابقة تحصيل وتعلّم لكَذّبوا ادّعـاءَهُ هذا. وأمّا اتّهام البعض إيّـاه بأنه ﴿يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[2] فهي تهمـة لا أساس لها مثل سائـر التهم الأُخرى، كما يقول: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[3].

3. عدم الاختلاف المضموني:

لقـد تُلي القرآنُ الكريم على الناسِ طيلةَ ثلاث وعشرينَ سنة وفي ظروف مختلفة (فـي الصلح والحرب، في السفر والحضر، و...) بواسطة رسول الله ﷺ، وتقتضي طبيعـة هذا النمـط من التحدُّث والتكلّم أن يقع فـي كلام المتكلّم نوعٌ من الاختلاف والتعدُّديّـة في الأسلوب والخصُوصيّات البيانيّـة فلطالما يقع المؤلّفون الذين يُؤَلِّفُونَ كُتُبَهُـمْ في ظُروف عاديّـة متماثلة - رغم مراعاة قواعد التأليـف والكتابة، وأُصولها - فـي الاختلاف والاضطراب في الـكلام، فكيف بالذي يُلقي كلامـاً بالتدريج، وفي أوضاع متباينة وأحوال مختلفة تتراوح بين الشدّة والرخاء، والحزن والفرح، والقتال والسلام، والأمن والخطر؟!

(1) سورة العنكبوت، الآية 48.
(2) سورة النحل، الآية 103.
(3) سورة النحل، الآية 103.

إنّ المُلفت للنظر هو أنّ رسول الإسلام ﷺ تَحدَّث حول موضوعات مختلفة ومتنوّعة، بـدءاً بالإلَهيّـات ومروراً بالتاريـخ، والتشريع، والأخـلاق، والطبيعة، والإنسـان، وانتهاء بالحيـاة الأخـرى، وفي نفس الوقت تمتّـع كلامه هذا من بدئه إلى ختمـه بأعلى نوع من الانسجام، والتناغم، من حيث الأسلوب، والمحتوى. يقول القرآن نفسُهُ عن هذا الجانب من الإعجاز: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[1].

4. تماهيه مع الفطرة الإنسانية:

إنّ القـرآنَ الكريمَ جعل الفطرةَ الإنسانيّة الثابتة نُصب عَينيه وشرّع على أساسها قانونَه، فكانت نتيجةُ هذه الرؤية الأساسيّة أنْ أخَذَ في نظر الاعتبار جميع أبعاد الروح والحياة الإنسانيّة، وذكّر بالأصول والأسس الكليّة التي لا تقبَلُ الزوال والاندثار.

فمـن خصائص القوانيـن الإسلامية الكليَّة هـو أنَّ هذه القوانيـن قابلةٌ للتطبيق فـي جميع الظروف المختلفة والبيئات المتنوّعة، ويوم كان المسلمون يسيطرون على مساحة جدٌّ كبيرة من العالم، كانوا يديرون المجتمعات البشرية قروناً عديدة في ظلّ هذه القوانين والتشريعات بقوّة، ونجاح.

يقول الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «**إنَّ اللهَ لَمْ يَدَع شَيْئاً تَحْتاجُ إلَيْه الأُمَّةُ إلاّ أَنْزَلَهُ في كتابه، وَبَيَّنَهُ لرَسُوله وجَعَلَ لكُلّ شيء حَدّاً، وَجَعَلَ عَلَيْه دَليْلاً**»[2].

5. الإعجاز في مجال أسرار الكون وأخبار المستقبل:

أ. إنّ القرآن الكريم بيّن في آيات مختلفة ومتعدّدة وفي مناسبات متنوّعة أسرارَ عالَم الخلق التي لم يَكُنْ لدى البَشَر أيُّ علم، ولا إلمام بها. ولا شكَّ أنَّ الكشف عن هذه الأسرار لشخص لم يتلقَّ تعليماً، ولَم يدرس، وذلك في مجتمع جاهليّ لا يعرف شيئاً أصلاً، لا يمكن إلاّ عن طريق الوحي.

(1) سورة النساء، الآية 82.

(2) الكليني، الكافي، ج1، ص176، ح11.

إنّ الكشف عن قانون الجاذبية الذي يفسّر على أساسه قيامُ صرح الكون يُعَدّ من مفاخر العلم الحديث. ولقد كَشَفَ القرآنُ الكريمُ القناعَ عن هذا القانونِ في عبارة قصيرة إذ قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[1].

إنّ الكَشْفَ عن قانون الزوجية العامّة هو الآخر يُعدّ من مكتسَبات العلم الحديث، وقد تحدّث عنه القرآنُ الكريمُ في عَصر لم يكن البشرُ يعرف عنه أيَّ شيء مطلقاً إذ قال: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[2].

هذا وثمّت نماذج أُخرى في هذا المجال جاء ذكرُها في كتب التفسير والعقيدة، أو دوائر المعارف.

ب. إنّ القرآنَ الكريم أخبر عن طائفة من الحوادث والوقائع المستقبلية إخباراً قطعيّاً، وقد وقعت تلك الوقائع والحوادث فيما بعد بصورة دقيقة، ولهذا النمط من الإخبارات نماذج عديدة، وكثيرة إلاّ أنّنا نشير إلى واحدة منها هنا على سبيل المثال:

يَوم غَلَبَ الساسانيون عُبّادُ النار على الرُّوم الموحّدين تفاءَلَ المشركونَ العرب بهذا الحَدَث وقالوا سننتصر نحن على موحِّدي الجزيرة العربية (المسلمين) أيضاً، وعند ذاك أخبر القرآنُ الكريمُ بانتصار الرُّوم على الفُرس: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[3].

ولم تمض بضع سنوات إلاّ وتحقّقت النبوءةُ المذكورة، وانتصر كلا الفريقين المؤمنين (الرّوم المسيحيّون ومسلمو الجزيرة العربية) على أعدائهم (الساسانيين ومشركي قريش). ولهذه الناحية تحدّثَ القرآن في ذيل الآية

(1) سورة الرعد، الآية 2.
(2) سورة الذاريات، الآية 49.
(3) سورة الروم، الآيات 2 – 4.

عـن سـرور المؤمنيـن إذ قـال: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. لأنّ كلا الانتصارين حدثا في وقتٍ واحدٍ.

ج. إنّ القـرآنَ الكريـمَ تَحدَّثَ عن حياة الأنبيـاء عليهم السلام وأُممهم السابقة في سورٍ مختلفـة بتعابيـرَ مختلفـة. إنّ هـذه الوقائـع وَرَدَت كذلك في كتـاب العَهدين (التوراة والانجيل) أيضاً، ولكن إذا ما قيست تلك مع ما وَرَدَ في القرآنِ الكريم اتّضـح أن القرآن الكريم من الوحي الإلَهيّ برمَّته، وأنّ ما جاء في العهدين لم يسلم من تحريف المحرّفين.

ففـي رواية القرآن لقصص الأنبياء عليهم السلام لا يوجَد أيُّ موضوع يخالف العقلَ، والفطـرة، ولا يناسـب مقـام الأنبيـاء، في حين تزخـر الرِوايـات والقصص الموجودة فـي كتاب العهدين بهذه العيوب والنواقص، ويتبن ذلك من خلال المقارنة بين العهدين والقرآن الكريم في قصة آدم على سبيل المثال.

المفاهيم الرئيسة

- أعداء الإسلام لم يألوا جُهداً طيلة 15 قرناً من بدء ظهور الإسلام من توجيه الضربات إليه، ولكنّهم لم يَستطيعوا قطّ مقابلةَ القرآن الكريم، ومعارضته فقد عجزوا عن الإتيانِ حتى بآية قصيرة مثل آياته.
- في عصر نزول القرآن الكريم كان أوّلُ ما سَحَر عيونَ العرب، وحيّر أرباب البلاغة والفصاحة منهم جمال كلمات القرآن، وعجيب تركيبه، وتفوّق بيانه.
- إنّ القرآن الكريم بيّن في آيات مختلفة ومتعدّدة وفي مناسبات متنوّعة أسرارَ عالَم الخلق التي لم يَكُنْ لدى البَشَر أيُّ علم، ولا إلمام بها.
- إنّ القرآنَ الكريم أخبر عن طائفة من الحوادث والوقائع المستقبلية إخباراً قطعيّاً، وقد وقعت تلك الوقائع والحوادث فيما بعد بصورة دقيقة.
- إنّ القرآنَ الكريمَ جعل الفطرةَ الإنسانيّة الثابتة نُصب عَينيه وشرّع على أساسها قانونَه.
- إنّ الآتي بالقرآن الكريم كان شخصاً أُميّاً لم يدرُس، ولم يَتلقَّ تعليماً قبل النبوة، فلا هو دخل مدرسة أو كتّاباً، ولا هو تلمَّذ على أحد، أو قَرَأَ كتاباً كما قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أسئلة الدرس

1- اذكر آيتين من القرآن الكريم تشيران إلى إعجازه.
2- بيّن الإعجاز الأدبيّ في القرآن الكريم.
3- بيّن الإعجاز القرآنيّ في أسرار الكون والمستقبل.

القرآن الكريم كلّه حقّ

إنّ القرآن نور وتبيان، فمن أراد أن يعرف أنّه حقّ محض أو يتطرّفه البطلان (معاذ الله) فلا بدّ أن يرجع إليه، كما أنّه معجزة إلهيّة، والإعجاز يَلْقَفُ الباطل، سحراً كان أو غيره؛ لأنّ الحقّ نور ومعه لا مجال للظلام، كما أنّه لا مجال لليل إذا جاء النهار.

والذي يستفاد من هذا النور والتبيان بعد الرجوع إليه هو أنّه كتاب لا ريب فيه، وأنّه هدىً للناس بلا مرية، وأنّه يهدي للتي هي أقوم بلا شكّ، وأنّه شفاء ورحمة للمؤمنين بلا ترديد، وأنّه أنزل بالحق»أي مصحوباً بالحقّ، أو ملبوساً بلباسه، وأنّه لا عوج له وفيه، وأنّه مبارك إلى غير ذلك من النعوت الدالّة على صيانته عن شوب الخطأ، وشوْك السهو، ولَوْث الباطل، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾[1]، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]، ﴿قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾[3]، والدليل على كونه برهاناً ونوراً هو أنّ متكلّمه وقائله الله الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السماء، فهو عليم محض لا سبيل للجهل إلى علمه أصلاً، وما كان ربّك نسيّاً، فهو متذكّر صرف، لا مجال للسهو ولا للنسيان إليه أبداً.

والرسول الذي تلقّاه أتى به وبلّغه الناس، كريم، أمين، معصوم عن الدخل والتصرّف، وعن السهو والنسيان، كما أنّه منزّه عن العصيان ومبرّءٌ عن الافتراء.

(1) سورة الأحزاب، الآية 4.
(2) سورة فصّلت، الآية 42.
(3) سورة النساء، الآية 174.

فهو يدور مدار البرهان الذي أنزله الله، والحقّ الذي أرسله به بلا عَسَف ولا حيف، وبلا ضنّة ولا هوى، حيث قال الله سبحانه ووصَفَه ثبوتاً وسلباً بقضيّين كلّيّتين لا مجال معهما للترديد، ولا وقع معهما لأيّ ريب.

أمّا القضيّة الموجبة الكلّيّة، فهي مستفادة من قوله سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[1]، أي ليس ببخيل أصلاً في إبلاغ ما أوحي إليه، وغير شحيح أبداً في إعلام ما علّمه الله، ولا ضنّة له في إفشاء الغيب الذي أنزله إليه من المعارف الدينيّة، فجميع ما أوحي إليه برزَت منه ﷺ إلى الناس بلا استثناء شيء منه.

وأمّا القضيّة السالبة الكلّيّة فهي مستفادة من قوله سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[2]، أي لا يقول في الدين ولا ينطق فيه أصلاً ما ليس منه ولا فيه، ولا ينقل عن الله ما لم يوح إليه أبداً، ولا يُخبر عنه ما لم يُعَلّمه الله، ولا يحكي عنه ما لم يُؤمر بإبلاغه، وحيث إنّ القول في الدين ممّا لم يوح إليه هوىً - كائناً ما كان - فلا شيء ممّا لم يقل الله سبحانه بصادر منه فعلاً أو قولاً أو تقريراً؛ إذ النطق الديني أعمّ من التلفّظ اللساني؛ لأنّ المعصوم عليه السلام الذي جعله الله أسوة للناس وأمرهم بالاقتداء به تكون سيرته وسنّته حجّة دينيّة، سواء في ذلك القول والفعل والتقرير الذي هو صنف من الفعل.

(1) سورة التكوير، الآية 24.
(2) سورة النجم، الآيتان 3 و 4.



الدرس التاسع عشر

النبوّة (6)
صيانة القرآن من التحريف



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يوضّح ما هو المقصود من تحريف القرآن.
2. يذكر أدلّة عدم تحريف القرآن.
3. يبيّن الرّدود على الرّوايات الدالّة على تحريف القرآن.

الكتب السماوية الماضية والتحريف

إنّ الكتـبَ السماويّـة التـي عَرَضَها الأنبيـاء السابقون تعَرّضـت- وللأسف- من بعدهم للتحريف بالتدريج بسبـب الأغراض غير السليمة، وبسبب مواقف النفعيّين. ويشهَد بذلك - مضافاً إلى إخبار القرآنِ الكريم بذلك - شواهدُ تاريخيّة قاطعةٌ.

كمـا أنّ مطالعة نفس تلك الكتـب والتأمّل في محتوياتها مـن المواضيع تدلُّ على ذلك أيضاً، فإنّ هناك طائفة من المواضيع في هذه الكتب لا يمكن أن يؤيّدها الوحيُ الإلَهـيّ. هذا بغضّ النظـر عن أنّ الإنجيل الحاضر يحتوي في أكثره على حياة السيّد المسيح عليه السلام، وحتى صَلْبِه.

ولكن رغم وقـوع التحريفات الواضحة في الكتب السماويّـة السابقة، فإنّ القرآنَ الكريم بقي مصوناً من أيّ نوع من أنواع التحريف، والتغيير. فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ترك للبشريـة مـن بعده (مائةً وأربع عَشَرة) سورة قرآنيّة، كاملـة، وقد قام كُتّابُ الوَحي، وبالخُصوص الإمام عليّ عليه السلام بكتابة الوحي، وتدوينه منذ البداية، ولم ينقص من القـرآن الكريم، وسُوَره، وآياته شيءٌ قَطّ رغم مرور قرابة (15) قرناً على بدء نزول القرآن، كما لم يُزَد عليه شيءٌ أبداً.

أدلّة عدم تحريف القرآن الكريم

ونشير فيما يلي إلى بعض الأدلّة على عَدَم تحريف القرآنِ الكريم:

1. كيف يمكن أن يجدَ التحريفُ سبيلاً إلى القرآنِ الكريم، في حين أنّ الله تعالى تعهَّدَ صراحةً بحفظ القرآن، بنفسه إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

2. إنّ الله تعالى نفى تطرُّق أيِّ نوع من أنواع الباطل إلى القرآن الكريم مهما يكن مصدرُهُ، نفياً قاطعاً فقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2].

إنَّ الباطلَ الّذي يمكن أنْ يَتَطَرَّقَ إلى القرآن الكريم بصُوَرِه المختلفة، والذي قد نفاه الله تعالى نفياً قاطعاً، لا شكَّ هو الباطل الذي يوجب وَهْنَ القرآن الكريم، ويُضعفُ من مكانته ويَحُطُّ من مَنزلته، وحيث إنّ النَقْصَ من القُرآنِ الكريم، أو الزيادة في كلماته وألفاظه مما يوهن مكانة القرآن قطعاً، ويقيناً، ويَحطُّ من شأنه، لهذا لا يوجد أيّ لونٍ من ألوانِ الزيادة والنقص في القرآن الكريم أبَداً، ويقيناً.

3. إنّ التاريخ يشهدُ بأنَّ المسلمين كانوا يعتنون بالقرآن الكريم تعلّماً وتعليماً، قراءةً وحفظاً أشدّ الاعتناء، وكان العرب في عصر النبيّ الأكرم ﷺ يتمتّعون بحافظة قويّة وذاكرة حادّة بحيث إذا سمعوا خطبةً أو قصيدةً طويلةً مرةً واحدةً حَفظوها، وأتقنوها. وعلى هذا كيف يمكن أن يُقال أنّ كتاباً مثل هذا، مع كثرة قارئيه، ووفرة حافظيه والمعتنين به، تعرّض للتحريف، أو الزيادة والنقصان؟!.

(1) سورة الحجر، الآية 9.
(2) سورة فصلت، الآية 42.

4. لا شـكَّ فـي أنّ الإمـام أميرَ المؤمنيـن عليَّ بن أبي طالـب عليه السلام كان يختلف مـع الخلفاءِ، فـي بعض المسائل، وكان يُظهِرُ مخالفَتـهُ لهم في موارد مختلفة بِصُورة منطقيّة.

ولكنّـه لم يُسَمـعْ ولا مرّةً واحدةً بأنّـه عليه السلام تَحَدّثَ - ولا بِكلَمَـةٍ واحدةٍ - عن تحريـف القـرآن الكريم، طيلـة حياته. فـإذا كان هذا التحريـف قد حدث - والعياذ بـالله - لما سَكتَ عنه الإمام أميرُ المؤمنين عليه السلام ، بل - على العكس من ذلك- نجده عليه السلام يدعو إلى التأمُّل والتَدَبُّر في القرآنِ الكريم ومن ذلك قولـهُ: «**لَيْسَ لأحد بَعْد القُرآنِ من فاقَة ولا بَعْدَ القرآنِ من غنىً فكونوا من حَرَثَته وأتباعه**»[1].

وبالنظـر إلى هذه الأدلّة ونظائرها أكّدَ علمـاءُ الشيعة الإماميّة واتّباعاً لأهل البيـت عليهم السلام : منذ أقدم العصور الإسلاميّة، على صيانة القرآن الكريم من التحريف نذكر منهم:

أ. الفضـل بـن شـاذان (المتوفّـى 260 هـ ق) والـذي كان يعيش فـي عصـر الأئمة عليهم السلام : وذلك في كتاب الإيضاح 21.

ب. الشيخ الصدوق (المتوفّى 381 هـ ق) في كتاب الاعتقادات، 93.

ج. الشيـخ المفيـد (المتوفّـى 413 هـ ق) فـي كتاب أجوبـة المسائـل السرويّة، المطبوع ضمن مجموعة الرسائل ، 266.

د. السيّد المرتضى (المتوفّى 436 هـ. ق) في كتاب: جواب المسائل الطرابلسيات الذي نقل الشيخ الطبرسي كلامه فيه، في مقدمة تفسيره: مجمع البيان.

هـ. الشيـخ الطوسـيّ المعروف بشيـخ الطائفة (المتوفّى 460 هـ. ق) في كتاب: التبيان1-3.

(1) نهج البلاغة، الخطبة: 176.

و. الشيـخ الطبرسـيّ (المتوفّى 548 هـ. ق) في مقدمة كتابـه: «**مجمع البيان**»، حيث أكَّدَ فيها على عدم وقوع التحريف في القرآن الكريم.

ز. السيّد ابن طاووس (المتوفّى 664 هـ. ق) في كتاب: «**سعد السعود**،144» حيث يقول فيه: إن عدم التحريف هو رأي الإماميّة.

ح. العلامـة الحلّي (المتوفّـى 26 هـ. ق) في كتاب: «**أجوبـة المسائل المهنّائية**» حيـث يقول فيه: «**الحـقُّ أنّه لا تبديلَ ولا تأخير ولا تقديم فيـه، وأنّه لم يُزَد فيـه ولـم يُنْقص، ونعوذ بـالله تعالى مـن أن يُعتَقَـدَ مثلُ ذلـك، فإنّه يوجب التَطَـرُّق (أي تطـرّق الشَـكّ والوَهْـن) إلـى معجـزة الرسـول ﷺ المنقولة بالتّواتر**».

ونكتفـي بهذا القدر من أسماء علماء الإمامية المنكرين للتحريف، ونؤكّد على أنّ هـذا كان ولم يـزل اعتقاد عُلَماء الإمامية، ويتّضح ذلك مـن مراجعة ما كتبه ويقوله مراجع الشيعة في العصر الحاضر.

مناقشة الرّوايات الدالّة على تحريف القرآن وردّها

لقـد وَرَدَت في كتب الحديث، والتفسير، رواياتٌ يـدلُّ بعضُها على وُقوع التحريف في القرآن الكريم، ولكن يجب أن ننتبه إلى النقاط التالية:

أوّلاً: أنّ أكثـر هذه الروايـات نُقلَتْ بواسطة أفراد غير موثوق بهم وجاءت في كتب لا قيمة لها. مثل كتاب «**القراءات**» لأحمد بن محمّد السياري (المتوفّى 286 هـ. ق) الذي ضَعَّفَهُ علماءُ الرجـال وضعَّفوا رواياته، واعتبروه فاسد المذهب[1] أو كتاب علي بن أحمد الكوفي (المتوفّى 352 هـ ق) الذي قال عنه علماء الرجال بأنّه صار غالياً في أُخريات حياته[2].

(1) أنظر: معجم رجال الحديث للسيد الخوئي، 1413هـ- 1992م، ط5، ج3، ص71.
(2) م.ن، ج3، ص71.

ثانياً: بعض هـذه الروايات التي حُمِلَت على التحريف، لها جانـبُ التفسير، أي أنّها تفسّـر الآيـة، وتكون من قبيل تطبيـق المفاد الكليّ للآية علـى مصاديقه، أو أحد مصاديقـه. غير أنّ البعضَ تصوّر أنّ ذلك التفسير والتطبيق هو جزءٌ من القرآن الكريـم، وقد حُذِفَ، أو سقطَ من القـرآن الكريم. فمثلاً فُسرت لفظةُ «**الصراط المُستَقيـم**» فـي سـورة الحمد في الروايات بـ «**صراط النبـي وأهـل بيته**» ومن الواضـح جدّاً أنّ مثل هذا التفسير هو نوع من أنواع التطبيق الكليّ على المصداق الأكمـل[1]. ولقـد قَسَّـمَ الإمام الخمينـيّ قُدِّسَ سِرُّهُ؛ الروايـات التي فُهِـمَ منها وقوعُ التحريف في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

1. الروايات الضَعيفةُ التي لا يمكن الاستفادة منها والأخذ بها أبداً.
2. الروايات المختلَقَة التي تلوح عليها علائم الوضع والاختلاق.
3. الروايات الصحيحة التي لو تأمَّلْنا فيها بدقّة لاتّضح أنّ المقصودَ منها ليس هو التحريـف اللَفظيّ (أي الزيادة والنقصان اللفْظيّ) بل هو التحريف المعنوي، أي التفسير الخاطىء للآيات الشريفة، مثال على ذلك قوله تعالى ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾[2] والتي بها استدل الخوارج على نفي ولاية أمير المؤمنين علي عَلَيْهِ السَّلَامُ جهلاً منهم بحقيقة تأويلها وتفسيرها[3].

ثالثاً: إنّ الواجـب على الذيـن يريدون التعرّف علـى المعتقد الواقعـي لأتباع مذهب مـن المذاهـب، أنْ يرجعوا إلى الكتب الاعتقاديّة والعلميـة لذلك المذهب، لا الكتب الحديثيـة (أي التي تضـم الأحاديث والأخبار) التي يَهتَـمُّ مؤلّفها في الأغلب بجمع

(1) الطبرسي، مجمع البيان، بيروت- لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1415هـ- 1995م، ج1، ص 66.

(2) سورة الأنعام، الآية 57.

(3) مـن كلام للإمـام علي عَلَيْهِ السَّلَامُ في الخوارج لما سمع قولهم: لا حكـم إلا لله؛ قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَـمْ إِنَّـهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلّٰه، ولَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَا إِمْرَةَ إِلَّا لِلّٰه، وإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي إِمْرَتِهِ الْمُؤْمِـنُ، ويَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، ويُبَلِّغُ اللّٰهُ فِيهَـا الْأَجَلَ ويُجْمَعُ بِهِ الْفَيْءُ، ويُقَاتَلُ بِهِ الْعَدُوُّ وتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ، ويُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ ويُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ» نهج البلاغة، خطبة: 40.

الأحاديث وتدوينها، تاركاً التحقيق فيها، والاستفادة منها للآخرين. كما أنّه لا يكفي لمعرفة المعتقد الحقيقيّ والمسَلَّم لأي مذهَب من المذاهب، الرجوعُ إلى الآراء الشاذّة التي طَرَحَها أو يطرحُها أفرادٌ من أتباع ذلك المذهب.

وأساساً لا يمكن الاستناد إلى قولِ فرد أو فردين في مقابل رأي الأكثريّة القاطعة والساحقة من عُلَماء المذهب وجعله ملاكاً صحيحاً للحُكم على ذلك المَذهَب. وفي خاتمة البحث عن التحريف من الضَروريّ أنْ نُذَكّرَ بعدة نقَاط هي:

1. إنّ اتّهام بعض المذاهب الإسلامية البعضَ الآخر بتحريف القرآن وخاصّة في العصر الحاضر لا يستفيد منهُ سوى أعداء الإسلام، وخصومه، ومناوئيه.
2. إذا أقدَمَ أحدُ علماء الإمامية إلى كتابة كتاب حولَ تحريف القرآن، وجب أن نعتبر ذلك رأيه الشخصيّ وليس رأيَ الأكثريّة الساحقة من علماء الإمامية.

ولهذا نرى أنّه أقدم علماءُ كثيرون من الإمامية إلى كتابة ردود عديدة على ذلك الكتاب. تماماً كما حَدَثَ في أوساط أهل السنة حيث أقدمَ أحدُ علماء مصر على تأليف كتاب في تحريف القرآن باسم «**الفرقان**» عام 1345 هـ. ق، فَرَدَّ عليه علماءُ الأزهر، وأمَرُوا بمصادَرَته.

3. إنّ من العجيب جداً أن يحمل بَعْضُ المغرضين الذين أيسوا من الأساليب الأخرى، كلّ هذه التصريحات القاطعة من قِبَل علماء الشيعة الإماميّة بعدم تحريف القرآن الكريم على «**التقيّة**»!!.

فإنّه يقال لهؤلاء بأنّ «**التقية**» ترتبط بأحوال شخص يكون في ظروف الخوف والخطر، وهؤلاء العلماء الكبار لم يكونوا يخافون أحداً حتّى يضطرّوا إلى ممارسة «**التقيّة**».

ثم إنّ هذه الكتب قد ألّفها علماءُ الإمامية ـ في الأساس ـ لأتباع المذهب الشيعيّ، والهدف منها هو تعليم عقائد الشيعة لأتباع ذلك المذهب، ولهذا فإنّ من الطبيعي أنْ تحتوي هذه الكتُبُ على العَقائِد الحقيقية.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ الكتبَ السماويّة التي عَرَضَها الأنبياء السابقون تعَرّضت للتحريف.
- أدلّة عدم تحريف القرآن الكريم:

1. تعهَّـدَ الله تعالى صراحـةً بحفظ القرآن، بنفسـهِ إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.
2. نفـى الله تعالى تطـرُّق أيِّ نوعٍ من أنواع الباطل إلـى القرآن الكريم مهما يكن مصدرُهُ، نفياً قاطعاً.
3. إنّ التاريخ يشهدُ بأنَّ المسلمين كانوا يعتنون بالقرآن الكريم تعلّماً وتعليماً، قراءةً وحفظاً أشدّ الاعتناء.

- قَسَّـمَ الإمـام الخمينيّ قدس سره؛ الروايـاتِ التي فُهِمَ منها وقـوعُ التحريف في القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

1. الروايات الضَعيفةُ التي لا يمكن الأستفادة منها والأخذ بها أبداً.
2. الروايات المختلَقَة التي تلوح عليها علائم الوضع والاختلاق.
3. الروايـات الصحيحة التي لـو تأمَّلْنا فيها بدقّة لاتّضـح أنّ المقصودَ منها ليس هو التحريف اللَفظيّ (أي الزيادة والنقصان اللفظِيّ) بل هو تحريف حقائقها ومفاهيمها.

أسئلة الدرس

1- كيف يمكن الاستدلال على عدم تحريف القرآن من خلال آية: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؟

2- اذكر أسماء ثلاثة من علماء الشيعة ينكرون وقوع التحرف في القرآن الكريم.

3- كيف تمت مناقشة الروايات التي تشير إلى تحريف القرآن الكريم؟

أوصاف القرآن والنّجاة به

عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

أيّها الناس! إنّكم في دار هدنة[1]، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار والشمس والقمر يبليان كلّ جديد، ويقرّبان كلّ بعيد، ويأتيان بكلّ موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز.

قال: فقام المقداد بن الأسود، فقال: يا رسول الله! وما دار الهدنة؟

قال: دار بلاغ وانقطاع، فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن، فإنّه شافع مشفّع، وماحل مصدّق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم، وعلى نجومه نجوم، لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجل جال بصره، وليبلغ الصفة نظره، ينج من عطب[2] ويتخلّص من نشب[3]، فإنّ التفكّر حياة قلب البصر، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص»[4].

(1) الهدنة: السكون، الصلح بين المسلمين والكفّار وبين كلّ متحاربين، مجمع البحرين، ج4: ص413 (هدن).
(2) العطب: الهلاك. مجمع البحرين، ج3: ص201 (عطب).
(3) نشب في الشيء إذا وقع فيما لا مخلّص له منه. مجمع البحرين، ج4: ص312 (نشب).
(4) الكليني، الكافي، ج2، ص 598، ح 2.



الدرس العشرون

النبوّة (7)

خصائصُ نُبُوّةِ الرسول الأكرم ﷺ



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن عالميّة الدّين الإسلاميّ.
2. يشرح مسألة كمال الدين الإسلامي وسرّ خلوده.
3. يبيّن مظاهر السهولة والاعتدال في الدين الإسلامي.

مقدّمة

حيث إنّ نبوّة النبيّ محمّد ﷺ نبوة خاتمة لا نبوة بعدها، فقد تميّزت عن نبوّة الأنبياء السابقين له ﷺ بخصائص معيّنة نظرًا للأهداف المنشودة منها، وكان لتلك الخصوصيات تأثير كبير على نشر الديانة الإسلامية في المجتمع البشري بسرعة عالية، وعلى رقعة واسعة من العالم مع كل المصاعب التي كانت وما زالت تحيط بها. إنّ لدَعوة النبيّ الأكرم ﷺ خصائصَ، أهمُّها أربعة أُمور، وهي:

عالمية دعوة النبي الأكرم ﷺ ورسالته

إنّ دعوةَ النبيّ الأكرم ونبوَّته ورسالَتهُ، عالميةٌ، ولا تختصُّ بقوم دون قوم، ومنطقة دون أُخرى. كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾[1]. ويقول أيضاً: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]. من هنا نرى كيف أنّه كانَ يستفيدُ في دعوته من لفظة (النّاس) وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴾[3].

نعم عندما بدأَ النبيُّ الأكرمُ دعوَته كان طبيعيّاً أنْ ينذرَ قومَه في المرحلة الأولى، ويوجّه خطابه إلى قومه لينذرَ قوماً لم يُنذَرُوا من قبل: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ

(1) سورة سبأ، الآية 28.
(2) سورة الأنبياء، الآية107.
(3) سورة النساء، الآية 170.

مِّن قَبْلِكَ ﴾[1]. ولكـن هـذا لم يكن ليعنـي أنَّ مجالَ رسالته محـدودٌ بجماعةٍ خاصةٍ، وإرشادِ قومٍ خاصّين.

ولهـذا السبـب نرى القرآنَ - أحيانـاً - في الوقت الذي يوجّـه دعوته إلى جماعة خاصّة، يعمد فوراً إلى اعتبار دعوته تلك حجةً على كلّ الذين يمكن أن تبلغَهُمْ دعوتُه. إذ يقول: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[2].

إنّ منَ البديهيّ أنّ على الأنبياء أنْ يَبدأوا أقوامَهم في البداية سواء أكانت دعوتهم عالميّة، أم محلّية.

وهذا هـو القرآنُ الكريم يُذَكّرُ بهذه الحقيقة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[3].

إنّ نبيّ الإسلام ﷺ خاتم الأنبياء

إنّ نبـوّة رسول الإسلام ﷺ نبوّةٌ خاتمةٌ، كمـا أنّ شريعته كذلك خاتمةُ الشرائع، وكتابـهُ خاتمُ الكتب أيضاً. يعني أنّـه لا نبيَّ بعدَه، وأنّ شريعَتَه خالدةٌ، وباقيةٌ إلى يوم القيامة.

ونحنُ نستفيدُ من خاتميّة نبوّته أمرين:

1. إنّ الإسلام ناسخٌ لجميع الشرائعِ السابقة، فلا مكانَ لتلك الشرائعِ بعد مجيء الشريعةِ الإسلاميةِ.
2. إنّـه لا وجـودَ لشَريعة سماوية فـي المستقبل، وادّعاء أي شريعـة بعد الشريعة الإسلامية أمرٌ مرفوضٌ.

(1) سورة السجدة، الآية 3.
(2) سورة الانعام، الآية 19.
(3) سورة إبراهيم، الآية 4.

إنّ مسألــة الخاتميّة طُرحت – في القرآن والأحاديــث الإسلامية – بشكلٍ واضحٍ، بحيث لا تترك مجالاً للشك لأحد.

وفيمــا يأتي نشيرُ إلى بعضها في هــذا المجال: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1]. والخاتَم هو ما يوضع في الإصبع من الحُليّ، وكان في عصر الرسالة يُختَم بفصّه على الرسائل، والمعاهدات، ليكونَ آيةً على انتهاءِ المكتوب.

وفي ضوء هذا البيان يكون مفاد الآية هو أنّ كتابَ النبوّات والرسالات خُتم بمجيء رسول الإسلام فلا نبيَّ بعدَه، كما يُختَمُ الكتاب بالخاتَم، فلا كلامَ بعدَه.

علــى أنّ لفظَ الرسالة حيث إنّه ينطوي على معنى إبــلاغ أشياء (الرسالة) يتلّقاها النبي عن طريق الوحي (النبوة)، لهذا فإنّ من الطبيعي أنْ لا تكونَ الرسالة الإلهيّة من دون نبوّة، فيكون ختم النبوات ملازماً في المآل لختم الرسالات. ثم إنّ في هذا المجال أحاديث وروايات متنوّعة، وعديدة، نكتفي بذكر واحد منها وهو حديثُ «**المنزلة**».

فعندما كان رسولُ الإسلام ﷺ يريد أن يتهيّأ لغزوة تبوك، خلّف الإمام عليّاً عليه السلام فــي المدينة وقال له: «**أما ترضى أنْ تكونَ منّي بمَنزلة هارونَ من مُوسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بَعدي**»[2]. هذا وثمَّت مجموعةٌ من الأحاديث المتواترة إجمالاً ترتبط بالخاتميّة عدا حديث «**المنزلة**» المتواتر نُقِلَت ورُوِيت في الكتب.

كمال الدين الإسلامي

إن سرَّ خلودِ الشريعة الإسلامية يَكْمُنُ في أمرين:

الأول: إنّ الشَريعــة الإسلاميــة تُقَــدّمُ لضمــان وتحقيــق حاجــة البَشَــرِ الطبيعيّــة

(1) سورة الأحزاب الآية 40. لا تنحصر الآياتُ الدالّة على خاتميّة رسول الإسلام في هذه، بل هناك ستّ آيات قرآنيّة في هذا المجال تدلّ على خاتميته. راجع كتاب مفاهيم القرآن للشيخ السبحاني،:ج 3، ص 130 ـ 139.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج5، ص20.

والفطريّـة، الى الهدايات الإلهيّة، أكمل برنامج عُرِف بحيث لا يمكن تصوّر ما هو أفضل وأكمل منه.

الثانـي: بَيَّـنَ الإسلام فـي مجال الأحـكام العمليّة كذلـك سلسلةً من الأصـول والكليّات الجامعة والثابتة التي يمكنها أن تلبّي الحاجات البشرية المتجدّدة والمتنوعة أوّلاً بأوّل.

ويشهـد بذلك أنّ فُقَهاء الإسلام (وبالأخـص الشيعة منهم) قدّروا طوال القرون الأربعـة عشـر الماضية أنْ يلبُّـوا كلّ احتياجـات المجتمعات الإسلاميـة على صَعيد الأحـكام، ولم يَحْدُث إلى الآن أن عَجَزَ الفقْـهُ الإسلاميّ عنِ الإجابة على مُشكلةٍ في هذا المجال.

هذا والأمور التالية مفيدةٌ، ومؤثرةٌ في تحقيق هذه الغاية وهذا الهدف:

1. **حجّيّة العقل:**

إنّ اعتبار العقل، ومنحه الحجية، والقيمة المناسبة في المجالات التي يقدر فيها على الحكم والقضاء، هو إحدى طرق استِنْباط وظائِف البشر في الحياة.

2. **فتح باب الاجتهاد:**

إن فتـح باب الاجتهـاد في وجه الأمّـة الإسلامية ـ الذي يُعتبر مـن مفاخر الشيعة وامتيـازات التشيّـع ـ هـو الآخـرَ مـن الأسبـاب الضامنـة لخاتميّة الديـن الإسلاميّ واستمراريّته، لأنّه في ظلّ الاجتهاد الحيّ والمستمرّ يمكن استنباط أحكام الموضُوعات، والحوادث الجديدة، باستمرار، من القواعد والضوابط الإسلامية الكليّة.

السهولة والاعتدال

من خصائص الشَريعة الإسلاميّة «**الاعتدالُ**»، و«**سهولة درك المفاهيم والأحكام الإسلاميـة**»، وهـو أمر يمكـن أنْ يكون أحدَ أهَـمّ أسباب نفوذ هـذا الدين وانتشاره بيـن شعوب العالم المختلفـة. إنّ الإسلام يعرض – في مجـال معرفة اللّه – توحيداً

خالصـاً، وواضحاً، وبعيداً عن أيّ إيهام وتعقيد. فسورة «**التوحيد**» التي هي من سُوَر القرآن القصار، يمكن أنْ تكون خير شاهد على هذا الأمر.

كمـا أنّ القـرآنَ يُؤكّد في مجال مكانة الإنسان أيضاً على مَبـدأ التَّقوى الّذي هو شاملٌ لجميـع الخصال الأخلاقية، الرفيعة، والنبيلـة. وفي مجال الأحكام العملية نرى كذلك أنّ الإسـلام يَنفي أيَّ عُسْر وحَرَج، وقد وَصَفَ النبـيُّ نفسُهُ شريعَتَهُ بالسهولة والسَّماحة فقال ﷺ: «**لم يرسلني الله تعالى بالرهبانيّة، ولكن بعثني بالحنيفيّة السهلة السمحة...**»[1].

ورغـم أنَّ بعضَ المستشرقين بسبـب جهلهم أو عنادهم يـرون أنّ القوّة والسِّيف كان هـو السبب فـي انتشار الإسلام السريـع، والعريض في العالم، فَـإنّ المحقّقين المنصفيـن وغير المغرضين حتى من العلماء غير المسلمين يذعنُون- بكلّ صَراحة - أنَّ أهـمَّ عاملٍ لانتشار الإسـلام السريع، هو وضوح التعاليـم والأحكام الإسلامية وجامعيّتهـا. كما قال العالمُ الفرنسي المعـروف، الدُكتور «**غوستاف لوبون**» في هذا المجـال: إنّ رمزَ تقدّم الإسلام يكمن فـي سُهُولته. إنّ الإسلام منزّه عن الأمور التي يمتنعُ عن قبولها العقلُ السليم.

إنّنا مهما أمعنّا النظر وفكرنا فإنّنا لن نجد أبسط من أُصول الإسلام الذي يقول: اللّه واحـد، والناسُ أمامَ اللّه سواسيـة، والإنسان يحظى بالجنـة والسعادة بالإتيان بعـدّة فرائض دينيّة، ويقـع بالإعراض عنها في جهنم. إنّ وضـوح الإسلام وتعاليمه وبساطتها هذه ساعدت كثيراً على تقدّم هذا الدين في العالم.

والأهم من هذا، ذلك الإيمان الراسخُ الذي صَبَّه وأوجدَه في القلوب، إنّه إيمانٌ لا تقدر أيّةُ شُبْهة على اقتلاعه. إنّ الإسلام كما أنّه يكون أنسبَ من أيّ دين آخر، وأكثره ملائمـةً مع المكتشفات العلمية. كذلك هو في مجال حمل الناس على العفو والصفح أكبر دين يستطيع أنّ يتولّى مهمة تهذيب النفوس والأخلاق[2].

(1) الكليني ، الكافي، ج5، ص494.

(2) حضارة العرب تأليف غوستاف لوبون.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ لِدَعوة النبيّ الأكرم ﷺ خصائصَ أهمُّها أربعة أُمور، وهي:

الأولى: عالمية دعوة النبي الأكرم ﷺ ورسالته.

الثانية: كمال الدين الإسلامي.

الثالثة: السهولة والاعتدال من خصائص الشريعة الإسلامية.

- إنّ دعوةَ النبيّ الأكرم ﷺ ونبوَّتَه ورسالَتَهُ، عالميةٌ، ولا تختصُّ بقوم دون قوم.
- إنّ نبـوّة رسـول الإسـلام ﷺ نبـوّةٌ خاتمـةٌ، كمـا أنّ شريعته كذلـك خاتمةُ الشرائع، وكتابهُ خاتمُ الكتب.
- إن سرَّ خلودِ الشريعة الإسلامية يَكْمُنُ في أمرين:

1. إنّ الشَريعة الإسلامية تُقَدّمُ لضمان وتحقيق حاجة البَشَرِ الطبيعيّة والفطريّة، أكمل برنامج عُرِف بحيث لا يمكن تصوّر ما هو أفضل وأكمل منه.
2. بَيَّـنَ الإسلام في مجال الأحـكام العمليّة كذلك سلسلةً مـن الأصول والكليّات الجامعـة والثابتة التي يمكنها أن تلبّي الحاجاتِ البشريةِ المتجدّدةِ والمتنوّعة أوّلاً بأوّل.

- مـن خصائـص الشَّريعة الإسلاميّـة «**الاعتـدالُ**»، و«سهولـة درك المفاهيم والأحكام الإسلامية».

أسئلة الدرس

1- كيف بيّن القرآن الكريم عالميّة نبوة النبي الأكرم ﷺ؟

2- ما الذي نستفيده من القول بخاتميّة نبوّة النبيّ محمّد ﷺ؟

3- بيّن ما هي الأمور التي تشير إلى سهولة الدين الإسلامي واعتداله.

النبي ﷺ خاتم الأنبياء

عن عباية بن ربعي الأسدي، قال: دخلت على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وأنا خامس خمسة وأصغر القوم سنّاً، فسمعته يقول: حدّثني أخي رسول الله ﷺ أنّه قال: إنّي خاتم ألف نبيّ وإنّك خاتم ألف وصيّ.

وكلّفت ما لم يكلّفوا، فقلت: ما أنصفك القوم: يا أمير المؤمنين! فقال: ليس حيث تذهب بك المذاهب يا ابن أخي! والله! إنّي لأعلم ألف كلمة لا يعلمها غيري وغير محمّد ﷺ، وإنّهم ليقرءون منها آية في كتاب الله عزّ وجلّ وهي: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1] وما يتدبّرونها حقّ تدبّرها.

ألا أخبركم بآخر ملك بني فلان؟

قلنا: بلى، يا أمير المؤمنين! قال: قتل نفس حرام، في يوم حرام، في بلد حرام، عن قوم من قريش والذي فلق الحبّة! وبرأ النسمة! ما لهم ملك بعده غير خمس عشرة ليلة، قلنا: هل قبل هذا أو بعده من شيء؟

فقال: صيحة في شهر رمضان تفزع اليقظان، وتوقظ النائم، وتخرج الفتاة من خدرها[2].

(1) سورة النمل، الآية 82.

(2) النعماني، الغيبة، تحقيق: فارس كريم، منشورات أنوار الهدى، قم- إيران، 1422هـ، ص 267، ح 17.

الدرس الواحد والعشرون

الإمامة (1)
دور الإمامة وضرورتها

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن ضرورة الإمامة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.
2. يوضح معنى كلمة الشيعة اصطلاحًا.
3. يلخِّص وظائف الإمام بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

مقدّمة

لَقَـدْ رَحَلَ النبيُّ الأكرمُ محمّد ﷺ في مطلع العام الحادي عشر الهجري بعد أنْ اجتهد طوال 23 سنة في إبلاغ الشريعة الإسلامية.

ومـع رحيل النبيّ الأكرم ﷺ انقطعَ الوحيُ، وانتهت النُبوَّةُ، فلم يكن نبيٌّ بعده ولا شريعةٌ بعد شريعته، إلاّ أنّ الوظائف والتكاليف التي كانت على عاتق النبيّ محمّد ﷺ (ما عدا مسألة تلقّي الوحي وإبلاغه) لم تنته حتماً.

ولهـذا كان يجب أن يكونَ بعد وفاته شخصيةٌ بمستـوى شخصيته واعيةٌ وصالحةٌ تواصل القيـام بتلك الوظائف والمهام وتقود المسلميـن ويكون لهم إمامٌ خلافةً عن رسول الله ﷺ.

إنّ مسألة ضرورة وجود خليفة للنبيّ ﷺ موضعُ اتّفاق بين المسلمين، وإنْ اختلف الشيعة والسنة في بعض صفات ذلك الخليفة وطريقة تعيينه.

فلا بدّ في البداية مـن توضيح معنى «الشيعة» و «التشيع»، وتاريخ نشأته وظهوره، ليتسنّى بعد ذلك البحثُ في المسائل المتعلّقة بالإمامة والخلافة بعد رسول الله ﷺ.

الشيعة لغة واصطلاحاً

«**الشيعَـة**» في اللغة بمعنـى التابع، وفي الاصطلاح تُطلَقُ هـذه اللفظة أو التسمية على فريقٍ من المسلمين يعتقدون بأنّ قيادة الأمّة الإسلاميّة بعد وفاة رَسُول الله ﷺ هي من حقّ الإمام عليّ عليه السلام وأبنائه المعصومين.

وقد تَحَدّثَ النبيُّ الأكرمُ أيّام حياته عن فضائل الإمام عليّ عليه السلام ومناقبه، وكذا عن قيادته وزعامته للأمّة الإسلاميّة من بعده، مراراً وفي مناسبات مختلفة، بشهادة التاريخ المدوَّن.

إنّ هـذه التوصيات والتأكيدات تسبَّبت - كما تحدِّثُنـا الأحاديثُ الموثّقة - في أن يلتَـفَّ فريقٌ منَ الصحابة حـول الإمام عليّ عليه السلام في حياة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وتحبّه قلوبُهم، فتُعْرَف بشيعة عليّ عليه السلام.

ولقـد بقيت هذه الثُلّة من الصحابة على ولائها واعتقادها السابق بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دون أنْ تؤثـر المصالـحَ الفرديّةَ على تنصيص رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووصيَّته في مجال الخلافة وقيادة الأمّة من بعده.

وهكـذا سُمّيَـت جماعةٌ مـن المسلميـن في عصر رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبَعـد حياته الشريفـة بالشيعـة. وقـد صَرّحَ بهـذا جماعةٌ مـن المؤلّفين في الملـل والنحل. قال الشهرستاني: الشيعة هم الذين شايَعوا عليّاً على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصّاً ووصيّة[1].

وعلـى هذا الأساس فليس للشيعة تاريخ غير تاريخ الإسـلام وليس له مبدأ ظهور غيـر مبدأ ظهـور الإسلام نفسه، وفـي الحقيقة إنّ الإسـلام والتشيّع وَجْهـان لعُملة واحدة أو وَجهان لحقيقة واحدة، وتوأمان وُلدا في زَمَن واحد.

وقـد ذكر المحدّثون والمؤرّخون أنّ النبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم دعا في السَنَوات الأولى من دعوته بنـي هاشم، وجمعهم في بيتـه وأعلن فيهم عن خلافة علـيّ ووصايته (في ما يسمّى بحديـث بَـدء الدعـوة أو يوم الـدار) وأعلن عن ذلك للناس فيما بعد مكـرّراً، وفي مناسبـات مختلفة ومواقف متعـدّدة، وبخاصة في يوم الغدير، الّذي طرح فيه خلافة عليٍّ بصُورة رسميّة، وأخذَ البيعة من النّاس له وسيوافيك تفصيله.

(1) الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، بيروت- لبنان، دار المعرفة،ج 1 ص146.

إنّ التشيُّع ليس وليدَ حوادث السقيفة ولا فتنة مصرع عثمان، بل إنّ النبي الأكرم ﷺ هو الذي بذر بذرة التشيّع لأوّل مرة وغرس غرستها في قلوب الصحابة بتعاليمه السماوية المكرّرة.

ونمت تلك الغرسة فيما بعد شيئاً فشيئاً، وعُرف صحابةٌ كبارٌ كأبي ذرّ، وسلمان، والمقداد، باسم الشيعة. وقد ذكر المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾[1]. قول النبيّ ﷺ: «هُمْ عَلِيٌّ وَشِيْعَتُهُ»[2]. على أنّه لا تَسَعُ هذه الرسالةُ المختصرةُ لذكر أسماء الشيعة الأوائل من الصَّحابة، والتابعين الذين اعتَقَدُوا بخلافَته للنبيّ ﷺ بصورة مباشرة وبلا فصل.

إنّ التشيُّعَ بالمفهوم المذكور هو الوجه المشترك بين جميع الشيعة في العالم، والذين يشكّلون قِسماً عظيماً من مُسْلِمي العالم. ولقد كانَ للشيعة جنباً إلى جنب مع سائر المذاهب الإسلامية وعلى مدى التاريخ الإسلامي إسهامٌ عظيمٌ في نشر الإسلام، وقَدَّمُوا شخصيات علميّة وأَدَبيّة وسياسيّة جدّ عظيمة إلى المجتمع البشري ولهم حضور فاعل في أكثر نقاط العالم الراهن أيضاً.

ما هي وظائف الإمام بعد وفاة الرسول ﷺ؟

أشرنا في مطلع بحث الإمامة إلى أنّ خليفة النبي والإمام إنّما هو في نظر المسلمين من يقوم بوظائف رسول الله ﷺ التي من أبرزها:

1. تَبيين مفاهيم القُرآن الكَريم وحلّ مُعضلاته، وبيان مقاصده، وهذا هو من أبرز وظائف النبي ﷺ ويقول عنها القرآن الكريم: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾[3].

(1) سورة البيّنة، الآية 7.

(2) الحسكاني، شواهد التنزيل، تحقيق: محمد باقر المحمودي، قم- إيران، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية، 1411هـ-1990م، ج2، ص466.

(3) سورة النحل، الآية 44.

2. بيـانُ الأحكام الشرعية، فقد كانَ هذا العَمَل من وظائف النبيّ ﷺ حيث كان يقوم بذلك عن طريق تلاوة الآيات المتضمّنة للأحكام حيناً وعن طريق السّنة حيناً آخر. ثمَّ إنّ بَيان الأحكام من جانب النبيّ تم بصورة تدريجيّة، ومتزامناً مـع وقوع حوادثَ جديدة، وظهورِ احتياجات حديثـة في حياة الأمّة، ومثل هذا الأمـر يقتضي بطبيعته أن تستمر هذه الوظيفـةُ، لعدم انحصار الحاجات بما حدث في عصره ﷺ.

3. حيـث إنّ النبـيّ ﷺ كان محوراً للحـقّ، وكان بتعليماته، يمنـع من تطرّق أيّ انحـراف، وتسـرّب أيّ اعوجـاج فـي عقائد الأمّة، لهـذا لم يحـدث أيُّ تفرّق عقائديّ، وأي تشتُّت مذهبيّ في عَصره أو لم يكن هناك أرضية لظهور ذلك.

4. الإجابـة على الأسئلـة الدينيّة والاعتقادية، فقد كان هـذا العملُ هو الآخر من وظائف النبيّ ﷺ الهامَّة.

5. إقامـةُ القسط والعَدل والأمن العـامّ الشامل في المجتمـع الإسلاميّ، وظيفة أُخرى من وظائف النبيّ ﷺ.

6. حفظُ الثغور، والحدُود، والثروة الإسلاميّة تجاه الأعداء هو أيضاً من مسؤوليات النبيّ الأكرم ﷺ، ووظائفه.

مـن المُسَلَّم والقطعيّ أنّ القيامَ بهذه الوظائف وبالخصوص بيانُ مَفاهيم القرآن الكريـم الخفيّة، الغامضَة، وبيانُ أحكام الشَّرع و... يَحتاج إلى قائد واعٍ خبير، يكون موضعَ عناية الله الخاصّة، كما يكون في علمه صنوَ النبيّ ونظيرهُ، أيْ أنْ يكون حاملاً للعلـوم النَبَوّية ومَصُوناً من كل خطأ وزلل، ومعصومـاً من كلّ ذنب وخطل، ليستطيع القيـامَ بالوظائـف الجسيمة المذكورة، وليملأ الفراغ الـذي أحدثه غيابُ النبيّ ﷺ بسبب وفاته، في الظروف الزاخرة بالأحداث الحُلوة والمرَّة، وبالوقائع الحرجة.

إنّ مـن البديهـيّ أنّ تَشخيصَ مثلِ هذا الشخصِ، والمعرفة بـه لإيكال منصب

القيادة إليه، خارجٌ عن حدود علم الأمّة ونطاق معرفتها، ولا يمكن أن يتُمَّ بغير رسول الله ﷺ وبالأمـر الإلَهـيّ وتعيينهمـا إيّاه. ومـنَ الواضـح أيضاً أنّ تَحقُّـق الأهداف المذكـورة رهـنُ حماية النّاسـ، واستجابتهـم وإطاعتهـم للقائد المعيَّـن، بواسطة النبيّ ﷺ.

وهـذا جارٍ حتّى في القرآن الكريم والنبيّ الأكرم ﷺ نفسه، فإنّهما ما لم يُطاعا لا تتحقّق أهدافهما.

الإمامة مسألة عقليّة

قبـل أن نعمدَ إلـى استعراض وبيـان الأدلّة النقليّـة والشرعيّة في هـذا المجال، نستعرض حُكم العقل في هذه الحالة، آخذين بنظر الاعتبار ظروف تلك الفترة (أي فترة ما قبل وما بعد رحيل النبيّ)، وملابساتها.

إنَّ العقلَ البديهيَّ يحكم بأنّ أي إنسان مصلح إذا استطاع من خلال جهود مُضنية دامت سَنَوات عديدة، من تنفيذ أُطروحة اجتماعيّة خاصة له، وابتكر طريقة جديدة للمجتمع البشريّ فإنّه لا بدّ من أن يفكّر في وسيلة مؤثّرة للإبقاء على تلك الأطروحة، وضمـان استمرارها، بل رُشدها، ونموّها أيضاً، وليس من الحكمة أن يؤسّسَ شخصٌ مّـا بناءً عظيماً، متحمّلاً في ذلـك السبيل متاعبَ كثيرة، ولكن لا يفكّر فيما يقيه من الأخطار، ولا ينصب أحداً لصيانته والعناية به، من بعده.

إنَّ النبـيَّ الأكرم ﷺ، وهو من أكبـر الشخصيّات العالميّة في تاريخ البشريّة، قد أوجَـد ـ بمـا أتى من شريعة ـ أرضيّـةً مساعدةً لتحوّلٍ إلهيٍّ عالمـي كبير، ومَهَّدَ لقيام حضارة جدٌّ حديثة، وفريدة.

إنّ هـذه الشخصيّة العظيمة، التـي طَرَحَت على البشريّة شريعـةً خالدةً، وقادت المجتمـعَ البشريّ في عصرِه وأيـام حياته، من المسلَّم أنّه فَكَّـر لحفظ شريعته من الأخطـار والآفـات المحتملة التي تهدِّدها في المستقبل، وكـذا لهداية أُمّته الخالدة،

وإدارتهـا، وبيّن صيغة القيادة من بعده، وذلك لأنّه مـن غير المعقول أن يؤسّس هذا النبـيُ الحكيـمُ قواعدَ شريعةٍ خالـدةٍ أبديّة، دون أنْ يطرح صيغـة قويّة لقيادتها من بعده، يضمن بها بقاء تلك الشريعة.

إنَّ النبـيَّ الَّذي لم يألُ جُهداً في بيان أَصغـر ما تحتاج إليه سعادةُ البشرية، كيفَ يُعقَـل أنْ يسكـتَ في مجال قيـادة المجتمـع الإسلامي وصيغتهـا، وكيفيتها، والحال أنّهـا مـن المسائل الجوهريّة، والمصيريّـة، في حياة الأمّة، بل وفـي حياة البشريّة، وفـي الحقيقة يترك المجتمعَ الإسلاميَّ حيـارى مهمَلين، لا يَعرِفون واجبهم في هذا الصعيد؟!

الإمامة والخطر الثلاثي

إنّ مراجعةَ التاريخ، وأخذ الظروف التي كانت تحيط بالمنطقة، وبالعالم في زمان رحيـل النبـي صلى الله عليه وآله وسلم وقُبَيل وفاته بالذات بنظر الاعتبار تثبـت. بوُضوح بداهة وضرورةَ النصّ علـى منصب الإمامة، وذلـك لأنّ أخطاراً ثلاثـة كانت تهدّد الديـنَ والكيانَ الإسلاميَّ، وتحيط به على شكل مُثَلّث مَشؤُوم.

الضلعُ الأوَّل: من هذا المثلَّث الخَطِر كان يتمثَّل في الإمبراطورية الروميّة.

والضلع الثاني: كانَ يَتمثّل في الإمبراطوريّة الفارسيّة.

والضلعُ الثالث: كان يَتَمثَّل في فريق المنافقين الداخليّين.

وبالنسبـة لخَطَـر الضلع الأوّل، وأهميّته القُصْوى يكفـي أن نعلمَ أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يزل يفكّر فيه حتى آخر لحظة من حياته، ولهذا جهّزَ ـ قُبَيل أيّام بل ساعات من وفاته ـ جيشـاً عظيمـاً بقيادة «**أسامة بن زيـد**» وبَعَثَه لمواجهة الروم، كمـا ولَعَنَ مَن تَخلَّفَ عنه أيضاً.

وبالنسبـة لخطَـر الضلع الثاني يكفـي أن نعرفَ أنّه كان عَدُوّاً شرسـاً أيضاً أقدمَ

على تمزيق رسالة النبيّ ﷺ وكتب إلى حاكم اليمن بأنْ يقبضَ على رسولِ اللّه ﷺ، ويبعث به إليه، أو يرسلَ إليه برأسه.

وبالتالي بالنسبة إلى الخَطَر الثالث يجب أن نعلمَ أنّ هذا الفريق (أي المنافقين) كان يقوم في المدينة بمزاحمة النبي ﷺ باستمرار وكان المنافقون هؤلاء يؤذونه بالمؤامرات المتنوِّعة، ويعرقلون حركته، وقد تحدّث القرآنُ الكريمُ عنهم وعن خصالهم، ونفاقهم، وأذاهم، ومحاولاتهم الخبيثة في سوره المختلفة إلى درجة انّه سمّيت سورة كاملة باسمهم، وهي تتحدّث عنهم وعن نواياهم وأعمالهم الشرّيرة.

والآن نطرحُ هذا السؤالَ وهو: هل مع وجود هذا المثلَّث الخَطِر كانَ من الصحيح أنْ يترك النبيُّ الأكرمُ ﷺ الأمّة الإسلامية، والدينَ الإسلاميَ اللّذَين كانا محاطَين بالأخطار من كلّ جانب، وكان الأعداءُ لهما بالمرصاد من كلّ ناحية، من دونِ قائدٍ معيّن؟!!

إنّ النبيَّ ﷺ ولا شكَّ كانَ يَعْلَم أن حياةَ العرب حياة قَبَليّة عشائرية، وأنّ أفرادَ هذه القبائل كانَتْ مُتَعَصبّة لرؤساء تلك القبائل، فهم كانوا يطيعون الرؤساء بشدّة، ويخضَعُون لَهُمْ خضوعاً كبيراً، ولهذا فإنَّ ترك مثل هذا المجتمع من دون نصب قائدٍ معيّن سوف يؤدّي إلى التشتّت والتنازع بين هذه القبائل، وسيستفيد الأعداء من هذا التخاصُم والتَنازع، والاختلاف.

وانطلاقاً من هذه الحقيقة قال الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا: «الاستخلاف بالنصّ أصوب، فإنّ ذلك لا يؤدّي إلى التشعّب والتشاغب والاختلاف»[1].

(1) ابن سينا، الشفاء، الإلَهيات، تحقيق: الأب قنواتي وسعيد زايد، 1404هـ، منشورات مكتبة آية الله المرعشي، المقالة العاشرة، الفصل الخامس، ج2، ص452.

المفاهيم الرئيسة

- مع رحيل النبيّ الأكرم ﷺ انقطعَ الوحيُ، وانتهت النُبوَّةُ، فلم يكن نبيٌّ بعده ولا شريعةٌ بعد شريعته، إلاّ أنّ الوظائف والتكاليف التي كانت على عاتق النبيّ محمّد ﷺ لم تنته حتماً.
- إنّ مسألــة ضرورة وجود خليفة للنبــيّ ﷺ موضعُ اتّفاق بين المسلمين، وإنْ اختلف الشيعة والسنة في بعض صفات ذلك الخليفة وطريقة تعيينه.
- «**الشيعَة**» في اللغة بمعنى التابِع، وفي الاصطلاح تُطلَقُ هذه التسمية على من يعتقــدون بأنّ قيــادة الأمّة الإسلاميّــة بعد وفاةِ رَسُــول الله ﷺ هي من حق الإمام عليّ عليه السلام وأبنائه المعصومين.
- أبرز الوظائف التي على الإمام هي:

1. تَبيين مفاهيم القُرآن الكَريم وحلّ مُعضلاته، وبيان مقاصده.
2. بيانُ الأحكام الشرعية.
3. منع الانحراف والتفرق العقائدي.
4. الإجابة على الأسئلة الدينيّة والاعتقادية.
5. إقامةُ القِسطِ والعَدل والأمن العامّ الشامل في المجتمع الإسلاميِّ.
6. حِفظُ الثغور، والحدُود، والثروة الإسلاميّة تجاه الأعداء.

أسئلة الدرس

1- ما هو المقصود بالتشيع لغةً واصطلاحًا.

2- كيف تثبت ضرورة الإمامة من خلال العقل؟

3- ما هي وظائف الإمام بعد النبيّ ﷺ؟

العلّة التي من أجلها يحتاج إلى النبيّ والإمام عليهما السلام

حدثنا محمد بن إبراهيم بن إسحاق الطالقاني رضي الله عنه قال: حدثنا عبد العزيز بن يحيى، قال: حدثنا المغيرة بن محمد، قال: حدثنا رجاء بن سلمة، عن عمرو ابن شمر، عن جابر بن يزيد الجعفي، قال: قلت لأبي جعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام: لأي شيء يحتاج إلى النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام؟ فقال: «**لبقاء العالم على صلاحه، وذلك أن الله عز وجل يرفع العذاب عن أهل الأرض إذا كان فيها نبيّ أو إمام، قال الله عز وجل:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[1] **وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: النجوم أمان لأهل السماء، وأهل بيتي أمان لأهل الأرض، فإذا ذهبت النجوم أتى أهل السماء ما يكرهون، وإذا ذهب أهل بيتي أتى أهل الأرض ما يكرهون، يعني بأهل بيته الأئمة الذين قرن الله عز وجل طاعتهم بطاعته، فقال:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2]**، وهم المعصومون المطهرون الذين لا يذنبون ولا يعصون، وهم المؤيدون الموفقون المسددون، بهم يرزق الله عباده، وبهم تعمر بلاده، وبهم ينزل القطر من السماء، وبهم يخرج بركات الأرض، وبهم يمهل أهل المعاصي ولا يعجل عليهم بالعقوبة والعذاب، لا يفارقهم روح القدس، ولا يفارقونه، ولا يفارقون القرآن، ولا يفارقهم، صلوات الله عليهم أجمعين**»[3].

(1) سورة الأنفال، الآية 33.
(2) سورة النساء، الآية 59.
(3) الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص187، ح1.



الدرس الثاني والعشرون

الإمامة (2)

الإمامة في الأحاديث الشريفة



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر النظريّتين المتعلّقتين في موقف النبيّ من الخلافة.
2. يعدّد الأحاديث التي ترد في ثبوت الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
3. يبيّن حديث الغدير بتفاصيله، وكيف استدلّ به على خلافة الإمام علي عليه السلام.

الإمام والخليفة في أحاديث الرسول ﷺ

والآن وَبعدَ أنْ ثَبَتَ أنَّ الحكمة الإلهية وحكمةَ النبيّ وعلمهُ كانا يقتَضيانِ بأن يتخذ موقفـاً مناسباً في مجـالِ القيادة الإسلاميّة من بَعده، فَلْنـرَ ماذا كانَ الموقف الذي اتخذه ﷺ في هذا الصعيد؟

هُناكَ نظريَّتان في هذا المَجال نُدرجُهُما هنا، ونعمَدُ إلى مناقشتهما:

النظريـة الأولـى: أنّ النبيّ ﷺ اختار بأمرِ الله تعالى شخصـاً مُمتازاً صالحاً لقيادة الأمّة الإسلاميّة، ونَصَبَهُ لخلافَته وأخبرَ النّاسَ بذلك.

النظرية الثانيّة: أنّ النبي ﷺ أوكَلَ اختيار القائد والخليفة من بعده إلى النّاس أنفسِهم، لينتَخبوا ـ هم بأنفسِهم ـ شخصاً لهذا المنصب.

والآن يجب أن نرى أيّة واحدة من النظريتين تُستفاد من الكتابِ والسُّنة والتاريخ؟

إنَّ الإمعانَ في حياة النبيّ ﷺ مُنذ أن كُلّف بتبليغ شريعته إلى أقربائه وعَشيرته، ثم الإعلان عن دعوته إلى النّاس كافّة، يفيد أن النبيّ ﷺ سلك طريق «التنصيص» فـي مسألة القيادة، والخلافة، مراراً، دون طريق «الإنتخاب الشعبيّ» وهذا الموضوع نثبتهُ من خلال الأمور التالية:

1. حديث يوم الدار:

بعد أن مضى ثلاثُ سَنَوات على اليوم الذي بُعِثَ فيه رسول الله ﷺ، كَلّفهُ اللهُ تعالى بأن يبلّغَ رسالَتَه لأبناءِ قَبيلته، وذلك عندما نَزَل قولهُ عز وجلّ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1].

فَجَمَع النبيُّ ﷺ رؤوسَ بني هاشم وقال: «**يا بني عبد المطّلب إنّي والله ما أعلمُ شابّاً في العَرَب جاء قومَه بأفضل ممّا قد جئتكم به إنيّ قد جئتكُم بخَير الدُنيا والآخرة وقد أمَرَنيَ اللهُ تعالى أنْ أدعوكم إليه فأيُّكم يؤازرني على هذا الأمر يكون أخي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم**»[2].

ولقد كرّر النبي ﷺ العبارة الأخيرة ثلاثَ مرّات، ولم يقمْ في كلّ تلك المرّات إلاّ الإمام علي عليه السلام، الّذي أعلَنَ عن استعداده في كلّ مرّة لمؤازرة النَبيّ ﷺ ونُصرته، وفي المرّة الثالثة قال النبيُّ ﷺ: «**إنَّ هذا أخي وَوَصيِّي وخَليفَتي فيكُمْ فَاسمَعوا لَه وأطيعُوا**»[3].

2. حَديثُ المَنْزلَة:

لَقد اعتبر النبيُّ ﷺ منزلةَ عليّ عليه السلام منه على غرارِ منزلة هارون من موسى عليه السلام، ولم يستثنِ من منازلِ ومراتبِ هارون من موسى إلاّ النبوّة حيث قال: «**يا عليّ أما ترضى أن تكونَ منّي بمنزلة هارونَ من مُوسى إلاّ أنّه لا نبيَّ بعدي**»[4] وهذا النفي والسَّلب هو في الحقيقة من باب «**السالبة بانتفاء الموضوع**». اذ لم تكن بعد رسولِ الله الخاتم ﷺ نبوّةٌ حتى يكونَ عليٌّ نبيّاً من بعده إذ بنُبُوَّة رسولِ الإسلام خُتمت النبوّات، وبشريعته خُتمت الشّرائع.

(1) سورة الشعراء، الآية 214.
(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج18، ص191.
(3) ابن حنبل، المسند، ج1، ص159.
(4) م.ن، ج3، ص32.

ولقد كانَ لهارون عليه السلام بنَصّ القرآنِ الكريم مقامُ «**النبوّة**»[1] و«**الخلافة**»[2] و«**الوزارة**»[3] في زمانِ النبي مُوسى عليه السلام، وقد أَثبتَ حديثُ «**المنزلة**» جميعَ هذه المناصب الثابتة لهارون للإمام عليّ عليه السلام ما عدا النُبُوَّة، على أنّه إذا لم يكن المقصودُ من هذا الحَديث هو إثباتُ جميعِ المناصبِ والمقاماتِ لعليّ إلاّ النبوَّة، لم يكنْ أيّة حاجة إلى استثناء النُبوّة.

3. حَديثُ السَّفينَة:

لقد شَبَّه النبيُّ الأكرمُ صلى الله عليه وآله وسلم أهلَ بيته بسَفينة النبيّ نوح عليه السلام الّتي من رَكبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق في الطوفانِ كما قال: «**ألا إنّ مَثَل أهل بيتي فيكم مَثلُ سَفينة نُوح في قومه مَن رَكبها نَجا، ومَن تَخلَّفَ عَنها غرق**»[4]. ونحنُ نَعلمُ أنّ سَفينة نوح عليه السلام كانت هي الملجأ الوحيد لنجاة الناس من الطوفان في ذلك الوقت.

وعلى هذا الأساس فإنّ أهلَ البيت النبويّ - وفقاً لحديث سفينة نوح- يُعتَبرُون الملجأ الوَحيد للأمّة للنجاة من الحوادث العصيبة والوقائع الخطيرة التي طالما تُؤدّي إلى انحراف البشرية وضلالها.

4. حديث «أمان الأمّة»:

لقدَ وَصَفَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أهل بيته بكونهم سَبَباً لوحدة المسلمين،وممّا يوجبُ ابتعادهم عن الاختلاف والتَشتّت وأماناً من الغَرق في بحر الفتنة، إذ قال: «**النجومُ أمانٌ لأهل الأرض من الغَرَق وأهلُ بَيتي أمانٌ من الاختلاف، فإذا خالَفتها قبيلةٌ**

(1) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ (سورة مريم، الآية 53).
(2) ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ (سورة الأعراف، الآية 142).
(3) ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (سورة طه، الآية 29).
(4) المجلسي، بحار الأنوار، ج23، ص126.

مِنَ العَرَب اختَلَفوا فصارُوا حزب إبليس»[1]. وبهذا شبّه النبيُّ ﷺ أهل بيته الكرام بالنجوم التي يقول عنها اللّه سبحانه: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[2].

5. حَديثُ الثَقَلَين:

إنّ حديثَ الثّقَلين مِنَ الأحاديث الإسلاميّة المتواترة، الّتي نَقَلها وَرَواها علماءُ الفريقين في كتبهم الحديثية. فقد خاطَبَ رسولُ اللّه ﷺ الأمّة الإسلامية قائلاً: **«إنّي تاركٌ فيكُم الثّقَلَيْن كتابَ اللّه وَعترَتي أهلَ بَيْتي ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بهما لَنْ تَضلُّوا أبَداً وإنّهما لَنْ يَفْتَرقا حَتى يَردا عَلَيَّ الحَوْضَ»**[3].

إنّ هذا الحديثَ، يُثبتُ - بوضوح - المرجَعيّة العلميّة لأهلِ البَيْت النَبَويّ جَنْباً إلى جنب مع القرآن الكريم، وَيُلزِمُ المُسلمين بأن يتمسَّكُوا - في الأمور الدينيّة - بأهل البيت إلى جانب القرآن الكريم، ويلتمسوا رأيهم. ولكنّ المؤسفَ جدّاً أن يَلتَمس فريقٌ من النّاس رأيَ كلّ أحد إلاّ رأيَ أهلِ البيت، ويطرقوا بابَ بَيْت كلّ أحد إلاّ باب بيتِ أهل البيت.

إنّ «**حديث الثقلين**» الذي يتفق على روايته الشيعةُ والسنةُ يمكنهُ أن يجمع جميع مسلمي العالم حول محور واحد، لأنّه إذا ما اختلفَ الفريقان في مَسألة تعيين الخليفة والقائد، والزعيم السياسي للأمّة بعد رسول اللّه ﷺ وكان لكلّ فريق نظريّته وآلَ الاستنباطُ التاريخيّ في هذا الصعيد إلى انقسام المسلمين إلى فريقين، فإنّه لا يوجَدُ هناك أيُّ دليلٍ للاختلاف في مرجَعيّة أهلِ البيت العلميّة، ويجب أن يكونوا - طِبقاً لحديث الثقلين المتَّفَق عليه - متفقين على كلمةٍ واحدةٍ.

(1) الحاكم النيسابوري، المستدرك، تحقيق: يوسف عبدالرحمن المرعشلي، ج3، ص 149.
(2) سورة النحل، الآية16.
(3) الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، دار الفكر للطباعة والنشر، 1403ه- 1983م، ط2، ج5، ص329، ح3876.

وأساساً كانت مرجعيَّة أهلِ البَيت العلميّة في عَصر الخُلَفاء لعليّ عليه السلام أيضاً، فقد كانوا يرجعون إليه عند الاختلاف في المسائل الدينيّة وكانت المشكلة تُحلُّ بواسطته. وفي الحقيقة منذُ أن عُزل أهلُ بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ساحة المرجَعيّة العلميّة ظهرَ التفرُّقُ والتشرذُمُ، وبرزت الفِرَقُ الكلاميّةُ المتعدّدةُ الواحدةُ تلو الأخرى.

6. حديث الغدير:

كان رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم - كما يبدو في الأحاديث السالفةُ - يعرّف بخليفته ووصيه تارةً بصورة كليّة، وأُخرى بصورة معيّنة، أي بذكر اسم الخليفة والوصيّ بحيث يمثّلُ كلُّ واحدٍ من تلك الأحاديث حجةً كاملةً وتامّةً لمن يطلبُ الحقيقة وهو شهيدٌ واعٍ. ولكن مع ذلك ولكي يُوصلَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم نداءَه إلى كلّ قاصٍ ودانٍ من المسلمين في ذلك اليوم، ويرفعَ كلّ إبهام وغموض، ويدفع كلّ شك أو تشكيك في هذا المجال، توقّفَ عند قُفوله ومراجَعَته من حجّة الوَداع في أرض تسمى بغدير خم، وأخبر من مَعَه من الحجيج بأنّه كُلِّف من جانب الله تعالى بأن يُبلِّغ رسالة إليهم، وهي رسالة تحكي عن القيام بأمرٍ جدّ عظيم، بحيث إذا لم يُبلِّغها يكون كأنّه لم يُبَلّغ شيئاً من رسالته كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1]، ثم رقى النبيُّ منبراً من أقتاب الإبل وحُدُوجها، وقال صلى الله عليه وآله وسلم مخاطباً الناس: «**يوشك أنْ أُدعى فأجيب فماذا أنتم قائلون؟**» قالوا: نَشهدُ أنّك قد بَلّغتَ ونَصحتَ وجَهَدتَ فجزاك الله خيراً.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ألَستم تَشهَدون أن لا إلَه إلاّ الله وأنّ محمّداً عَبدُه ورسولهُ وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها؟**»

قالوا: بَلى نَشْهدُ بذلك.

(1) سورة المائدة، الآية 67. أشار المحدّثون والمفسِّرون المُسلمون إلى نُزُول هذه الآية في حجّة الوداع، يومَ الغدير، أُنظر: كتابَ «الدرّ المنثور» للسيوطي ج2، ص 298 و «فتح القدير» للشوكاني ج2، ص57.

قـالَ ﷺ: «**فإنّي فَرَطٌ (أي أسبقكُم) علـى الحوض (أي الكوثر)، فَانظُرُوا كيفَ تَخلفوُني في الثّقَلَين؟**»

فنادى منـاد: وما الثّقَلان يا رَسولَ اللّه ؟

قـالَ ﷺ: «**الثّقَـلُ الأكبـر كتـابُ الله طَـرَفٌ بيد الله عـزَّ وجَـلَّ وطَـرَفٌ بأيديكُمْ فتمَسَّكُـوا بـه لا تَضلُّوا، والآخَر الأصغَـر عترتي، وإنّ اللطيفَ الخبيـرَ نبّأني أنَّهما لـنْ يفترقا حتـى يَردا عليَّ الحَوضَ، فـلا تقدمُوهُما فتَهلكـوا، ولا تقصِّروا عنْهما فَتَهْلَكُوا**».

ثـم أخـذ بيد عليّ عليه السلام فَرفَعها حتى رؤي بياضُ آباطهمـا فعرفَه القومُ أجمعون فقال ﷺ: «**أيُّها الناسُ من أولى النّاس بالمؤْمنين من أنفسِهم؟**»

قالوا: اللّه ورسولهُ أعلمُ.

قال ﷺ: «**إنّ اللّه مولايَ، وأنا مَولى المؤمنين، وأنا أولى بهِمْ من أنفسهِمْ، فَمَن كنتُ مَولاه فَعَليٌّ مولاهُ**».

ثم قال ﷺ: «**اللّهُمَّ والِ من والاهُ، وعاد من عاداهُ، وأحبَّ من أحَبَّهُ، وأبْغَضْ مَن أبْغَضَـهُ، وانْصُرْ مَـنْ نَصَرَهُ، واخْذُلْ من خَذَلهَ، وأدِرِ الحقَّ معه حيث دارَ، ألا فَلْيُبَلّغِ الشّاهدُ الغائبَ**»[1].

حديث الغدير من الأحاديث المتواترة

إنّ حديـثَ الغَدير مـنَ الأحاديـث المتَواترة، وقـد رَواهُ من الصَّحابـة والتابعين وعُلماءِ الحديث في كلّ قرنٍ بصورَةٍ متواترة.

فقـد نقل حديـثَ الغديـر ورواه (110) مـن الصحابـة، و (89) مـن التابعين،

(1) يراجع موسوعة الغدير، ج1،ج2، حيث أورد العلامة الأميني رواية الغدير بصيغها جميعاً، وذكر رواتها من السنّة والشيعة.

و(3500) من العلماء والمحدّثين، وفي ضوء هذا التواتر لا يبقى أيُّ مجالٍ للشّكِ في أصالة، وصحّة هذا الحديث.

كما أَنّ فريقاً من العُلَماء ألَّفوا كُتباً مستَقلّةً حولَ حديث «**الغدير**» أشْمَلُها وأكثرُها اسْتيعاباً لطُرق وأسناد هذا الحديث كتابُ «**الغدير**» للعلاّمة الشيخ عبد الحسين الأميني (1320 - 1390 هـ).

والآن يجب أن نَرى ما هو المقصود من لفظة «المولى» وماذا تَعني «مولويّة» عليّ عليه السلام؟

إنّ القرائن والشواهدَ الكثيرةَ والعديدةَ تشهد بأنَّ المقصودَ من هذه اللفظة، والكلمة هو: الزعامة والقيادة، وها نحن نشيرُ إلى بعض هذه الشَّواهد والقرائن:

1. في واقعة الغدير، أمَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنْ يحطَّ الحُجّاج الّذين كانوا يرجعون معه من الحج، في أرض قاحلةٍ لا ماء فيها، ولا كلأ، وفي وقتِ الزوال، وتحت أشعّة الشَّمس الحارقة.

   ولقد كانت حرارةُ الهَجير من الشدّة في ذلك الوَقت بحيث أنّ الشخص من الحاضرين في ذلك المشهد كان يضع بعض عباءته تحت رجليه وبعضها فوق رأسه تَوقّياً من شدّة الرَّمضاء، وحرارة الشّمس.

   من الطبيعي أن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يريد في هذه الحالة الخاصّة، أن يقول ما له دورٌ مصيريٌّ هامٌّ في هداية الأمّة.

   ترى أي شيء يمكنه أن يكون له دور مصيريٌّ وهامٌّ في حياة المسلمين أكثر من تعيين القيادة التي توجب وحدةَ كَلمة المسلمين، وتكونُ حافظة لدينهم.

2. لقد تحدّث رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل ذكر مسألة ولاية الإمام علي عليه السلام عَن أُصول الدين الثلاثة: التوحيد، والنبوّة، والمعاد، وأَخَذَ من الناس الإقرارَ بها، ثم طرَحَ مسألة ولاية الإمام علي عليه السلام بعد ذلك.

إنّ التقارن بين إبلاغ هذه الرسالة وأخذ الاعتراف والإقرار بالأصول المذكورة يمكن أن يقودنا إلى معرفة أهميّة الرسالة التي أَمَرَ النبيُّ بإبلاغها إلى النّاس في «**غدير خم**»، ويمكن معرفة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ما كانَ يقصُد من ذلك الاجتماع العظيم في تلك الظروف الاستثنائيّة والملابَسات الخاصّة التوصية فقط بمحبّة ومودّة شخصٍ معيّنٍ.

3. قبل إبلاغ الرِسّالة الإلهيّة في شأنِ عليٍّ عليه السلام تحدَّثَ النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم عن ولايَته ومولويَّته وقال: اللّه مولايَ وأنا مولى المُؤمنين، وأنا أولى بِهِمْ من أنفسِهِمْ.

إنّ ذكر هذه المطالب دليلٌ على أنّ مولويّةَ الإمام علي عليه السلام كانت من نمط وسنخ مولوية النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأنّ النبي أثبت بأمر اللّه تعالى مَولويّته وأولويّته بالأمر لعليّ أيضاً.

4. إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال بعد إبلاغ هذه الرسالة الإلهيّة: فَلْيبلّغِ الشاهدُ الغائبَ.

المفاهيم الرئيسة

- هُنـاكَ نظريَّتـان في الموقـف الذي اتخذه النبـيّ قبل وفاتـه بالنسبة لتعيين الخليفة بعده:

النظريـة الأولى: أنّ النبيّ ﷺ اختار بأمر الله تعالى شخصاً مُمتازاً صالحاً لقيادة الأمّة الإسلاميّة، ونَصَبَهُ لخلافَته وأَخبرَ النّاسَ بذلك.

النظريـة الثانيّـة: أنّ النبـي ﷺ أوكَلَ اختيار القائد والخليفـة من بعده إلى النّاس أنفسهم، لينتَخبوا شخصاً لهذا المنصب.

- النبـيّ ﷺ سلك طَريق «التنصيص» في مسألة القيـادة والخلافة، مراراً، دون طريـق «الانتخاب الشعبيّ» وهذا الموضوع نثبتهُ من خلال الأمور التالية: حديـث يوم الـدار، حَديـثُ المَنْزِلَة، حَديـثُ السَّفينَة، حديث «أمـان الأمّة»، حَديثُ الثقَلَين، حديث الغدير.
- إنّ حديـثَ الغَدير منَ الأحاديث المتَواتـرة، وقد رَواهُ من الصَّحابة والتابعين وعُلماءِ الحديث في كلّ قرن بصورَة متواترة.
- إنّ القرائن والشواهدَ الكثيرةَ والعديدةَ تشهدُ بأنَّ المقصود منَ لفظة المولى في حديث الغدير، هو: الزعامة والقيادة.
- لقـد تحـدّث رسـولُ الله ﷺ قبل ذكر مسألـة ولاية الإمـام علي عليه السلام عَن أُصول الدين الثلاثة: التوحيد، والنبوّة، والمعاد، وأَخَذَ من الناس الإقرارَ بها، ثم طرَحَ مسألة ولاية الإمام علي عليه السلام بعد ذلك.

أسئلة الدرس

1- هناك نظريتان في الموقف الذي اتخذه رسول الله ﷺ في تعيين الخليفة. ما هما؟

2- اذكر حديثًا يثبت مرجعيّة أهل البيت العلمية.

3- اذكر القرائن والشواهد التي تثبت أنّ كلمة مولى في حديث الغدير بمعنى الزعامة والقيادة.

الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام

عن زيد بن الجهم الهلالي، عن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: سمعته يقول: «لما نزلت ولاية عليّ بن أبي طالب عليه السلام وكان من قول رسول الله صلى الله عليه وآله: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين، فكان ممّا أكّد الله عليهما في ذلك اليوم يا زيد قول رسول الله صلى الله عليه وآله لهما: قوما فسلّما عليه بإمرة المؤمنين فقالا أمن الله أو من رسوله يا رسول الله؟ فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وآله: من الله ومن رسوله، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] يعني به قول رسول الله صلى الله عليه وآله لهما وقولهما أمن الله أو من رسوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ﴾[2] أئمة هي أزكى من أئمتكم، قال: قلت: جعلت فداك أئمة؟ قال: إي والله أئمة قلت: فإنا نقرأ أربى، فقال: ما أربى؟ وأومأ بيده فطرحها ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ (يعني بعلي عليه السلام) ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾[3] (يعني بعد مقالة رسول الله صلى الله عليه وآله في علي عليه السلام ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (يعني به علياً عليه السلام) ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»[4].

(1) سورة النحل، الآية 91.
(2) سورة النحل، الآية 92.
(3) سورة النحل، الآيات 92 – 94.
(4) الكليني، الكافي، ج1، ص292، ح1.

الدرس الثالث والعشرون

الإمامة (3)
عصمة الإمام

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن الدليل العقليّ على عصمة الأئمّة عليهم السلام.
2. يذكر بعض الآيات والأحاديث التي تدل على عصمتهم.
3. يبيّن طرق معرفة الإمام المعصوم.

عِصمَة الإمام وطرق معرفته

أثبتنا سابقًا أنّ الإمام والخليفة ليس قائداً عاديّاً، يقدر على إدارة دفّة البلاد اقتصادياً، وسياسيّاً، وحفظ ثغور البلاد الإسلامية تجاه الأعداء فقط، بل ثمّت وظائف أُخرى يجب أن يقومَ بها مضافاً إلى الوظائف المذكُورة في درس سابق.

إنّ القيام بهذه الوَظائف الخطيرة مثل تفسير القرآن الكَريم، وبَيان الأحكام الشرعيّة، والإجابة على أسئلة الناس الاعتقادية، والحيلولة دون تسرّب الانحراف إلى العقيدة، والتحريف إلى الشريعة، رهنُ علم واسع، لا يخطئ ولا يتطرّق إليه الاشتباهُ، والأشخاص العاديّون إذا تَوَلَّوا هذه الأمور لنْ يكونوا في مأمنٍ عن الخطأ والزلل.

على أنّه يجب أن نَعلمَ بأنّ العصمة لا تساوي النبوّة، ولا تلازمُها ولا تستلزمها، لأنّه ربما يكونُ الشخص معصوماً عن الخطأ ولكن لا يتمتع بمقام النبوة أي لا يكون نبياً.

وأوضحُ نموذج لذلك السيدةُ الزهراء عليها السلام والسيدة مريم العذراء عليها السلام التي مرّت الإشارةُ إلّى أدلّة عصمتهما، عند الحديث عن عصمة الأنبياء والرُّسُل[1]. ثم إنّ هناك ـ مضافاً إلى التحليل والاستدلال العقلي السابق ـ أُموراً تدلُّ على عصمةِ الإمام نذكر هنا بعضها:

(1) راجع كتاب الإلَهيّات، تأليف الشيخ السبحاني، بيروت- لبنان، دار الأميرة، 1427هـ- 2006م، ط7، ج2، ص146.198.

1. تعلّق إرادة الله القطعيّة والحتمية بطهارة أهل البيت عليهم السلام عن «**الرجس**» كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وإنّ دَلالَة هذه الآية على عصمة أهل البيت تكونُ على النحو التالي؛ إنّ تعلّق إرادة الله الخاصّة بطهارة أهل البيت من أي نوعٍ من أنواع الرّجس يلازمُ عصمَتهم من الذّنوب والمعاصي، لأنّ المقصودَ من تطهيرهم من «الرّجس» في الآية هو تطهيرهم من أيّ نوعٍ من أنواع القذارة الفكرية والرُّوحيَّة، والعَمَليّة التي من أبرزها المعاصي والذّنوب.

وحيث إنّ هذه الإرادة تعلّقَتْ بأفراد مخصوصين لا بجميع الأفراد، فإنّها تَختَلف عن إرادة التطهير التي تعَلّقت بالجميع بدونِ استثناء.

إن إرادةَ التَّطهير التي تَشملُ عامّة المسلمين إرادةٌ تشريعيةٌ[2] وما أكثر الموارد الّتي تتخلّف فيها هذه الإرادةُ، ولا تتحقق بسبب تمرّد الأشخاص، وعدم إطاعتهم للأوامر والنواهي الشرعية في حين أنّ هذه الإرادة إرادةٌ تكوينيّة لا يتخلّف فيها المرادُ والمتعلَّقُ (وهو العصمة عن الذَّنب والمعصية) عنها أبداً.

والجدير بالذكر أن تعلّق الإرادة التكوينيّة الإلهيّة بعصمة أهل البيت لا توجبُ سَلب الاختيار والحريّة عنهم تماماً كما لا يوجب تعلّق الإرادة التكوينيّة الإلهيّة بعصمة الأنبياء سلبَ الاختيار والحرية عن الأنبياء أيضاً (وقد جاءَ تفصيل هذا الموضوع في كتب العقائد).

2. إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام يمثّلون بحكم حديث الثقلين الذي قال فيه رسولُ الله: «**إني تاركٌ فيكمُ الثَّقَلَين كتابَ الله وعترتي**»[3] عِدلَ القرآن الكريم، يعني أنّه

(1) سورة الأحزاب، الآية 33.
(2) ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ سورة المائدة، الآية 6.
(3) الكليني، الكافي، ج2، ص414.

كما يكون القرآنُ الكريمُ مصوناً من أيّ لونٍ من ألوانِ الخطأ والاشتباه، كذلك يكون أئمة أهلِ البَيت مصونين من أيّ لونٍ من ألوانِ الخطأ الفكري، والعملي، ومعصومين من أيّ نوعٍ من أنواعِ الزَلَل والخَطَل. وهذا المطلب واضحٌ تمامَ الوضوح، إذا أمعنّا في العبارات التي جاءت في ذيلِ الحَديث المذكور:

أ. «**ما إنْ تَمَسَّكْتُمْ بهما لَنْ تَضلُّوا أَبَداً**»[1].

ب. «**إنَّهما لَنْ يَفْتَرِقا حَتّى يَرِدا عَلَيَّ الحَوضَ**»[2].

لأنّ ما يكون التمسُّكُ به موجباً للهداية وأنه لا يفترق عن القرآن (المصون والمعصوم) مَصُونٌ ومعصومٌ هو كذلك.

3. لقد شَبَّهَ رسولُ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أهلَ بيته بسفينة نوح التي ينجو من الغرق من رَكبها ويغرق في الأمواج من تخلّف عنها، إذ قال: «**إنّما مَثَلُ أهل بَيْتي كَسَفينَة نُوْح مَن رَكبَها نَجا وَمَنْ تخلَّفَ عَنها غَرِقَ**»[3]. وبالنّظَر إلى هذه الأدلّة الّتي بيّناها بصورة موجزة تكونُ عصمة أهل البيت واضحةً، وحقيقةً مبرهَناً عليها. ومن الجديرِ بالذّكر أنّ الأدلّة النَقليّة على عِصمة أهل البَيت: لا تنحصر في ما ذكرناه.

طرق معرفة الإمام

إنّ معرفةَ الإمام تُمكنُ من طريقين:

الأول: نَصُّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على إمامة شخصٍ خاص.

الثاني: نَصُّ الإمام المعصومِ السابق على الإمام اللاحق.

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص414.
(2) م.ن.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج23، ص126.

إنّ إمامــة الأئمــة الاثني عَشَــر ثَبَتت من خلال الطَريقيــن المذكورَين معاً أي عن طريــق نصّ النبي ﷺ حسب الرّوايــات المرويّة عنه ﷺ في هذا المجال. وكذا عن طريق الأئمة، حيث نصّ الإمام السابق على الإمام اللاحق.

ونحــن رِعايةً للاختصار نوردُ هنا حديثاً واحداً في هذا الصّعيد[1] يفيد أنّ النبيّ الأكــرم ﷺ لم يكتف بنَصب عليّ عليه السلام ، بل ذكر بأنّه سَيخلفهُ ﷺ اثنا عشر إماماً تتحقّق بهم عزةُ الإسلام إذ قال: «لا يَزالُ الدّين مَنيعاً إلى اثنَيْ عَشَر خَليفة»[2].

وقد وَرَدت هذه الأحاديث الدالة على وجود اثني عشر خليفة في أوثق صحاح أهل السنة أيضاً[3].

ومــن المُسلَّــم أنّ هؤلاء الخُلَفاء الاثنــي عشر الذين تتوقّف عليهــم عزّة الإسلام ومنعتــهُ ومضــاؤه، لا تنطبق صفاتهم إلاّ على أئمة الشيعة الاثني عَشَر إذ لم تكن تلك الأوصاف تتوفر في الخلفاء الأمويين ولا العباسيين قط.

وأئمة الشيعة الاثنا عشر هم:

1. أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب (المولود قبل البعثة بعشر سنوات والمستشهد عام 40 هجري) والمدفون في النجف الأشرف.
2. الإمام الحسَنُ بن علي (المجتبى) (3ـ50 هـ ق) المدفونُ في البقيع بالمدينة.
3. الإمام الحسين بن علي سيدُ الشهداء (4ـ61 هـ ق) المدفون في كربلاء.
4. الإمــام عليُّ بن الحسيــنُ بن علي زينُ العابديــن (38ـ94 هـ ق) المدفون في البقيع.

(1) للإطلاع على بقيّة الأحاديث في هذا المجال يراجع كتب الحديث مثل أُصول الكافي، كفاية الأثر، إثبات الهداة، ومنتخب الأثر، وغيرها.

(2) روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزال الدين قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة من قريش». المجلسي، مصدر سابق، ج36، ص297.

(3) صحيح البخاري،ج 9، ص81، باب الاستخلاف؛ وصحيح مسلم ج6، ص3، كتاب الامارة؛ ومسند أحمد ج5، ص86 ـ 108؛ ومستدرك الحاكم 3، 81.

5. الإمام محمّد بن علي باقرُ العلوم (5 ـ 114 هـ ق) المدفون في البقيع.

6. الإمام جعفرُ بنُ محمّد الصادقُ (83 ـ 148 هـ ق) المدفونُ في البقيع.

7. الإمـام موسـى بنُ جعفـر الكاظمُ (128 ـ 183 هـ. ق) المدفـونُ في الكاظمية قرب بغداد.

8. الإمام عليُّ بن موسى الرضا (148 ـ 203 هـ. ق) المدفونُ في خراسان بإيران.

9. الإمام محمّد بن علي الجوادُ (195 ـ 220 هـ ق) المدفونُ في الكاظمية.

10. الإمام عليُّ بن محمّد الهادي (212 ـ 254 هـ ق) المدفونُ في سامراء بشمال بغداد.

11. الإمام الحسنُ بنُ علي العسكريُ (233 ـ 260 هـ. ق) المدفونُ في سامراء.

12. الإمـام المهديِّ عجَّل الله فرجَه الشريف. وهـو الإمام الثاني عشر، وهو حيٌّ حتى يظهـر بأمر الله (طبقاً للوعودِ الواردة في القـرآنِ في سورة النور، الآية 54، وسورة التوبـة، الآية 33 وسورة الفتح، الآية 28، وسورة الصف، الآية 9) ويقيم الحكومة الإلهيّة على كلّ الكرة الأرضيّة[1].

ولقـد جـاءَت تفاصيلُ حياة أئمـة الشيعة الاثنـي عشر في كتب التاريـخ والسيرة وحيـث إنّ الإمـام الثاني عشر لا يزال حيّاً، ويتولّى منصبَ الإمامة بإرادة الله تعالى، لهذا سنَذكر نقاطاً حولَ هذا الإمام فيما بعد.

(1) قد وقع بعض الاختلاف في تواريخ وفيات ومواليد بعض الأئمّة وقد اخترنا أحدها. كما أنّ التاريخ يثبت أنّ هؤلاء الأئمّة قضوا شهداء.

المفاهيم الرئيسة

- هناك أُمور تدلُّ على عصمة الإمام نذكر هنا بعضها:

1. تعلّق إرادة الله القطعيّة والحتمية بطهارة أهل البيت عن «**الرجس**» كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.
2. إنّ أئمة أهل البيت: يمثّلون بحكم حديث الثقلين عدلَ القرآن الكريم، يعني أنّه كما يكون القرآنُ الكريمُ مصوناً من أيّ لونٍ من ألوانِ الخطأ والاشتباه، كذلك يكون أئمة أهلِ البَيت مصونين.
3. لقد شَبَّهَ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم أهلَ بيته بسفينة نوح التي ينجو من الغرق من رَكبها ويغرق في الأمواج من تخلّف عنها، إذ قال: «**إنّما مَثَلُ أهل بَيْتي كَسَفينَةِ نُوْحٍ مَن رَكبَها نَجا وَمَنْ تخلَّفَ عَنهَا غَرِقَ**».

- إنّ معرفةَ الإمام تُمكنُ من طريقين:

1. نَصُّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على إمامة شخصٍ خاصٍ.
2. نَصُّ الإمام المعصومِ السابق على الإمام اللاحق.

أسئلة الدرس

1- اذكر دليلاً عقليًّا على عصمة الإمام عليه السلام.

2- كيف نستدلّ على عصمة الإمام من خلال آية التطهير؟

3- ما هي طرق معرفة الإمام ؟

علم الأئمّة عليهم السلام

عن عبد الله بن جندب أنه كتب إليه الإمام الرضا عليه السلام: «**أما بعد، فإن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان أمين الله في خلقه فلما قبض صلى الله عليه وآله وسلم كنا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه، عندنا علم البلايا والمنايا، وأنساب العرب، ومولد الإسلام، وإنا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان، وحقيقة النفاق، وإن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام غيرنا وغيرهم، نحن النجباء النجاة، ونحن أفراط الأنبياء ونحن أبناء الأوصياء، ونحن المخصوصون في كتاب الله عز وجل، ونحن أولى الناس بكتاب الله، ونحن أولى الناس برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم..**».[1]

(1) الكليني، الكافي، ج1، ص282، باب33، ح1.

الدرس الرابع والعشرون

الإمامة (4)
مودّة أهل البيت عليهم السلام ومحبّتهم

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر بعض الآيات والروايات التي تثبت لزوم مودّة أهل البيت عليهم السلام.
2. يبيّن الثمرة من حب أهل البيت عليهم السلام.
3. يوضح كيفيّة مودّة أهل البيت عليهم السلام.

سوف نتناول في هذا الدرس ثلاث نقاط وهي:

الأولى: مودة أهل البيت في الكتاب والسنّة.

الثانية: ثمرة مودة أهل البيت عليهم السلام.

الثالثة: كيفيّة مودّة أهل البيت عليهم السلام.

مودّة أهل البيت في الكتاب والسنّة

1. الكتاب:

إنّ محبَّـةَ أهـلِ البَيت: من الأمور الّتي أكَّد عليها القـرآنُ قالَ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾[1]. والمقصودُ من «القُربى» هم أقرباءُ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقرينة أن طالبَ هذا الأمر هو النبيُّ نفسه.

إنّ محبّـة أهـلِ البَيت ومودَّتهم - مضافـاً إلى كونها كمالاً كبيـراً - تسبّب في أن يحـاولَ الشخصُ المحبُّ أن يجعـل نفسَه مشابِهـاً للمحبوب، ويقتدي بـه في كَسب الفضائل، والاجتناب عن الرَّذائل.

وقـال سبحانـه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[2].

(1) سورة الشورى، الآية 23.

(2) سورة التوبة، الآية 24.

وقال في آية أُخرى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فَإنّ الله تعالى يَعُدُّ في هذه الآية أربع خصوصيّات للمفلحين وهي:

أ. الإيمان بالنبي: ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾.

ب. تكريمهُ وتوقيره: ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾.

ج. نصرهُ وتأييده: ﴿وَنَصَرُوهُ﴾.

د. اتّباعُ النور (القرآن) الذي أُنزِلَ معه: ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

ونظراً إلى أنّ «نصرةَ» النبيّ الأكرم جاءَت في الخصّيصة الثالثة لذا لا مناص من أنْ يكون المرادُ بلفظة «عَزّروه» في الخصيصة الثانيّة هو تكريمُ النبيّ الأكرم ﷺ وتعظيمه ولا شك أنّ تعظيمه وتكريمه لا يختص بزمان حياته، كما أنّ الإيمان الذي ورد ذكره في الآية ليس محدوداً كذلك.

وفي مجال لزوم محبّة أهل بيته ومودّتهم يكفي أنّ القرآن الكريم اعتبرها أجراً للرسالة (أي أنّه بمنزلة الأجر لا الأجر الواقعي)، إذ يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[2].

2. السنّة:

إنّ الدّعوة إلى محبّة النبيّ، ومودَّته والحثّ عليها لم يرد في القرآن الكريم وحده، بل جاء التأكيد عليها حتى في الأحاديث الشريفة التي نذكر منها نموذجين على سبيل المثال لا الحصر:

أ. روي عن رسولُ الله ﷺ: «**لا يُؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده ووُلْده والنّاسِ أجمعين**»[3].

(1) سورة الأعراف، الآية 157.

(2) سورة الشورى، الآية 23.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت- لبنان، دار المعرفة، 1412هـ-1992م، ج2، ص356.

ب. روي عـن رسولُ الله ﷺ في حديث آخر: «**ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه، ذاقَ طَعمَ الإيمـان: مَـنْ كانَ لا شـيءَ أحـبَّ إليـه مـن الله ورسولـه، وَمَـنْ كان لئن يُحَرق بالنّار أحبّ إليه من أن يرتدَّ عن دينه، وَمَنْ كانَ يحبُّ لله ويُبْغِضُ لله**»[1].

ج. روي عـن رسـولُ اللهﷺ: «**لا يُؤمنُ عَبْـدٌ حَتّى أكـونَ أحبَّ إليه مـن نَفْسه وَتكونُ عترتي أحبَّ إليه من عترَته ويكون أهلي أحبَّ إليه من أَهْله**»[2].

د. و في حديث آخر: «**مَنْ أحبَّهُمْ أحَبَّهُ الله، ومَنْ أبْغَضَهُمْ أبْغَضَهُ الله**»[3].

ثمرة المودّة لأهل البيت عليهم السلام

بعـد أن تَعَرّفنا على أدلّة لزوم محبّة النبيّ وعترته ومودّتهم، الآن يُطرح السؤالان التاليان:

1. ما هي الثمرة الّتي تجنيها الأمّةُ من مودَّة النبيّ وعترته؟
2. ما هي كيفيَّة مَودّة النبيّ وعترته؟

لا بـدّ في هذا المجـال أن نذكرَ أنّ محبّة الإنسان الفاضـل الكامل ومودَّته توجب بنفسها صعـودَ الإنسان في مدارج الكمال، فإنَّ الإنسان إذا أحبّ شخصاً من صميم قلبـه سعى إلى التشبّه به في حركاته وسكناتـه، وتحصيل ما يُسرُّ ذلك الشخص في نفسه وذاته، وترك ما يؤذيه ويزعجه.

ومـن الواضـح أنَّ وجودَ مثلَ هذه الروحيّة في الإنسان توجـب التحوّل فيه، وتبعَثُه علـى سلوك طريـق الطاعة واجتناب طريـق المعصيَة دائماً. إنّ الّـذي يُظهرُ التعلُّقَ بأحـدٍ ويتظاهر بمودّته بينمـا يخالفه في مقام العمل يفتقد المحبَّـةَ الحقيقيّة. وقد

(1) الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، 1415هـ- 1995م، ج5، ص144.
(2) القندوزي، ينابيع المودّة، تحقيق: علي جمال أشرف الحسيني، دار الأسوة، ط1، ج2، ص457.
(3) ابن عساكر، مصدر سابق، ج36، ص313.

نُسب بيتان من الشعر إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام جاءت الإشارة فيهما إلى هذه النقطة، إذ يقول:

تعصي الاله وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ هذا لَعَمري في الفعالِ بَديعُ

لَو كانَ حُبُّكَ صادقاً لأطعتهُ إنّ المحبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيْعُ[1]

مظاهر المودّة لأهل البيت عليهم السلام

والآن، وبعد أن تَبَيَّن بعضُ ثمرات مودّة النبيّ وعترته، يجب أن نشيرَ إلى أُسلوب إظهار تلك المودة. لا شك أنّ المقصودَ من «**الحبّ**» ليس هو الحبُّ الباطنيّ العاري عن أيّ عمل يناسبُه، بل المقصودُ هو المودّة التي تَظهَر آثارُها المناسبة على قول الإنسان وفعله.

ومن أحد الآثار البارزة لمحبّة النبيّ وآله الطاهرين هو اتّباعه العمليّ كما مرّت الإشارة إلى ذلك، ولكن الحديث هنا هو عن الآثار الأخرى لهذه الحالة الباطنيّة، وتتمثل في كلّ ما يعدّه الناس من الأقوال والأفعال، علامةً للحبّ والمودّة تحتَ هذه القاعدة، شريطة أن يكون تكريم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعملٍ مشروعٍ لا بعملٍ حرام.

وعلى هذا فإنّ تكريمَ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته: في كلّ زمانٍ، وبخاصة في مواليدهم أو وَفياتهم، يتحقّق بإظهار المودّة لهم وإبراز التكريم لشَخصيّاتهم.

فالاحتفال بمواليدهم وإشعال المصابيح ونصب الأعلام والرّايات الملوّنة، ونشر معالم الزينة، وإقامة مجالس تُعرَضُ فيها فضائلُ النبيّ أو أهل بيته يُعدّ آيةَ المودة وعلامة المحبّة لهم، وعلى هذا الأساس كان تكريمُ النبي في يوم مولدِه سنّةً مستمرةً بين المسلمين.

(1) النمازي، علي، مستدرك سفينة البحار، قم- إيران، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم، 1419هـ، ج5، ص483.

إقامة مجالس العزاء

مـن البيان السابق اتّضَحَـت فلسفةُ وحكمةُ إقامة مجالس العـزاء، والمآتم لأئمة الدّيـن، لأنّ إقامةَ مثل هذه المجالس من أجـل ذكر مصائبهم وبيان ما جرى عليهم مـن المحَـن في سبيل الدين، هو نـوعٌ من أنواع إظهار المـودَّة والمحبَّة لهم. فإذا ما بكى محبُّو أهلِ البيت في مُصابهم فبسبب علاقتهم القلبيّة بهم، وحبّهم العميق لهم.

إنّ إقامة مجلس في مصاب الأحبّة والبكاء لفقدانهم هي في الأساس عملٌ أسَّسَهُ رسـولُ اللّه ﷺ، وذلك عندما سمع نسـاء الأنصار يبكين قتلاهن في معركة «**أحُد**»، فقال وهو يَذكر عمّه «**حمزة**» سيد الشهداء: «**وَلكنَّ حمزة لا بواكي له**»[1].

وعندمـا عـرف أصحابُ رسـول اللّه ﷺ برغبته فـي إقامة مجلـس العزاء لعمّه «**حمزة**» أمروا أزواجهم بأن يبكين على قتلاهم الشهداء وعلى «**حمزة**» ويقمن مجلس العـزاء لـه، فأُقيم مجلسٌ لذلك الغرض فلمّـا بلغ رسول اللّه ﷺ ما فعلَـهُ الأنصارُ وأزواجهـم شكَرَهُـم على ذلك، ودعا في حقّهم قائلاً: «**رَحِـم اللّه الأنصار**»، ثم طلب من أصحابه من الأنصار بأن يأمُروا أزواجهنّ بأن يَعدن إلى منازلِهنّ[2].

وثمـة روايات عديدة تكاد تبلغ حـدّ التواتر تعرب عن أنّ رسول اللّه ﷺ بكى على الحسين سبطه الأصغر لما يلمَّ به وبأهله وأنصاره على أيدي الفئة الباغية، في وقعة كربـلاء، كما يلاحظ ذلـك من يراجع كتاب «**الصواعق المحرقة**» لابن حجر و«**نور الأبصار**» للشبلنجي الشافعي، و«**المستدرك على الصحيحين**» للحاكم النيسابوري. كما رثاه وبكاه طائفة من علماء الإسلام من سنة وشيعة وأنشأوا في مصابه القصائد المطوّلة. فهذا الإمام الشافعي يقول:

(1) ابن حنبل، المسند، ج2، ص92.
(2) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3، ص614.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج45، ص253.

تـــأوّب قـلـبـي فـالـفـؤاد كئيب وأرّق نـومـي فـالـسـهـاد غـريـب

إلى أن يقول:

فـمـن مُـبـلـغٌ عَـنّـي الحسينَ رسـالـةً وإن كَـرِهَـتْـهـا أنـفـسٌ وقـلـوبُ

ذَبـيـحٌ بـلاَ جُـرمٍ كـأنَّ قـمـيـصَـه صَـبِـغ بـمـاءِ الأرجـوان خضـيـبُ

هـذا مضافـاً إلى أنّ لإقامـة المآتـم ومجالس العـزاء للشهداء فـي سبيل الحق فلسفـة هامّة أُخرى وهي أنّ إحياء ذكراهـم يوجب الحفاظ على عقيدتهم التي قُتلوا مـن أجلهـا... تلك العقيدة التي يتكـوّن جوهرُها من التفاني فـي سبيل الدين وعدم الخضوع للذُلّ، والهوان وهم يردّدون شعار «**الموت في عزٍّ خيرٌ من الحَياة في الذلّ**» ويجـدّدون في كلّ يوم عاشـوراء هذا المنطق العظيم ويتعلـم الشعوب والأمم دروساً حيويّة من نهضتهم وثورتهم الكبرى.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ محبَّةَ أهلِ البَيت من الأمور الّتي أكَّد عليها القرآنُ.
- إنّ الدّعـوة إلـى محبّة النبـيّ، ومودَّته والحـثّ عليها جاء التأكيـد عليها في الأحاديث الشريفة.
- إنّ محبّـة الإنسان الفاضل الكامل ومودَّته توجـب بنفسها صعودَ الإنسان في مـدارج الكمال، فـإنَّ الإنسـان إذا أحبّ شخصـاً من صميم قلبـه سعى إلى التشبّه به في حركاته وسكناته.
- إنّ محبّـة أهـلِ البَيت ومودَّتهـم، تسبّب فـي أن يحاولَ الشخصُ المحبُّ أن يجعل نفسَه مشابِهاً للمحبوب، ويقتدي به في كَسب الفضائِل، والاجتناب عن الرَّذائل.
- إنّ تكريـمَ النبـيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهـل بيته: في كلّ زمـانٍ، وبخاصة فـي مواليدهم أو وَفياتهم، يتحقّق بإظهار المودّة لهم وإبراز التكريم لشَخصيّاتِهم.
- إنّ إقامـة مجلس في مصاب الأحبّة والبـكاء لفقدانهم هي في الأساس عملٌ أسَّسَـهُ رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك عندمـا سمع نساء الأنصار يبكين قتلاهن في معركـة «أُحُد»، فقال وهو يَذكر عمّه «حمزة» سيـد الشهداء: «**وَلكنَّ حمزة لا بواكي له**».

أسئلة الدرس

1- اذكر آية قرآنية تشير إلى مودّة أهل البيت مع تفسيرها.

2- ما هي ثمرة مودة أهل البيت عليهم السلام؟

3- كيف يمكن إظهار مودة أهل البيت عليهم السلام؟ ومن خلال ماذا يمكن ذلك؟

علة محبّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام

عـن أنس مالك، قال: جاء رجل من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهـل البادية يسـأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «**يـا رسول الله متـى قيام الساعـة؟ فحضرت الصـلاة، فلمـا قضى صلاته قال: أين السائـل عن الساعة؟ قال: أنا يا رسول الله، قـال: فمـا أعـددت لها؟ قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل، لا صلاة ولا صوم، إلّا إنـي أحـب الله ورسوله، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: المرء مع من أحب، قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشد من فرحهم بهذا**»[1].

(1) الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص206، ح2.

الدرس الخامس والعشرون

الإمامة (5)

الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف



أهداف الدرس



على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن أنّ هناك مصلحًا عالميًّا في آخر الزمان.
2. يستدل على أنّ المصلح العالمي هو الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.
3. يثبت أنّ هناك وكلاء للإمام في غيبته.

ظهور مصلح عالمي في آخر الزمان

إنّ ظهـورَ رجـلٍ من أهـل بَيت الرّسالـة لإقامة حكومـة الله العادلـة العالَميّة في مُستقبـل الحيـاة البَشريّة (بَعد أن تُمـلأ الأرضُ ظلماً وجَوراً) مـن مُسَلَّمات العقائد الإسلاميـة التي اتّفقَ عليها جمهورُ المُسْلميـن، ونقلوا في هذا المجال أحاديث بَلَغَتْ حَـدَّ التواتـر. فهناك – طبق بعض إحصاءات أهل التحقيـق من العُلَماء – حوالي 65 حديثاً حول هذه المسألة نذكر منها حديثاً واحداً رواه «**أحمدُ بن حنبل**» في مسنده:

قـالَ النَبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَوْ لَمْ يَبْقَ منَ الدُّنيْا إلاّ يومٌ واحدٌ لَطَوَّل اللهُ ذلك اليومَ حَتّى يَخْرُجَ رَجُلٌ منْ وُلْدي فَيَمْلأها عَدْلاً وقسطاً كما مُلئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**»[1]. وعلى هذا الأساس يكونُ قيامُ رَجُل من أهلِ البيت النَبَويّ وظَهورُهُ في آخِر الزمان موضعَ اتفاقٍ بين المسلمين شيعةً وسنّةً.

المصلح العالمي هو الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

لقـد جاءَت خصوصيـاتُ هذا المصلِـح العالَميّ فـي الرّوايات الإسلاميـة نَقَلها الفريقان، وهي على النحو التالي:

1. أنّه من أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم 389 رواية.
2. أنّه من أولاد الإمام عليّ عليه السلام 214 رواية.

(1) ابن حنبل، المسند، ج1، ص 99.

3. أنّه من أولاد فاطمة الزهراء عليها السلام 192 رواية.

4. أنّه تاسع وُلد الحسين عليه السلام 148 رواية.

5. أنّه من أولاد الإمام علي بن الحسين عليه السلام 185 رواية.

6. أنّه ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام 146 رواية.

7. أنّه الثاني عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام 136 رواية.

8. الرّوايات التي تتحدّث عن ولادته عجل الله فرجه الشريف 214 رواية.

9. الرّوايات التي تقول: إنّه يعمّر طويلاً، 318 رواية.

10. الرّوايات التي تقول: إنّ غيبته ستكون طويلة، 91 رواية.

11. الرّوايات التي تقول: إنّ الإسلام سيصير عالمياً عند ظهوره عجل الله فرجه الشريف.

12. الرّوايات التي تقول: إنّ الأرض ستُملأ عَدلاً وقِسطاً عند ظهوره، 132 رواية.

وعلى هذا الأساس فإنّ وجود مثل هذا المصلح العالمي في مستقبل البَشَرية أمر مقطـوعٌ به ومسلَّمٌ من حيث الرّوايـات والأحاديث الإسلامية بحيث لا يمكن الشكّ أو التشكيك فيه.

وأما ما وَقَعَ الخلافُ فيه فهو ولادته، وأنّه هل وُلِدَ هذا الرَّجُل من أُمّه ولا يزال منذُ ولادَته حَيّاً، أم أنّه سيولد في المستقبل؟

يذهب الشيعة وفريقٌ من أهل التحقيق من أهل السُّنّة إلى الرأي الأوّل، فيعتقدون بـأنّ الإمـام المهديّ وُلِد مـن أُمّه (نرجس) عـام 255 هـ وهو لا يـزال حَيّاً إلى هذا اليوم، وذهَبَ فريقٌ من أهل السّنة إلى أنّه سيُولَد فيما بعد.

وحيث إنّنـا نحن الشيعة نعتقدُ بأنّ الإمام المهديَّ عجل الله فرجه الشريف وُلِدَ عام 255 هجرية، وهو لا يـزال على قيد الحياة إلى هـذه الساعة، لهذا لا بدّ من أن نذكّر بنقاط حول غيبته وطول عمره في حدود ما يسعُه هذا المختصرُ.

الإمام المهدي عجل الله فرجه وليّ إلهيّ غائب عن الأنظار

إنّ أولياءَ اللّه - حَسَب نَظَر القرآن - على نوعين:

1. وَليٌّ ظاهرٌ يعرفُه الناسُ.
2. ووَليٌّ غائبٌ عن أنظارِ الناس لا يعرفُه أحدٌ منهم، وإن كان يعيشُ بينَهم، ويعرفُ هو أحوالَهُمْ وأخبارهم.

وقد ذُكر في سورة الكَهف كلا النوعين منَ الأولياء في مكانٍ واحد أحدهما موسى بن عمران عليه السلام والآخر مصاحبُهُ ورفيقهُ المؤقّت، الذي صحِبَه في سَفَره البرّي والبَحْري، ويُعْرَف بالخضر.

إنّ هذا الوليّ الإلَهيَّ كانَ بحَيْث لم يعرفُه مصاحبهُ ومرافقُه النبيُّ موسى وإنّما صاحَبَه ورافقه بتعليم وأمرٍ من اللّه، واستفاد من علمه خلال مرافَقَته إيّاه كما يقول تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[1].

ثم إنّ القرآنَ الكريم يُقَدّم شرحاً مفصّلاً عمّا فَعَله هذا الوليُّ الإلَهيّ من أعمال مفيدة، ذلك الذي لم يكن أحدٌ حتى النبيّ موسى عليه السلام يَعرفهُ، ولكن كانوا يَستفيدون من آثار وجوده المبارك ومن أفعاله المفيدة[2].

إنَّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه على غرارِ مرافق النبيّ موسى عليه السلام، وليٌّ غيرُ معروف للنّاس مع أنّه في نفس الوقت منشأ لآثار طيبة للأمّة. أي لا يعرفهُ أحَدٌ منهم مع أنّهم يَستَفيدون من بركات وجوده الشريف.

وبهذا لا تكونُ غيبةُ الإمام المهَديّ عجل الله فرجه بمعنى الانفصال عن المجتمع، بل هو - كما جاءَ في روايات المعصومين: - كذلك مثل «الشَمس خَلفَ السَحاب لا تُرى عينُها،

(1) سورة الكهف، الآيتان 65 و 66.

(2) راجع سورة الكهف، الآيات 71 - 82.

ولكنها تبعَث الدفءَ والنورَ إلى الأرض وساكنيها»[1].

هـذا مضافـاً إلى أنّ فريقاً مـن الأبرار والطيّبيـن الأتقياء الذين كانـوا يَتمتّعون باللياقـة والأهليّـة للتشرّف بلقـاء الإمام المهديّ قـد رأوه وَالتَقَوْا بـه واستفادوا من إرشاداتـه، وعُلُومِـه، واسْتفادَ الآخرون من هذا الطريق، مـن آثارِه المباركة وبركات وجوده الشريف.

وكلاء الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

إنّ الطَّريقـة المتعارَفـة والمَعْمُول بها بين البشر ـ ماضياً وحاضراً ـ هو أنّ الحاكمَ والقائد يقوم ببعض الأعمال بنفسه مباشرةً، ويقومُ بالبعض الآخر وكلاؤُهُ ونوّابه.

صحيح أنّ عِلَلاً مختَلِفَة تَسَبَّبت في غيبة الإمام المَهْدي عجّل الله فَرَجَه الشريف فحُرِمـت البشريةُ من الاستفادة المباشرة من ذلك الإمـام ولكنه ولحسن الحظ لم يُغلَقْ بابُ الاستفادة من وُكَلائه ونوّابه ـ وهم الفقهاء العُدول الأتقياء ـ في وجه أتباعه، ومريديه.

فالفقهـاء والمجتهـدون الأجلّة كانوا ولا يَزالون نُوّابَ الإمـام المهديّ الذين أوكَلَ أمـرَ بَيان الأمـور الشَرعية والحكوميَّـة وإدارة شؤون المجتمـع الإسلامي في عصر الغيبة إليهم.

هذا مع العلم بأنّ حرمان الأمّة الإسلامية من آثار حضور الإمام المهدي كان لعلل وظروف خاصة جَعَلت غيبتَه أمراً لا مناص منه.

(1) الصـدوق، كمـال الدين وتمام النعمـة، قم- إيران، مؤسسة النشر الإسلامي التابعـة لجماعة المدرسين، الباب 44، الحديث 4، ص 485.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ ظهـورَ رجلٍ من أهل بَيت الرّسالة لإقامـة حكومة اللّه العادلة العالَميّة في مُستقبل الحياة البَشريّة من مُسَلَّمات العقائد الإسلامية.
- مـا وَقَعَ الخلافُ فيه فهو ولادته، وأنّه هل وُلِدَ ولا يزال منذُ ولادَته حَيّاً، أم أنّه سيولد في المستقبـل؟ يذهب الشيعة وفريقٌ من أهل التحقيق من أهل السُّنّة إلى الرأي الأوّل، وذهَبَ فريقٌ من أهلِ السّنة إلى أنّه سيُولَد فيما بعد.
- إنّ أولياءَ اللّه – حَسَب نَظَر القرآن – على نوعين:

1 – وَليٌّ ظاهرٌ يعرفُه الناسُ.

2 – ووَلـيٌّ غائـبٌ عن أنظارِ الناس لا يعرفُه أحدٌ منهم، وإن كان يعيشُ بينَهم، ويعرفُ هو أحوالَهُمْ وأخبارهم.

- إنَّ الإمام المهديّ عجل الله فرجه على غرارِ مرافق النبيّ موسى عليه السلام، وليٌّ غيرُ معروف للنّاس.
- الفقهاء والمجتهدون كانوا ولا يَزالون نُوّابَ الإمام المهديّ عجل الله فرجه.

أسئلة الدرس

1-اذكر حديثًا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم يشير فيه إلى ظهور مصلح في آخر الزمان.

2-ينقسم أولياء اللّه إلى نوعين، ما هما ؟

3- ما هي الطريقة التي استخدمها الإمام المهدي في غيبته الصغرى؟ ومن هم وكلاؤه في غيبته الكبرى؟ بيّن ذلك.

الإشارة والنص إلى صاحب الدار عليه السلام

عن ضوء بن عليّ العجليّ، عن رجل من أهل فارس سمّاه قال: أتيت سامرّا ولزمت بـاب أبي محمّد عليه السلام فدعاني، فدخلت عليه وسلّمت فقـال: ما الذي أقدمك؟ قال: قلت: رغبة في خدمتك، قال: فقال لي: فالزم الباب، قال: فكنت في الدار مع الخدم، ثـم صرت أشتـري لهم الحوائج من السوق وكنت أدخل عليهـم من غير إذن إذا كان فـي الدار رجال قال: فدخلت عليه يوماً وهو في دار الرجال فسمعت حركة في البيت فنادانـي: مكانـك لا تبرح، فلم أجسر أن أدخل ولا أخـرج، فخرجت عليَّ جارية معها شيء مغطّى، ثمّ ناداني ادخل، فدخلت ونادى الجارية فرجعت إليه، فقال لها: اكشفي عمّا معك، فكشفت عن غلام أبيض حسن الوجه وكشف عن بطنه فإذا شعر نابت من لبَّته إلى سرَّته أخضر ليس بأسود، فقال: هذا صاحبكم، ثمّ أمرها فحملته فما رأيته بعد ذلك حتّى مضى أبو محمّد عليه السلام [1].

(1) الكليني، الكافي، ج1، ص390، ح6.

الدرس السادس والعشرون

الإمامة (6)
حكمة الغيبة وعلامات الظهور

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن الحكمة من غيبة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.
2. يعلّل طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف.
3. يذكر علامات ظهور الإمام عجل الله فرجه الشريف.

سـوف نتعرّض في هـذا الدرس لمسألتيـن مهمّتين هما حكمـة الغيبة وعلامات الظهور.

حكمة الغيبة

إنّ من المسائل الأساسيّة التي تتعلق بالإمام المهدي عجل الله فرجه هي مسألة الغيبة، ولذلك سوف نتعرض لها ولو كان بشكل مختصر في هذا الدرس.

غيبة بعض الأنبياء والأولياء في الأمم السابقة

إنّ علّـة غَيبـة الإمام المَهديّ عجل الله فرجه هي من الأسـرار الإلهيّة التي لا نستطع الوقوف على حقيقتها وكنهها، كما أنّ لهذه الغَيبة المؤقتة نظائر في حياة أولياء اللّه السابقين والأمم السابقة.

فقـد غابَ النبيُّ موسى الكليمُ عليه السلام عن أُمّته أربعين يوماً، وقضى كلَّ هذه المدة في الميقات[1].

وغـاب السيّدُ المسيح عليه السلام بمشيئة اللّه عن أنظـار أُمّته، فلم يقدر أعداؤُه على قَتْله، والقضاء عليه[2].

(1) لاحظ سورة الأعراف، الآية 142.

(2) لاحظ سورة النساء، الآية 158.

وغاب النبيُّ يونس عليه السلام عن قومه مدّةً من الزّمان[1].

إذن فليست غيبةُ الإمام المهَدي عليه السلام عن أنظار الناس بدعاً من الأمر كما لا يصحّ أن تَقَعَ هذه الغَيبة مهما طالت ذريعةً لإنكار أصل وجود المهَديّ عليه السلام.

وأساساً إنّ كلَّ ما يثبُتُ عن طريق النقل المتواتر، ولكن لا يقدر الإنسان على التحقّق منه، ومشاهدته لا يجوز له أن ينكره أو يتردّد في القبول به ما دام رُوِيَ ونُقِلَ بالتّواتر الموجب للاطمئنان، لأنّ قسماً من الأحكام الإلهيّة التي هي من مسلّمات الدين الإسلاميّ وضروريّاته سيتعرَّض للترديد والإنكار إذا تجاهَلْنا هذه القاعدةَ العقلائيةَ الصائبةَ، وهذا الأمر العرفي المعقول جداً.

وغيبةُ الإمام المهديّ عجل الله فرجه ليس بمستثنىً من هذه القاعدة، وعَدَم الإطلاع على سرّها أو أسرارها الحقيقية لا يجوزُ الترديدُ فيها، وإنكارُها. ومع ذلك فإنّنا يجب أن نقول: إنّه من الممكن إدراك سرّ الغيبة هذه في حدود فكرِنا البشري وهذا السرّ هو ما يلي:

حيث إنّ آخرَ حُجَّة من حُجَج الله وآخر إمام من أئمة أهل البيت قد أرادَ اللهُ تعالى أن يُحقّق به الأمنية الكبرى (وهي بسط العدل والقسط ورفع راية التوحيد على كل ربوع الأرض) وهذه الأمنية الكبرى وهذا الهدف العظيم لا يمكن أن يَتحقّق إلاّ بعد مرور ردح من الزمان، وإلاّ بعد تكامل العقل البَشَريّ وتهيّؤه الروحيِّ والنفسيّ لذلك، حتى يستقبلَ العالَمُ - بشوق ورغبة - موكبَ الإمام والمصلح العالميّ، موكبَ العَدل والحريّة والسلام، لهذا فإنّ منَ الطبيعيّ أنّ هذا الإمام لو ظَهَرَ بين النّاس، وعاشَ بين ظهرانيِّهم قبلَ نُضُوج الأمر، وحصول المقدّمات اللازمة، والأرضيّة المناسبة، كان مَصيرُه ومآلُه، مصيرَ من سَبَقه من آبائه من الأئمة الكرام البرَرَة (أي الشهادة)، ولَقُتِل عليه السلام قبل أن يتحقّق ذلك الهدفُ العظيم، وتلك الأمنية الكبرى على يديه.

(1) لاحظ سورة الصافات، الآية 140.

ولقد أُشير إلى هذه الحكمة في بعض الرّوايات الصادرة عن أهل البَيْت: أيضاً.

فقد رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «**إنّ للقائم غَيْبَةً قَبْلَ ظُهُوره**».

يقول الراوي: قلتُ: ولِمَ؟

فقالَ الإمام الباقر: «**يَخافُ أي القتل**»[1].

أي منعاً من أن يُقتَل قبل تحقّق الهدف المنتظَرَ منه.

وَرُبّما ذُكرَ وجهٌ آخر لغيبته في بعض الرّوايات وهي اختبارُ النّاس وتمحيصُهم، وامتحانهم، يعني أنّ الناس يُختَبَرون في عَصر الغَيبة، ويمرُّون بالامتحان الإلَهيّ، ويُعرَفُ مدى ثباتهم على طريق الإيمان، ومدى استقامَتهم في طريق الإيمان والعقيدة[2].

وجود الإمام المعصوم لطف إلهي في حضوره وغيابه

إنّ البراهينَ الكلاميَّة ترى أنّ وجودَ الإمام المعصوم في المجتمع، وحضورَه بين الناس لُطفٌ من ألطاف الله الكبرى لكونه سبباً لهداية الناس. ومِنَ البديهيّ أنّ النّاسَ إذا رَحَّبوا بهذا المظهر البارز من مظاهر اللُطف الإلَهيّ واستقبلوه، والتفّوا حولَه، انتفَعوا بآثار وجوده المباركة. وإلاّ حُرِموا من الاستفادة الكاملَة والانتفاع التامّ من نعمة وجوده الشريف. وفي هذه الحالة لا يكونُ السبب في هذا الحِرمان إلاّ الناس أنفسُهم، لا الله ولا الإمام[3].

(1) الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة، ص 481، الباب 44، الحديث 8.

(2) راجع بحار الأنوار: ج52، ص 102، 113 ـ 114، باب التمحيص والنهي عن التوقيت.

(3) وقد أشار المحقّق نصيرُ الدين الطوسيّ إلى هذه الحقيقة في كتابه تجريد الاعتقاد (مبحث الإمامة) حيث قال: وجودُهُ (أي الإمام) لُطفٌ وتصرُّفُهُ لُطفٌ آخر وغيبته مِنّا.

طول عمر الإمام عجل الله فرجه الشريف

لقد وُلِدَ الإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف عام 255 هجرية، وعلى هذا الأساس يكونُ عُمرُه الآن (عام 1418 هـ) قد تجاوَزَ أحَدَ عشر قرناً. إنّ الإذعان بهذا العُمُر الطَويل جداً، مع أخذ القُدرة الإلهيّة المطلقة بعين الاعتبار ليس أمراً مشكلاً.

وفي الحقيقة إنّ الذين يَعتَبرُون طولَ عُمُر الإمام المهَديّ عليه السلام مشكلةً في طريق الإيمـان بوجوده، ومانعاً من القـول بولادته، يَغْفَلُون عن قـدرة الله اللاّمتناهية فهم كمن قالَ عنهـم سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1]. هذا مضافاً إلى أنّ في الأمَم السالفـة معمِّريـن كثيرين عاشوا طويـلاً ذكرهم القرآن الكريم. فقـد ذكَر أن نوحاً عاشَ في قومه ألفَ سنة إلاّ خمسين عاماً[2].

كما أنّ العلم البشريّ الحديث يسعى في عَصرنا إلى أنْ يُحلّ مشكلة طول العُمُر، بالأساليب العلميّة، والصحية. وهذا يُفيد أنَّ الإنسان يمكن ـ في نظر العُلَماء ـ أن يَعيشَ طَويلاً بعد رَفْع الموانع الّتي تحول دونَ العُمُر الطويل. إنّ الله قادرٌ على إطالة عُمُر من يُريد إلى يوم القيامة إذا شاء، أليسَ هو القائل بأن يونس لو لم يكن من المسبّحين لَلَبث في بَطن الحوت إلى يَوم الدِّين[3]. ألا يَستَطيع هذا الإلَهُ الخالقُ القادر أن يُطيلَ عُمُرَ حُجَّته البالغَة، وخَليفَته الحقّ بِلُطْفه وعنايَته؟ الجوابُ هو: نعم.

علامات ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف

لا يعرف أحدٌ بَوْقت ظهور الإمام المهدي قط، فهذه الحقيقة من الأسرار الإلهيّة، مثـل مَوعـد يـوم القيامة، الـذي لا يَعرفُ بِـه أحـدٌ إلاّ الله وحده. ولهـذا يجب أن لا

(1) سورة الأنعام، الآية 91.
(2) لاحظ سورة العنكبوت، الآية 14.
(3) لاحظ سورة الصافات، الآيتان 143 و 144.

يُصــدَّقُ زعمُ من يَدّعي أنّه يَعْلَمُ بوقت ظهورِ الإمــام المهديّ، أو يعيّن وَقتاً، ويضرب أجــلاً معيّنــاً لذلك، (كَذبَ الَوقّاتُون). ولــو أنّنا تجاوَزْنا مَسألــة توقيت ظهور الإمام المهديّ عليه السلام، وَجَبَ أنْ نقولَ: إنّ الروايات ذَكَرَتْ علائمَ كُليَّةً لِظهورِ الإمام المهديّ وهي تَنْقَسِمُ إلى نَوعين:

1. العلائم الحَتمية القَطعيّة.

2. العلائم غير الحتمية.

ويُطلب التفصيل ممّا كتب حول الإمام المهدي من الموسوعات.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ علّة غَيبة الإمام المَهديّ عجل الله فرجه هي من الأسرار الإلهيّة التي لا نستطِع الوقوف على حقيقتها وكنهها.
- إنّ كلَّ مـا يثبُتُ عن طريق النقل المتواتر، ولكن لا يقدر الإنسان على التحقّق منـه ومشاهدته، لا يجوز له أن ينكره أو يتردّد في القبول به ما دام رُوِيَ ونُقِلَ بالتّواتر الموجب للاطمئنان.
- حيـث إنّ آخـرَ حُجَّة من حُجَج الله وآخر إمام مـن أئمة أهلِ البيت عليهم السلام قد أرادَ الله تعالـى أن يُحقّق به الأمنية الكبرى (وهي بسط العدل والقسط ورفع راية التوحيد على كل ربوع الأرض) وهذه الأمنية الكبرى وهذا الهدف العظيم لا يمكن أن يَتحقّق إلاّ بعد مرور ردح من الزمان.
- إنّ البراهيـنَ الكلاميَّة ترى أنّ وجودَ الإمام المعصوم في المجتمع، وحضورَه بين الناس لُطفٌ من ألطاف الله الكبرى لكونه سبباً لهداية الناس.
- إنّ الله قادرٌ على إطالة عُمُر من يُريد إلى يوم القيامة إذا شاء.
- إنّ الروايات ذَكَرَتْ علائمَ كُليَّةً لظهورِ الإمام المهديّ وهي تَنْقَسِمُ إلى نَوعين:
  1. العلائم الحَتمية القَطعيّة.
  2. العلائم غير الحتمية.

أسئلة الدرس

1- ما هي الحكمة من غيبة الإمام المهديّ عجل الله فرجه؟
2- كيف يمكن تعليل طول عمر الإمام عليه السلام؟
3- تكلّم عن علامات الظهور بقسميها.

الغيبة

عن سدير الصيرفي قال: سمعت أبا عبد الله (الإمام الصادق) عليه السلام يقول: «**إنّ في القائم سنة من يوسف قلت: كأنّك تذكر خبره أو غيبته؟ قال لي: وما تنكر من هذه الأمّة أشباه الخنازير، إنّ إخوة يوسف عليه السلام كانوا أسباطاً أولاد أنبياء تاجروا بيوسف، وباعوه وخاطبوه، وهم إخوته، وهو أخوهم، فلم يعرفوه حتّى قال لهم يوسف: أنا يوسف، فما تنكر هذه الأمّة الملعونة أن يكون الله عزّ وجلّ في وقت من الأوقات يريد أن يستر حجّته، لقد كان يوسف عليه السلام أحبّ إليه من ملك مصر، وكان بينه وبين والده مسيرة ثمانية عشر يوماً، فلو أراد الله عزّ وجلّ أن يعرف مكانه لقدر على ذلك، والله لقد سار يعقوب عليه السلام وولده عند البشارة تسعة أيّام من بدوهم إلى مصر، فما تنكر هذه الأمّة أن يفعل الله عز وجل بحجّته ما فعل بيوسف، وأن يمشي في أسواقهم ويطأ بسطهم حتّى يأذن الله في ذلك له كما أذن ليوسف حين:** ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾[1]»[2].

(1) سورة يوسف، الآيتان 89 و 90.

(2) الصدوق، علل الشرائع، ج 1، ص 244.

الدرس السابع والعشرون

الموت

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن حقيقة الموت.
2. يثبت جهل الإنسان بساعة الموت.
3. يشرح كيف يكون الموت سنّة إلهية وأنّه ليس عدمًا مطلقًا.

مقدّمة

يعيشـ الإنسان مراحل ثلاث، أو بتعبير آخر ثلاثة أنواع من الحياة، يعيش الحياة الدنيـا ثمّ حياة البرزخ ثم الحياة الثالثة والأبديـة والتي لا نهاية لها وهي حياة عالم الآخـرة، ولـكل مرحلة من هـذه المراحل قوانينهـا الخاصّة بها، ويُمثّـل الموت فيها جسـر عبور للإنسان من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، وهو الذي لن يستطيع أن يفرّ منـه أحد، مهما عـلا شأنه في الدنيا، ولذلك ولأنه أمر محتـوم فقد أرشدتنا الآيات القرآنيّـة وأحاديث المعصومين عليهم السلام إليه وبيّنت لنا تفاصيل منه، منها ما هو رادع ومنها ما هو محفز ليستعد الإنسان إلى ذاك العالم ويكون مهيئًا للقاء الله سبحانه.

حقيقة الموت

المـوت لغة: قال في المقاييس: «**الموت، أصلٌ صحيـحٌ يدلّ على ذهاب القوّة من الشيء، منه الموت خلاف الحياة**»[1].

أمـا اصطلاحًا: فقـد ذكر في آيات عديدة مـن القرآن الكريم، منـه ما هو بهذا اللفـظ «**المـوت**»، ومنه ما هو بلفظ التوفّي، الذي يشترك فيه الموت والنوم، وإن كان في الأوّل توفياً كاملاً وتامّاً، وفي الثاني توفيّاً ناقصاً ومؤقّتاً، ولا حاجة ضروريّة لذكر

(1) إبن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مركز النشر، مكتب الإعلام الإسلامي، 1404هـ، ج 5، ص 283.

تلك الآيات لوضوحها وعدم خفاء المقصد منها.

ولكـن هناك آية من تلـك الآيات قد أخـذت حظّها لدى المفسّريـن واختلفوا في المقصود منها وهي آية: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

فقد اختلفوا في تفسير الموت والحياة المذكورين فيهما فقيل:

1. إنّـه تعالـى كنّى بالموت عن الدنيا، إذ هو واقعٌ فيها، وبالحياة عن الآخرة من حيث لا موت فيها، فكأنّه قيل، الذي خلق الدنيا والآخرة[2].

2. وقيل: «**المعنى: خلقكم للموت والحياة، يعني للموت في الدنيا والحياة في الآخرة**»[3].

3. وقيـل: «**الحيـاة هي الصفـة التي يكون الموصوفُ بها، بحيـث يصحّ أن يَعلم ويَقدر**»[4].

ولكـن عند التأمّل، نجد أنّ الآية صريحة فـي خلق الموت والحياة، والخلق لغة هو التقدير، فكأنّ الآية الكريمة تقول الذي قدّر لكم الموت والحياة.

والتقديـر هذا يعني إيجادَ الأسباب التي تؤدّي إلى الموت والحياة، فهناك أسباب تـؤدّي إلى الحياة، كمـا أنّ هناك أسباباً أخرى تؤدّي إلى الموت، وبذلك يكون كلّ من الموت والحياة حالتين عَرَضيتين، إذا ما قيس أحدُهُما إلى الآخر.

وما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال:

«**الحيـاة والمـوت خلقـان من خلق الله، فـإذا جاء الموتُ فدخل فـي الإنسان، لم يدخل في شيء إلا وقد خرجت منه الحياة**»[5]، لا يدلّ على أنّ لهما تحققاً خارجيّاً،

(1) سورة الملك، الآية 2.
(2) الألوسي، تفسير روح المعاني، ج 29، ص 24.
(3) القرطبـي، تفسيـر القرطبي، تحقيـق: عبد العليم البردوني، بيروت – لبنـان، دار إحياء التراث العربي، ج 18، ص 26.
(4) الرازي، التفسير الكبير، ج 3، ص 579.
(5) الكليني، الكافي، ج3، ص259.

فإنّنا لا نراهما بأعيننا، ولم يَرد أن أحداً قد رآهما، أكان معصوماً ومقرّباً من الله أم لم يكن، وعليه يمكن تفسير كلامه عليه السلام بأن يقال: إنّ الحياة والموت تقديران من تقديرات الله عزّ وجلّ فإذا ما كان هذا التقدير لإنهاء حياة الإنسان أو إحيائه، وتحققت الأسباب المُوجبة لأحدهما، فلا مفرّ ولا رادّ لهما، فقوله عليه السلام: «**لم يدخل في شيء إلا وقد خرجت منه الحياة**» يعني: إذا ما تحقّقت أسباب الموت للحيّ بالتقدير الإلهيّ، إلا وقد خرجت منه أسباب الحياة والعكس صحيح.

الموت سنّة إلهيّة عامّة

هذا الموت أكان عن قتل أو عن قبض الرّوح دون واسطة تكوينيّة، لا يمكن أن يفرّ منه أحد ولو كان محصّناً في بروج مشيّدة وقويّة، كما قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[1]. وقال: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾[2]. وقال عزّ وجلّ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾[3].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**ولو أنّ أحداً يَجدُ إلى البقاء سلماً، أو لدفع الموت سبيلاً لكان ذلك لسليمان بن داوود عليه السلام الذي سُخِّر له مُلك الجنّ والإنس**»[4].

جهلنا بساعة الموت

أجمع العلماء على اختلاف مذاهبهم العقائدية الإسلاميّة، على أنّ الموت ليس له سنّ معلوم، ولا أجلٌ معلوم، ولا مرضٌ معلوم، فأمره موكول إلى الله، ولكن هناك ما يسمّى بالأجل والأجل المسمّى، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[5].

(1) سورة النساء، الآية 78.
(2) سورة آل عمران، الآية 185.
(3) سورة الأنبياء، الآية 34.
(4) نهج البلاغة، الخطبة 185.
(5) سورة الأنعام، الآية 2.

والأجل كما ورد في تفسير الآية المباركة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الأجل غير المسمّى موقوف، يقدّم منه ما شاء ويؤخّر منه ما شاء، وأمّا الأجل المسمّى فهو الذي ينزل ممّا يريد أن يكون من ليلة القدر إلى مثلها من قابل، فذلك قول الله:** ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1].

قال الشيخ الصدوق رحمه الله: «**أجلُ موت الإنسان هو وقت موته، وأجلُ حياته هو وقت حياته وذلك معنى قول الله عزّ وجلّ:** ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ **وإن مات الإنسان حتف أنفه على فراشه أو قتل من ساعته، وقد يجوز أن يكون لو لم يُقتل لبقي، وعلمُ ذلك مغيّب عنّا وقد قال الله عزّ وجلّ:** ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[2]، **وقال عزّ وجلّ:** ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾[3]، **ولو قتل جماعة لجاز أن يقال: إنّ جميعهم ماتوا بآجالهم وأنّهم لو لم يقتلوا لماتوا من ساعتهم، كما كان يجوز أن يقع الوباء في جميعهم فيميتهم في ساعة واحدة، وكان لا يجوز أن يقال: إنّهم ماتوا بغير آجالهم، وفي الجملة إنّ أجلَ الإنسان هو الوقت الذي علم الله عزّ وجلّ أنّه يموت فيه أو يقتل**»[4].

هل الموت أمرٌ عدميّ نسبيّ أم عدميّ مطلق؟

ثبت ممّا تقدّم في تفسير الموت، أنّه عدم الحياة، ولكن هل أنّ هذا العدم عدمٌ مطلق أم عدمٌ نسبيّ؟ هذا ما اختلف عليه الإلهيّون مع المادّيّين أيضاً الذين - أي المادّيّين - يَرَوْن عالم الموت عالماً مظلماً ومعتماً، ليس له أيّ واقع، ولذلك يقومون بأعمالهم في هذه الدنيا على أنّها الحياة النهائيّة للإنسان، فيقدمون على كلّ ما

(1) سورة الأعراف، الآية 34.
(2) سورة آل عمران، الآية 154.
(3) سورة الأحزاب، الآية 16.
(4) الصدوق، التوحيد، ص 367.

تشتهيه أنفسهم وضمائرهم! دون رادع لهم عن ذلك، ولذا نشأت في وسطهم مذاهب أخلاقيّة تنسجم مع نظرتهم لهذه الحياة، مثل «**مذهب اللذّة الشخصيّة**» و«**مذهب الضمير**» و«**مذهب القوّة**» إلى غير ذلك من المذاهب الأخلاقيّة المطروحة في وسطهم!!، وعليه فقد قالوا بأنّ الموت أمرٌ عدميّ مطلق، فينقطع الإنسان أو يفنى كليّاً، ولا يبقى له أيّ ارتباط بأيّ شيء بعد ذلك.

أمّا الإلهيون، فقد قالوا بأنّ الموت عدمٌ نسبيّ، أي أنّه ليس أكثر من انتقال من حياة إلى أخرى، فيكون عدماً بالنسبة للحياة الدنيا، وليس كذلك بالنسبة للحياة الأخرى.

فمثله مثل تبدّل التراب إلى نبات، فإنّ التراب لم ينله العدم المطلق، وإنّما عانى الموت النسبيّ، لأنّ الشكل السابق والخواص التي كان عليها قد انتفت، وظهوره بشكل جماد قد انعدم، ولكن إذا كان قد فقد حالة الموت فإنّه قد اكتسب حالة الحياة.

ويشبّهون الموت كذلك بتولّد الجنين من بطن أمّه، فالجنين يموت في الواقع، أي يفقد الحياة في بطن أمّه، لكنّه في نفس الوقت يضع قدمه في عالم أوسع وأفسح، وإذا ما قيس إلى المحيط الذي كان فيه لكان عالماً مملوّاً بالنّعم والجمال.

وبذلك يكون الموت حالة انتقال للإنسان من حياة إلى أخرى، من عالم الدنيا الفانية إلى عالم البقاء، إلى عالم البرزخ ثمّ الآخرة، الذي خلق من أجلها. وعليه الموت عدم إذا ما قيس إلى الحياة الأولى فقط، وهو المقصود من الموت، أي من عدم الحياة الدنيوية.

الموت بيد الله عزّ وجلّ

الموت «**يضادّ الحياة، يبطل معه النموّ، ويستحيل معه الإحساس، وهو محلّ الحياة فينفيها، وهو من فعل الله تعالى ليس لأحد فيه صنع، ولا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى**»[1].

(1) المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق: حسين دور كاهي، بيروت – لبنان، دار المفيد، 1414 هـ – 1993م، ص 74.

قـال عـزّ وجـلّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾[1]، فالحيـاة على اختـلاف أنواعها، والموت على اختلاف أنواعه بيد الله تعالى، فإنّه لا يقدر أيّ مخلوق على صنع الحياة فـي أيّ شيء، إلا إذا أراد الله ذلـك، فالمسيح عليه السلام كان يُحيي الموتى ولكن ما كان ليفعل ذلك، أو لم يكن ليقدر على ذلك لولا إذن الله تعالى، وقد أكّد ذلك لقومه مراراً بقولـه: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡىِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾[2]، الآية، فإحياؤه هذا عليه السلام للموتـى لم يكن إحياء حقيقياً، أي إنّه ليس هـو المُحيي للموتى بشكل مستقلّ دون إرادة الله تعالى وإذنه.

والـذي يـؤدّي إلى الموت بالأسبـاب المختلفة، يرجع إلـى إرادة الله تعالى وإذنه كذلـك، كما الإحياء، وهذا يدخل تحت القـدر والقضاء، الذي يبحث في علم الكلام ليؤكّـد أنّ المـوت أيّـاً كان سببه، يرجع بنهايتـه إلى الذي خلق المـوت والحياة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[3].

(1) سورة المؤمنون، الآية 80.
(2) سورة آل عمران، الآية 49.
(3) سورة الملك، الآية 2.

المفاهيم الرئيسة

- ذكـر الموت في آيات عديدة من القرآن الكريم، منه ما هو بهذا اللفظ، ومنه مـا هو بلفظ التوفّي، الذي يشترك فيه الموت والنوم، وإن كان في الأوّل توفياً كاملاً وتامّاً، وفي الثاني توفّياً ناقصاً ومؤقّتاً.
- المـوت أكان عن قتل أو عن قبض الرّوح دون واسطة تكوينيّة، لا يمكن أن يفرّ منه أحد ولو كان محصّناً في بروج مشيّدة وقويّة.
- أجمـع العلماء على اختـلاف مذاهبهم العقائدية الإسلاميّـة، على أنّ الموت ليسـ له سنّ معلوم، ولا أجلٌ معلوم، ولا مرضٌ معلـوم، فأمره موكول إلى الله سبحانه.
- قـال الإلهيـون، بأنّ الموت عدمٌ نسبيّ، أي أنّه ليسـ أكثر من إنتقال من حياة إلى أخرى، فيكون عدمـاً بالنسبة للحياة الدنيا، وليس كذلك بالنسبة للحياة الأخرى.
- الحيـاة على اختـلاف أنواعها، والموت على اختلاف أنواعـه بيد الله تعالى، فإنّه لا يقدر أيّ مخلوق على صنع الحياة في أيّ شيء، إلا إذا أراد الله ذلك.

أسئلة الدرس

1- ما هو المعنى الاصطلاحي للموت؟

2- ما هو المقصود بجهل الإنسان بساعة موته؟

3- هل أن الموت عدم نسبيّ أم عدم مطلق؟ بيّن ذلك.

خصائص أبناء الآخرة

عن عبد الله بن مسعود قال: نعى إلينا حبيبنا ونبيّنا ﷺ نفسه- فبأبي وأمي ونفسي له الفداء- قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت فنظر إلينا فدمعت عيناه، ثمّ قال: «**مرحبًا بكم، حيّاكم الله، حفظكم الله، نصركم الله، نفعكم الله، هداكم الله، وفقكم الله، سلّمكم الله، قبلكم الله، رزقكم الله، رفعكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، إنّي لكم نذير مبين، ألّا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإنّ الله تعالى قال لي ولكم:** ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]، **وقال سبحانه:** ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[2]»[3].

(1) سورة القصص، الآية 83.
(2) سورة الزمر، الآية 32.
(3) الطوسي، محمّد بن الحسن، الأمالي، قم - إيران، دار الثقافة للطباعة والنشر، ص207، ح354.

الدرس الثامن والعشرون

الاحتضار

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يفهم المقصود من الاحتضار.
2. يذكر الأعمال التي تهوّن سكرات الموت.
3. يذكر الأعمال التي تبعد العديلة.

ما هو المقصود من الاحتضار؟

كلمة الاحتضار مشتقّة من الحضور، وهو إمّا من جهة الفاعل أي أنّ الفاعل يحضر، أو من جهة المفعول به فيكون الفاعل محتضراً هذا المفعول به فيكون الاحتضار.

يمكن توجيه هذه الكلمة إلى مقصودين:

1. إمّا أنّها تعني أنّ الإنسان من خلال هذه الحالة، يصل إلى حضرة الله تعالى أكان مؤمناً أم كافراً على السواء، حيث إنّ الناس جميعهم سيقفون أمام الله بحضرته، فيحاسب كلّ إنسان على أفعاله، فإن كان كافراً كان وصوله إلى تلك الحضرة محفوفاً بغضب الله وسخطه، وإن كان مؤمناً كان وصوله إليها محفوفاً برضى الله وغفرانه.

يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾[1].

أي عندما تصلُ النّفس إلى الحلقوم وتلتفّ ساقاه ببعضهما، يَفهم المحتضر أنّه في لحظة الموت والانتقال من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ، ليساق إلى الله ويسير إلى جهة الله ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾، إذن لا فناء في البين أصلاً، بل توفّ ووفاة، وتستمرّ هذه الحركة إلى أن يصل إلى دار القرار ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[2] مقرّ حضوره سبحانه وتعالى.

(1) سورة القيامة، الآيات، 26 – 30.

(2) سورة القيامة، الآية12.

2. وإمّـا أنّهـا تعنـي حضورَ مَلـك الموت عنـد الإنسان وهذا ما يمكـن فهمُه من بعض الروايات التي تشير إلى حالات الإنسان عند الاحتضار كما سوف يتبيّن، والسكـرة كلمة مأخوذة من مادّة «سُكـر» وهي حالة تحولُ بين الإنسان وعقله، وغالبـاً مـا تستعمل في موارد شرب الخمر، وقـد استخدمت تارة في الحالات الناجمة عن شدّة الغضب، أو الحالات الناجمة عن شدّة الحب الملتهب.

صفة المحتضر

طبقًا للمعتقدات الإسلامية في مسألة الموت، فإنّ الموت ليس شيئًا عدميّا، وهذا مـا أشرنا إليه في الدرس السابق، ولذلك فإنّ الإنسان في كل حالات الموت ومواقفه التـي يمـرّ بها سوف يتلقّـى أمورًا ويواجه أخـرى لم يراها في حياتـه الدنيا، وسوف يعيشـ حالة أخـرى غير تلك التـي كان عليها في الدنيـا، وهذا يرجـع لتغير قوانين الحياة الجديدة عن سابقتها. ومن ذلك حاله حين الاحتضار.

عـن الإمـام عليّ عليه السلام في صفـة المأخوذين على الغـرّة قال: «**اجتمعت عليهم سَكـرة المـوت وحسـرة الفوت، ففترَت لهـا أطرافهم، وتغيّرت لهـا ألوانهم ثمّ ازداد المـوت فيهـم ولوجـاً، فحيـل بيـن أحدهـم وبيـن منطقـه، وإنّـه لبين أهلـه ينظر ببصـره، ويسمـع بأذنه على صحّة من عقله وبقاء من فكره، يفكّر فيمَ أفنى عمره، وفيـمَ أذهـب دهره! ويتذكّر أمـوالاً جمعها، وأشرف على فراقهـا، تبقى لمن وراءه ينعمُـون فيها ويتمتعون بها، فيكون المهنـأ لغيره، والعبءُ على ظهره، والمرء قد غلقـت رهونُـه بهـا، فهو يعضّ يدَه ندامـة على ما أصحرَ له عنـد الموت من أمره، ويزهـدُ فيمـا كان يرغب فيه أيّام عمـره، ويتمنّى أنّ الذي كان يغبطه بها ويحسده عليها قد حازها دونه.**

فلـم يـزل الموت يبالغ في جسـده حتى خالط لسانه سمعـه، فصار بين أهله لا ينطـق بلسانـه ولا يسمـع بسمعه، يردّد طرفـه بالنظر في وجوههـم، يرى حركات

ألسنتهم ولا يسمع رجْعَ كلامهم. ثمّ ازداد الموت التياطاً به فقبض بصره كما قبض سمْعه، وخرجت الروحُ من جسده، فصار جيفة بين أهله...»[1].

شدّة النزع

المقصود بالنزع هو اللحظات التي يكون فيها خروج الروح من الجسد، ولهذه الحالة وقعها الصعب على الإنسان.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**احضروا موتاكم ولقّنوهم لا إله إلا الله وبشّروهم بالجنّة، فإنّ الحليم من الرجال والنساء يتحيّر عند ذلك المصرع، وإنّ الشيطان أقرب ما يكون من ابن آدم عند ذلك المصرع، والذي نفسي بيده! لمعاينة ملك الموت أشدّ من ألف ضربة بالسيف، والذي نفسي بيده! لا تخرج نفسُ عبدٍ من الدنيا حتى يتألمَ كلّ عرقٍ منه على حياله**»[2].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً قال: «**لو علمت البهائم من الموت ما علم ابن آدم، ما أكلوا منها لحماً سميناً**»[3].

وعن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال: «**فإنّكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزَعْتم ووهلتم، وسمعتم وأطعتم، ولكن محجوبٌ عنكم ما قد عاينوا وقريبٌ ما يُطرح الحجاب**»[4].

حال الكافر عند الاحتضار

عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**إن كان لأوليائنا مُعادياً، ولأعدائنا مُوالياً، ولأضدادنا بألقابنا ملقباً، فإذا جاءه ملك الموت لنزع روحه، مَثل الله عزّ وجلّ لذلك الفاجر سادته الذين اتخذهم أرباباً من دون الله، عليهم من العذاب ما يكاد**

(1) نهج البلاغة، الخطبة 109.
(2) الهندي، كنز العمال، بيروت – لبنان، مؤسسة الرسالة، 1409هـ – 1989م، ج 15، ح 42158.
(3) المصدر نفسه، ح 42142.
(4) نهج البلاغة، الخطبة 20.

نظرُه إليهم يُهلكه، ولا يزال يصل إليه من حرّ عذابهم ما لا طاقة له به، فيقول له ملك الموت: يا أيّها الفاجر الكافر، تركت أولياءَ الله إلى أعدائه؟! فاليوم لا يُغنون عند الله شيئاً، ولا تجد إلى مناص سبيلاً، فيردّ عليه من العذاب ما لو قسّم أدناه على أهل الدنيا لأهلكهم»[1].

ما يراه المحتضر من الآخرة

عن أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لمحمّد بن أبي بكر لمّا ولّاه مصر: «احذروا يا عباد الله الموتَ وسكراته، وأعدّوا عدّته، فإنّه يَفجؤكم بأمر عظيم، بخير لا يكون معه شرّ أبداً، أو بشرّ لا يكون معه خيرٌ أبداً.... إنّه ليس أحدٌ من الناس تفارق روحُه جسَده، حتى يعلم إلى أيّ المنزلين يصير، إلى الجنّة أم النار، أعدوّ هو لله أم وليّ، فإن كان وليّاً لله فتحت له أبوابُ الجنّة وشرع له طرقها ورأى ما أعدّ الله له فيها، ففزع من كلّ شُغل ووُضع عنه كلّ ثقل، وإن كان عدوّاً لله فتحت له أبوابُ النار وشرّعت له طرُقها، ونظر إلى ما أعدّ الله له فيها، فاستقبل كلّ مكروه وترك كلّ سرور. كلّ هذا يكون عند الموت، وعنده يكون اليقين، قال الله عزّ اسمه: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]»[3].

تمثّل النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة للمحتضر المؤمن

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «انظروا من تحادثون؟ فإنّه ليس من أحد ينزل به الموتُ إلا مثُل له أصحابُه إلى الله، إن كانوا خياراً فخياراً، وإن كانوا شراراً فشراراً، وليس أحدٌ يموت، إلا تمثّلتُ له عند موته»[4].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج 6، ح 1، ص 176.
(2) سورة النحل، الآية 28.
(3) الطوسي، الأمالي، ص 27.
(4) الكليني، الكافي، ج 2، ص 638، ح 3.

وعـن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**مـن أحبّني وجدني عند مماتـه بحيث يُحبّ، ومن أبغضني وجدني عند مماته بحيث يَكره**»[1].

ما يهوّن سكرات الموت

ذكـر في روايات أهـل البيت عليهم السلام بعض الأمـور التي تُخفّف مـن وطأة سكرات المـوت التـي تعتبر من أشـدّ ما يتلقّـاه الإنسان عنـد احتضاره ونـزع روحه، ويمكن إيرادها ضمن العناوين التالية:

1. **صلة الرّحم:**

عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال:

«**مـن أحـبّ أن يخفّف الله عزّ وجلّ عنه سكرات المـوت، فليكن لقرابته وصولاً وبوالديـه بـارّاً، فإذا كان كذلك هـوّن الله عزّ وجلّ عليه سكـرات الموت، ولم يُصبْه في حياته فقرٌ أبداً**»[2].

2. **برّ الوالدين:**

رُويَ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حضَرَ شابّاً عند وفاته فقال له: «**قل: لا إله إلا الله.**

قال: فاعتقل لسانُه مراراً.

فقال لامرأة عند رأسه: «**هل لهذا أمّ**»؟

قالت: نعم أنا أمّه.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أفساخطة أنت عليه**»؟

قالت: نعم ما كلّمته منذ ستّة حجج.

(1) صحيفـة الإمـام الرضا عليه السلام، تحقيق: محمد مهدي نجف، بيروت – لبنـان، دار الأضواء، 1986م، ط 2، ح 86، ص 203.

(2) الطوسيّ، الأمالي، ج 1، ص 67، ح 9.

قال ﷺ لها: «**ارضي عنه**».

قالت: رضي الله عنه يا رسول الله برضاك عنه.

فقال له رسول الله ﷺ: «**قل: لا إله إلا الله**»، فقالها.

فقال له النبي ﷺ: «**ما ترى**»؟

قال: أرى رجلاً أسودَ الوجه قبيحَ المنظر وسِخ الثيابِ منتن الرّيح قد وَليني الساعة، وأخذ بكظمي.

فقال له النبي ﷺ: «**قل: يا من يقبلُ اليسيرَ ويعفو عن الكثير إقبل منّي اليسيرَ واعفُ عنّي الكثير إنّك الغفورُ الرّحيم**». فقالها الشاب.

فقال له النبيّ: «**انظرْ ماذا ترى**»؟

قال: أرى رجلاً أبيضَ اللون حسن الوجه طيّبَ الرّيح حسنَ الثياب قد وليني. وأرى الأسودَ قد تولّى عنّي.

فقال له: «**أعدْ**»، فأعاد. فقال له: «**ما ترى**»؟

قال: لست أرى الأسودَ، وأرى الأبيضَ قد وليَني. ثمّ طفيَ على تلك الحال[1].

إنّ صلة الرّحم وبرّ الوالدين من أخطر الواجبات التي ينبغي للمؤمن أن يهتمّ بها، ولذا فإنّ الله تعالى قد ذكرهما في كتابه المحكم وشدّد النكير على تاركهما، بل قرَنَ عبادته ببرّ الوالدين، وقطع من قطع صلة الرّحم، وإن دلّ ذلك على شيء إنّما يدلّ على الأثر الإيجابيّ الواقع من جرّاء القيام بهما، وعلى الأثر السلبيّ من جراء تركهما، ولكن ما نعيشه اليوم من انشغالات في مادّيّاتنا وحاجياتنا وكثرة متطلباتنا ينحو بنا كلّ ذلك لأن تكون أنفسنا مشغولة فقط بأنفسنا، بل ربّما ينسى أحدُنا أنّ له قرابة وأنّ لوالديه عليه واجباً، فيحسب نفسَه أنّه مبرأ الذمّة وأنّ لديه حجة، ولكن

(1) الطوسي، الأمالي، ج 1، ص 62 – 63، ح 4.

على من؟ إنّ الساعة آتيـة، ولقاء اللّه قريب، وسوف تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء.

العديلة عند الموت

وهـي تعني العدولَ من الحـقّ إلى الباطل في وقت المـوت والاحتضار، وذلك بأن يحضـر الشيطان عنـد المحتضر ويوسوس لـه حتّى يوقعه في الشـكّ، ويخرجه من الإيمان إلى الشرك والكفر، في لحظة حرجة يحتاج فيها الإنسان إلى الثبات والتوفيق للرحيل إلى ذاك العالم وهو مرضيّ عنه عند اللّه عزّ وجلّ.

ما هي الأعمال التي تبعد العديلة؟

1. الحفـاظ على أوقـات الصلوات: في حديث لرسـول اللّه ﷺ وقد ذكر أنّ ملك الموت قال: «... **إنّه ليس في شرقها ولا غربها أهل بيت مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلا وأنـا أتصفحهـم فـي كلّ يوم خمس مرّات، قـال ﷺ: إنّما يتصفّحهم فـي مواقيـت الصلاة، فـإن كان ممّـن يواظب عليها عنـد مواقيتها لقّنه شهـادة أن لا إلـه اللّه، محمّـداً رسـول اللّه ﷺ، ونحّـى عنه مَلَـكُ الموت إبليس**»[1].
2. قـراءة سـورة المؤمنـون: وذلك في كلّ نهـار جمعة، عن الإمـام أبي عبد اللّه الصادق عليه السلام قال: «**من قرأ سورة المؤمنون ختم اللّه له بالسعادة، وإذا كان يُدمـن قراءتهـا في كلّ جمعـة كان منزله في الفردوس الأعلـى مع النبيّين والمرسلين**»[2].

(1) الكليني، الكافي، ج 3، ص 136.
(2) الصدوق، ثواب الأعمال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، قم - إيران، منشورات الرضا عليه السلام، ص 135.

3. ذكر آية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

4. المواظبة على تسبيح الزهراء عليها السلام.

5. التختّم بخاتم عقيق.

6. دعاء العديلة (تجده في كتاب مفاتيح الجنان).

(1) سورة آل عمران، الآية 8.

المفاهيم الرئيسة

- كلمة الاحتضار مشتقّة من الحضور، وهو إمّا من جهة الفاعل – أي أنّ الفاعل يحضر –، أو من جهة المفعول به – فيكون الفاعل محتضراً هذا المفعول به – فيكون الاحتضار.
- المقصود بالنزع هو اللحظات التي يكون فيها خروج الروح من الجسد، ولهذه الحالة وقعها الصعب على الإنسان.
- ما يهوّن سكرات الموت:

1. صلة الرّحم.
2. برّ الوالدين.

- ما هي الأعمال التي تبعد العديلة؟

1. الحفاظ على أوقات الصلوات.
2. قراءة سورة المؤمنون.
3. ذكر آية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾
4. المواظبة على تسبيح الزهراء عليها السلام.
5. التختّم بخاتم عقيق.
6. دعاء العديلة.

أسئلة الدرس

1- هناك احتمالان للمقصود من كلمة الاحتضار، تكلم عنهما.

2- اذكر الأعمال التي تهوّن سكرات الموت.

3- ما هو المقصود بالعديلة، واذكر الأعمال التي تبعدها عن الإنسان.

من أقوال لقمان الحكيم

قال لقمان لابنه: يا بني، أمر لا تدري متى يلقاك، استعد له قبل أن يفجأك. والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو: فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات، لتكدّرت عليه لذّته وفسد عليه عيشه. وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع، وهو عنه غافل. فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور. واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها، إما بالقياس إلى الآلام التي أدركها، وإما بالاستدلال بأحوال الناس في النزع على شدة ما هم فيه. فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم. فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح. فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرى الأثر إلى الروح، فبقدر ما يسري إلى الروح يتألم. والمؤلم يتفرق على اللحم، والدم، وسائر الأجزاء، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم. فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره، فما أعظم ذلك الألم وما أشده! والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح، فاستغرق جميع أجزائه، حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم [1].

(1) الفيض الكاشاني، المحجة البيضاء، مؤسسة النشر الإسلامي، 1417هـ، ط4، ج8، ص252.

الدرس التاسع والعشرون

عالَمُ ما بَعدَ الموتِ(1)

عالم البرزخ

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى البرزخ لغةً واصطلاحًا.
2. يذكر بعض الآيات الدالة على حياة البرزخ.
3. يذكر بعض الروايات الدالة على البرزخ.

معنى البرزخ لغةً واصطلاحًا

لغة: «**البرزخ الحائل بين الشيئين، كأنّ بينهما برازاً أي متسعًا...**»[1].

أما اصطلاحًا: فهو النشأة الأخرى التي ينتقل إليها الإنسان بعد الموت، ويبقى فيها إلى قيام الساعة وبعث من في القبور، فتكون مرحلة وسطى بين عالم الدنيا وعالم الآخرة، فالموت حينئذٍ ليس إلا جسر انتقال من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى التي تبدأ بعالم البرزخ والقبر.

ينال الإنسان في ذاك العالم أنواع النعيم وأنواع العذاب، كل امرئٍ حسب أعماله، وبالتالي فإن عالم البرزخ يؤكد عدم فناء الإنسان بالموت، إنّما بقاءَه.

ويوكّد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، أنّه قال: « **خلقنا للبقاء، وكيف تفنى جنّة لا تبيد، ونار لا تخمد؟، ولكن قل: إنّما نتحرّك من دار إلى دار**»[2].

البرزخ في الكتاب والسنّة

لا نعلم عن حقيقة البرزخ شيئاً واضحاً وكاملاً، سوى ما جاء في القرآن والأحاديث من إشارات وذكر لبعض أجوال جنّة البرزخ وناره، ولنذكر طائفة من الآيات والأحاديث بغية التعرّف على ملامح تلك النشأة.

(1) ابن زكريا، مقاييس اللغة، ج1، ص333.

(2) الصدوق، علل الشرائع، باب 9، علّة خلق الخلق، ص11.

1. الآيات القرآنيّة:

أ. إنّ المحتضر إذا وقف على سوء مصيره يتمنّى عوده إلى الدنيا ليتدارك ما فات منه، يقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ﴾[1]. ولكن يخيب سعيه، ويُردُّ طلبه، ويقال له: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾[2]. والآية تحكي عن وجود حياة برزَخية مخفية للمشركين.

ب. ويصف حياة المجرمين، ولاسيما آل فرعون، بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾[3]. فالآية تحكي عن أنّ آل فرعون يعرضون على النار صباحاً ومساءً، قبل القيامة. وأمّا بعدها فيقحمون في النار.

ج. ويصف سبحانه حياة الشهداء في تلك النشأة، بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾[4]. ويصف في آية أخرى حياة الشهداء بقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[5].

2. الرّوايات:

وفيما يلي نماذج من الروايات التي تثبت حياة البرزخ، نضعها ضمن العناوين التالية:

أ. **أرواح المؤمنين تتنعّم في القبر:** ورد في تفسير علي بن إبراهيم عن الإمام

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 99 و 100.
(2) سورة المؤمنون، الآية 100.
(3) سورة غافر، الآية 46.
(4) سورة البقرة، الآية 154.
(5) سورة آل عمران، الآية 170.

الصـادق عليه السلام أنّه قال في قوله تعالـى ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[1] قال: «**ذلك في جنّات الدنيا قبل القيامة، والدليل على ذلك قوله ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، فالبكـرة والعشيّـة لا تكونان في الآخرة في جنـات الخلد، وإنما يكون الغداة والعشـي فـي جنـات الدنيا، التي تنتقـل إليهـا أرواح المؤمنيـن وتطلع فيها الشمس**»[2].

ب. **أرواح الكافريـن تتعـذّب فـي القبـر:** ورد في تفسير القمّـي أنّ رجلًا قال لأبي عبدالله عليه السلام: «**ما تقول في قـول الله عزّوجلّ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾**[3] **فقـال أبو عبـدالله عليه السلام: ما تقول النـاس فيها؟ فقال: إنّها دار الخلد وهم لا يعذبون فيما بين ذلك، فقال عليه السلام: فهم من السعداء، فقيل لـه: جعلـت فـداك، فكيف هذا؟ فقال: إنمـا هذا في نار الدنيـا، فأمّا في نار الخلد فهو قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾**[4]»[5].

ج. **أرواح المؤمنين تنتقل إلى وادي السلام:** عن حبّة العرنيّ عن أمير المؤمنين عليه السلام فـي حديث قال: «**مـا من مؤمن يمـوت في بقعة من بقـاع الأرض إلا قيل لروحه: الحقي بوادي السلام، وإنّها لبقعة من جنّة عدن**»[6].

د. **أرواح الكافريـن تنتقـل إلـى وادي برهـوت:** عن أبـي عبدالله الصادق عليه السلام قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: شرّ اليهود يهود بيسان**[7]**، وشر النصارى نصارى نجران**[8]**، وخير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، وشرّ ماء على وجه الأرض**

(1) سورة مريم، الآية 62.
(2) القمي، تفسير القمي، تحقيق: طيب الموسوي الجزائري، منشورات مكتبة الهدى، ج1، ص53.
(3) سورة غافر، الآية 46.
(4) سورة غافر، الآية 46.
(5) القمي، تفسير القمي، ج2، ص229.
(6) الكليني، الكافي، ج3، كتاب الجنائز، ص243، ح1.
(7) بيسان: قرية بمرو وموضع بالشام وقرية باليمامة.
(8) نجران: موضع بالبحرين.

ماء برهوت، وهو واد بحضر موت يرد عليه هام[1] الكفار وصداهم»[2].

هذا وهناك الكثير من الروايات التي تحكي حياة البرزخ، إلا أن المقام هنا لا يسع لذكرها جميعًا.

سؤال القبر

تبتدأ الحياة البرزَخية بقبض الروح من البدن، وعندما يودِع بدن الإنسان في القبر، يأتي إليه ملائكة الربّ فيسألونه عن التوحيد والنبوّة وأُمور عقائدية أُخرى، ومن الواضح أنّ إجابة المؤمن ستختلف عن إجابة الكافر وبالتالي يكون عالم البرزخ مظهراً من مظاهر الرحمة للمؤمن، أو مصدراً من مصادر النقمة والعذاب للكافر.

إنّ السؤال في القبر وما يستتبع من الرحمة أو العذاب من الأمور المسلّمة عند أئمة أهل البيت، وفي الحقيقة إنّ القبر يُعدّ أُولى المراحل للحياة البرزخية التي تدوم إلى أنْ تقوم الساعة.

ورد عن أمير المؤمنين أنه قال: «**حتى إذا انصرف المشيّع ورجع المتفجّع، أقعد في حفرته نجيًا لبهتة السؤال وعثرة الامتحان**»[3].

وعن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[4] قال: «**في القبر إذا سئل الموتى**»[5].

(1) المقصود بها أرواحهم.
(2) الكليني، الكافي، ج3، كتاب الجنائز، باب آخر في أرواح الكفار، ح4، ص248.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج 6، ص 228، ح 29.
(4) سورة إبراهيم، الآية 27.
(5) المجلسي، بحار الأنوار، ج 6، ص 228.

أقوال العلماء في المساءلة في القبر

قـال الشيخُ الصـدوق: اعتقادُنا في المساءلة في القَبـر، أنَّه حقٌّ لا بدَّ منها، فمن أجـابَ بالصواب فازَ برَوح ورَيحان في قَبره، وبجَنّة النعيم في الآخرة، ومَن لم يُجِبْ بالصَّواب فَلهُ نُزُلٌ من حميم في قبره، وتَصْلِيةُ جَحيم في الآخرة[1].

وقـال الشيـخُ المفيد في كتابه «**تصحيـحُ الاعتقاد**»: جاءَت الآثـارُ الصحيحة عن النبـيّ ﷺ أنّ الملائكة تنزل على المقبُورين فتسألُهم عن أدْيانهم، وألفاظُ الأخبار بذلـك متقاربـة فمنها أنّ مَلكَيـن للّه تعالى يُقالُ لهما ناكر ونكيـر ينزلان على الميّت فَيَسألانـه عـن رّبه ونبيِّه ودينه وإمامه، فإنْ أجابَ بالحـق سَلَّموهُ إلى ملائكة النَّعيم، وإن ارتجَّ عليه سَلَّموهُ إلى ملائكة العَذاب[2].

وقال المحقّق نصيرُ الديـن الطوسي في كتابه: «**تجريد الاعتقاد**» أيضاً: وعذابُ القبر واقعٌ لإمكانه، وتواتُر السَّمع بوقوعه[3].

ومـن راجَعَ كتب العقائد لدى سائر المذاهب الإسلامية اتّضح له أنّ هذه العقيدة هـي موضع اتفاق بين جميع المسلمين، ولم يُنسَب إنكار عذاب القبر إلاّ إلى شخص واحدٍ هو «**ضرار بن عمرو**»[4].

(1) الصـدوق، الاعتقـادات فـي دين الإمامية، تحقيـق: عصام عبد السيـد، بيروت- لبنـان، دار المفيد، 1414هـ- 1993م، الباب 17، ص 58.

(2) المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص 99.

(3) الحلي، كشف المراد، المقصد 6، المسألة 14.

(4) راجـع كتـاب «السنة» لأحمد بـن حنبل؛ و«الإبانة» لأبي الحسـن الأشعري؛ وشرح الأصـول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي.

المفاهيم الرئيسة

- النشأة الأخرى هي التي ينتقل إليها الإنسان بعد الموت، ويبقى فيها إلى قيام الساعة وبعث من في القبور، فتكون مرحلة وسطى بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.
- البرزخ في الآيات القرآنيّة:

1. إنّ المحتضر إذا وقف على سوء مصيره يتمنّى عوده إلى الدنيا ليتدارك ما فات منه.
2. ويصف حياة المجرمين، لاسيما آل فرعون، بقوله: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾.
3. ويصف سبحانه حياة الشهداء في تلك النشأة، بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾.

- هناك روايات عديدة تدل على حياة البرزخ كالتي تحكي عن: السؤال في القبر وأنّ أرواح المؤمنين تتنعّم في القبر، وأرواح الكافرين تتعذّب في القبر، وأنّ أرواح المؤمنين تنتقل إلى وادي السلام وأرواح الكافرين تنتقل إلى وادي برهوت...

أسئلة الدرس

1- ما معنى البرزخ اصطلاحًا؟
2- اذكر آيتين تشيران إلى عالم البرزخ.
3- ما هي عقيدة الشيعة في المساءلة في القبر؟.

العلّة التي من أجلها يكون عذاب القبر

عن الإمام أبي عبد الله الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقيل: إنّ سعد بن معاذ قد مات، فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقام أصحابه، فحمل، فأمر فغسل على عضادة الباب، فلما أن حنط وكفن وحمل على سريره تبعه رسول الله، ثمّ كان يأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة حتى انتهى به إلى القبر، فنزل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى لحده، وسوى عليه اللبن، وجعل يقول: ناولني حجراً، ناولني تراباً رطباً يسد به ما بين اللبن، فلما أن فرغ وحثا التراب عليه وسوّى قبره، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إني لأعلم أنه سيبلى ويصل إليه البلى، ولكن الله تعالى يحب عبداً إذا عمل عملاً فأحكمه، فلما أن سوى التربة عليه، قالت أم سعد من جانب: هنيئاً لك الجنّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أم سعد مه، لا تجزمي على ربك، فإن سعداً قد أصابته ضمة، قال: ورجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ورجع الناس، فقالوا: يا رسول الله لقد رأيناك صنعت على سعد ما لم تصنعه على أحد، إنّك تبعت جنازته بلا رداء، ولا حذاء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إنّ الملائكة كانت بلا حذاء، ولا رداء، فتأسيت بهم، قالوا: وكنت تأخذ يمنة السرير مرة ويسرة السرير مرة، قال: كانت يدي في يد جبرئيل، آخذ حيث ما أخذ، فقالوا: أمرت بغسله وصليت على جنازته ولحدته، ثمّ قلت: إنّ سعداً قد أصابته ضمة، قال: فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم إنه كان في خلقه مع أهله سوء»[1].

(1) الصدوق، علل الشرائع، ج1، ص406، ح4.

الدرس الثلاثون

عالم ما بعد الموت (2)

المعاد

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن كيف أنّ المعاد ضرورة من الضروريات.
2. يردّ على بعض الشبهات المطروحة حول المعاد.
3. يبيّن الفرق بين المعاد والتناسخ.

مقدمة

تَتّفِـقُ جميـعُ الشَرائـع السَّماويّـة على لـزوم الإيمـان بالآخرة ووجـوب الاعتقاد بالقيامة، فقد تحدّث الأنبياء جميعاً – إلى جانب التوحيد – عن المَعاد، وعالم ما بعد الموت أيضاً. وجَعَلُوا الإيمان باليوم الآخر في طليعة ما دَعَوا إليه. وعلى هذا الأساس يكونُ الاعتقاد بالقيامة من أركانِ الإيمان في الإسلام.

إنّ مسألـةَ المعاد وإن طُرِحَت في كتاب العهدين (التـوراة والإنجيل معاً) إلاّ أنّها طُرحت في العَهد الجديد بشكل أوضح، ولكنّ القرآنَ الكريمَ اهتمّ بهذه المسألة أكثر مـن جميع الكتب السماوية الأخرى، حتى أنَّهُ اختص قسمٌ عظيمٌ من الآيات القرآنيّة بهذا الموضوع.

وقـد أُطلـق على المعاد في القـرآن الكريم أسمـاءٌ كثيرة مثل: يـوم القيامة، يوم الحِساب، اليوم الآخر، يوم البعث وغير ذلك. وعلّة كلّ هذا الاهتمام والعِناية بمسألة القِيامة هي أن الإيمان والتديّن من دون الاعتقاد بيوم القيامة غير مثمر.

ضرورة المعاد

لقد أقام الحكماء والمتكلّمون المُسلمون أدلّة عديدة ومتنوعة على ضرورة المعاد، وحيـاة ما بعد الموت، وفي الحقيقة كان القـرآن الكريم هو مصدر الإلْهام في جميع هذه الأدلّة. من هنا فإننا نذكر بعضَ الدلائل القرآنيّة على هذه المسألة:

1. إنّ اللّه تعالى حقٌّ مطلقٌ، وفعلُهُ كذلك حقٌّ، منزَّهٌ عن أي باطل ولغو. وخَلق الإنسان من دون وجود حياة خالدة سيكون لغواً وعبثاً كما قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

2. إنّ العدلَ الالَهيَّ يوجبُ أن لا يعامَل المحسنون والمسيئون في مقام الجزاءِ على شكلٍ واحد.

ومن جانبٍ آخر إنّه لا يمكن تحقّقُ العدالة الكاملة بالنسبة إلى الثَّواب والعقاب في الحياة الدنيوية، لأنّ مصيرَ كلا الفريقين في هذا العالم متداخلين وغير قابلين للتفكيك والفَصل. ومن جهة ثالثة فإنّ لبعض الأعمال الصالحة، والطالحة جزاءً لا يسع له نطاقُ هذا العالم. فَمَثَلاً هناك من ضَحّى بنفسه في سَبيل الحق، وهناك من خضّب الأرض بدماء المؤمنين.

ولهذا لا بُدَّ من وجود عالم آخر يتحقَّق فيه العدلُ الإلَهيّ الكامل في ضوءِ الإمكانات غير المتناهية. كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[2].

ويقولُ تعالى أيضاً: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾[3].

3. إن خلقَ البشر بَدَأَ في هذا العالمَ من ذَرّة حقيرة ثم ترقّى في مدارج الكمال الجسمي شيئاً فشيئاً، حتى بَلَغَ مرحلةً نُفِخَت فيها الرُّوح في جسمه. وَقدْ وَصَفَ القرآنُ الكريمُ، خالقَ الكون بكونه «**أحسنَ الخالقين**» نظراً إلى تكميل خلقِ هذا الموجودِ المتميّز.

(1) سورة المؤمنون، الآية 115.
(2) سورة ص، الآية 28.
(3) سورة يونس، الآية 4.

ثـم إنّه ينتَقـل بالمَوْت من مَنْزلـه الدنيويّ إلى عالـم آخر، يُعتَبَر كمـالاً للمرحلة المتقدّمـة وقد أشار القرآن الكريم إلى هـذا المعنى إذ قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[1].

جواب الشبهات المثارة حول المعاد

لقد طَرَحَ مُنكرو القيامة والمعاد في عصر نزول القرآن، شُبُهات ردّ عليها القرآن، ضمن توضيحه لأدلّة وجود المعاد. وفيما يلي بعضُ هذه الموارد:

1. تارةً يؤكّدُ القرآنُ الكريم على قدرة اللّٰه المطلقة فيقول تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

2. وتارةً يُذكّر بأنّ الذي يقدرُ على خَلق الإنسان ابتداءً قادرٌ على إعادته، ولملمة رفاتـه، وإرجاع الروح إليه ثانيّة. فهو مَثَلاً ينتقـدُ قولَ المنكرين للمعاد قائلاً: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ﴾؟ ثم يقول: ﴿قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾[3].

3. وفـي بَعض المـوارد يُشَبِّهُ إحْياءَ الإنسان بعدَ مَوْتـه بإعادة الحَياة إلى الأرض فـي فَصْل الرَّبيع بعد رقدة شتائيّة من جديد ووِلـوج الحياة في الطبيعة وعلى هذا يقيسُ المعادَ وعودةَ الرُّوح إلى الموتى، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[4].

(1) سورة المؤمنون، الآيات 14 – 16.
(2) سورة هود، الآية 4.
(3) سورة الإسراء، الآية 51.
(4) سورة الحج، الآيات 5 – 7.

4. في الإجابة على هذه الشُّبهة التي تقول «**من يُحيي العظام**» وقد أصبحت رميماً، وَكَيف يَجمعُها وقد ضاعَت في الأرض ويخلق منها جَسَداً كالجسد الأول؟ يقولُ سبحانه: ﴿...بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1]. وفي موضع آخَر يُخبرُ عَن ذلك العلم الواسع قائلاً: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾[2].

5. ربّما يتصوّر أنّ الإنسان يتألف من أجزاء جسمانيّة، وأعضاء ماديّة تنحل بموته وتستحيل إلى تراب. فكيف يكون الإنسان يوم القيامة هو عينه في الحياة الدنيا، وبعبارة أُخرى ما هي الصلة بين البدن الدنيوي والأخروي كي يحكم بوحدتهما؟ والقرآن ينقل تلك الشبهة عن لسان الكافرين ويقول: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ﴾[3]. ثُمّ يعود ويجيب عليها بقوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[4].

ويكمن حاصل الجواب في الوقوف على معنى «التوفّي» المأخوذ في الآية. الذي هو «الأخذ»، وهو يعرب أنّ للإنسان وراء البدن الذي يبلى حين موته شيئاً آخر يأخذه ملك الموت وهي الروح، فحينها تتضح إجابة القرآن عن الشبهة.

وهي أنّ ملاك وحدة البدنين والحكم بأنّ البدن الأخروي هو عين البدن الدنيوي – مضافاً إلى وحدة الأجزاء – هي الروح المأخوذة من قِبَل ملك الموت، فإذا ولجت نفس الأجزاء يكون المعاد عين المبتدأ. فيستفاد من هذه الآية ونظائرها أنّ الإنسان المحشور يوم البعث هو عينه الموجود في نشأة الدنيا، قال سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾[5].

(1) سورة يس، الآية 81.
(2) سورة ق، الآية 4.
(3) سورة السجدة، الآية 10.
(4) سورة السجدة الآية 11.
(5) سورة يس، الآية 79.

معاد الإنسان هو جسمانيّ وروحانيّ

صرّحت الآيـات القرآنيّة والأحاديث بأنّ معاد الإنسان: جسماني وروحاني، ويراد مـن الأوّل هو حشـر الإنسان ببدنه في النشـأة الأخرى، وأنّ النفـس الإنسانيّة تتعلّق بذلـك البـدن في تلك النشـأة فيثاب أو يعاقـب بأُمور لا غنى فـي تحقّقها عن البدن والقوى الحسية.

ويـراد من الثاني أنّ للإنسـان وراء الثواب والعقاب الحسيّين لـذّات وآلام روحيّة ينالهـا الإنسـان دون حاجة إلى البدن، وقد أُشير إلى هـذا النوع من الجزاء في قوله سبحانـه: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]، وقـال سبحانـه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[2]. فرضوانـه سبحانـه من أكبر اللذائذ للصالحين، كما أنّ الحسرة من أكبر الآلام للمجرمين.

تفسير المعاد بالتناسخ وردّه

لقَد اتّضحَ مّما سبق أَنّ حقيقةَ المَعاد هي أنّ الرُّوح بعد مفارَقَتها للجَسَد تعودُ مرة أُخـرى ـ وبإذن اللّه ومشيئته ـ إلى نفس البدن الذي عاشت به ليلقى الإنسان جزاءَ ما عَمِلَهُ في الدنيا، في العالم الآخر، إنْ خيراً فخيرٌ، وإنْ شراً فشرّ.

ولكـن ثمَّتَ من يُنكر «**المعـاد**» الذي دَعَت الشرائعُ السماويـةُ إلى الإيمان به، وإن أقـرّوا بمسألة الثـواب والعقاب، الذي يلحق أعمـال البَشَر، إلاّ أنّهـم فسروه بطريق «**التناسـخ**». إنّهـم ادّعَـوا أنّ الـرُّوح تعودُ مرّةً أُخـرى إلى العالـم الدنيوي عن طريق تعلّقهـا بالجنين، وعبْر طيّ مراحلِ الرُّشد والنموّ، ويطوي دورات الطفولة، والشباب، والشيخوخـة، غاية ما فـي الأمر، يحظى أصحـاب الأعمال الصالحـة بحياة لذيذة جميلة، بينما يعاني أصحاب الأعمال الفاسدة من حياةٍ مُرّةٍ وقاسيةٍ. فهي إذن ولادةٌ

(1) سورة التوبة، الآية 72.
(2) سورة مريم، الآية 39.

جديـدةٌ، تتبعُهـا حياةٌ سعيـدةٌ أو تعيسةٌ. ولقـد كانَ لعقيدة التناسخ هـذه على طول التاريخ البشريّ أنصار ومؤيّدون، وتُعَدُّ إحدى أُصول الديانة الهندوسية.

ويجـب أن نَنتبـه إلى هذه النقطة، وهـي أنّ النفوسَ والأرواح البشرية إذا سَلكتْ طريـقَ التناسـخ بصورة دائمية لم يبـق مجالٌ للمعاد والقيامة، والحـال أنّ الاعتقاد بالمعاد أمرٌ ضروريٌّ وبديهيٌّ في ضوءِ أدلّته وبراهينه العقلية والنقلية. وفي الحقيقة لا بدّ أن يُقال: إنّ القائلين بالتناسخ حيث إنّهم لم يتمكّنوا من تصوّر «**المعاد**» بصورته الصحيحة أَحلُّوا «**التناسخَ**» محلَّه، واعتقدوا به، بَدَلَ الاعتقاد بالمعاد.

إنّ التناسـخَ في المنطق الإسلاميّ يستلزم الكفرَ، ولقد بُحِثَ في كتبنا الاعتقادية وأُثبِتَ بطلانه، وعدم انسجامه مع العقائد الإسلاميّة بشكلٍ مفصَّلٍ، ونحن نشير هنا إلى ذلك باختصار:

1. إنّ النّفس والرّوحَ البشرية تكون قد بلغت عند الموت مرتبة من الكمال.

وعلـى هـذا الأساس فـإنّ تعلُّق الـروح المجـدّد بالجنين بحكـم لُـزُوم التناسق والانسجام بين «**النّفْس**» و«**البَدَن**» يستلزمُ تنزُّل النّفْس من مرحلة الكمال إلى مرحلة النقـص، والفعليَّة إلى القُوّة، وهو يتنافى مع السُّنّة الحاكمة على عالم الخَلق (المتمثّلة في السَّير التكامليّ للموجودات من القوّة إلى الفعل).

2. إذا قَبلنـا بأن النفـس تتعلّق بعد الانفصال من البَدَن، ببدنٍ حيٍّ آخر، فإنَّ هذا يستلزمُ تعلّق نفسين ببدنٍ واحد، ونتيجته هي الازدواجيّة في الشخصيّة، ومثلُ هذا المطلب يتنافى مع الادراك الوجداني للإنسان عن نفسه التي لا تمتلك إلاّ شخصيّةً واحدةً لا شخصيّتين[1].

3. الاعتقـاد بالتناسُخ مع أنّـه يتنافى مع السُنّة الحاكمة علـى نظام الخلق يعتبر بنفسـه ذريعة للظالمين والنفعيّين الذين يـرون أنَّ عزَّتَهم ورفاههم الفعليّين

(1) الحلي، كشف المراد، المقصد الثاني، الفصل الرابع المسألة الثامنة.

نتيجةٌ لطهارة أعمالهم في حياتهم المتقدمة، ويرونَ أن شقاء الأشقياء كذلك نتيجةٌ لسوءِ أعمالهم في المرحلة السابقة، وبهذا يبرِّر هؤلاء الظَّلَمة أعمالَهم القبيحة، ووجود الظُّلم والجور في المجتمعات التي تخضع لسلطانِهم.

الفرق بين المسخ والتناسخ

في ختام البحث حول التناسخ من الضروريّ أن نجيبَ على سؤالين:

السؤال الأوّل: لقد صَرَّح القرآنُ الكريم بوقوع حالات من المَسخ في الأمم السابقة، حيث تحوّل البعضُ إلى قردة، والبعض الآخر إلى خنازير كما يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[1]. فكيفَ تحقّق المسخُ إذا كان التناسخ باطلاً؟

الجواب: إنّ «**المسخ**» يختلف عن «**التناسخ**» الاصطلاحيّ، لأنّ في التناسخ تتعلَّق الروحُ بعد انفصالها من بَدَنها بجنينٍ أو ببدن آخر. ولكن في المسخ لا تنفصلُ الروحُ عن البَدن بل يتغير شكلُ البدَن وصورتُه، ليرى العاصي والمجرم نفسَه في صورة القِرد والخنزير، فيتألّم من ذلك.

وبعبارة أُخرى: إنّ نفسَ الإنسان لا تتنزّل من المقام الإنساني إلى المقام الحيواني، لأنّه إذا كان كذلك لما كان أولئك الذين مُسخوا من البشر يدرِكون العذاب، ولما لَمَسوا عقاب عَمَلهم، في حين يعتبر القرآنُ الكريمُ «**المسخَ**» «**نكالاً**» وعقوبة للعصاة[2].

يقول التفتازاني: إنّ النفوس بعد مفارقتها للأبدان تتعلّقُ في الدنيا بأبدان أُخرى للتصرّف والاكتساب، لا أن تتبدّل صُوَرُ الأبدان كما في المسخ[3]. ويقول العلامة الطباطبائي: الممسوخ من الإنسان إنسانٌ ممسوخٌ لا أنّه ممسوخٌ فاقدٌ للإنسانيّة[4].

(1) سورة المائدة، الآية 60.
(2) ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (سورة البقرة، الآية 66).
(3) التفتازاني، شرح المقاصد، ج 3، ص337
(4) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج1، ص209.

السـؤالُ الثانـي: يذهبُ البعض إلى أنّ القول بالرجعة ناشئ من القول بالتناسخ، فهل يستلزمُ الاعتقادُ بالرجعة القولَ بالتناسخ؟

الجـواب: إنّ الرجعـة - كمـا سنتحـدّث عنها في محلّهـا - حسب اعتقـاد أكثر علمـاء الشيعة الإمامية تعنـي أنّ طائفةً من أهلِ الإيمان، وأهـل الكفر سيعودُون إلى هـذه الحيـاة (أي العالم الدنيويّ) فـي آخر الزمان مرةً أُخـرى، وتكون عودتهم إلى الحياة مثل إحياءِ الموتى على يد السيد المسيح، ومثل عودة «**عزير**» للحياة بعد مائة سنـة[1]. وعلـى هذا الأساس لا يكـون للاعتقاد بالرجعة أيّ ارتبـاط وعلاقة بمسألة التناسخ قط، وسنعطي المزيد من التوضيحات في هذه المسألة في مبحث «**الرجعة**» مستقبلاً.

(1) لاحظ سورة آل عمران، الآية 49.

المفاهيم الرئيسة

- تَتّفِـقُ جميعُ الشَّرائـعُ السَّماويّة في لـزوم الإيمان بالآخـرة ووجوب الاعتقاد بالقيامة.
- لقـد أقام الحكمـاء والمتكلّمون المُسلمون أدلّة عديـدة ومتنوعة على ضرورة المعاد.
- لقـد طَرَحَ مُنكرو القيامـة والمعاد في عصر نزول القـرآن، شُبُهاتٍ ردّ عليها القرآن، ضمن توضيحه لأدلّة وجود المعاد.
- صرّحت الآيات القرآنيّة والأحاديث على أنّ معاد الإنسان: جسماني وروحاني، ويـراد مـن الأوّل هـو حشر الإنسـان ببدنه في النشـأة الأخـرى، وأنّ النفس الإنسانيّة تتعلّق بذلك البدن في تلك النشأة فيثاب أو يعاقب بأُمور لا غنى في تحقّقهـا عن البدن والقوى الحسية. ويراد من الثاني أنّ للإنسان وراء الثواب والعقاب الحسيّين لذّات وآلام روحيّة ينالها الإنسان دون حاجة إلى البدن.
- إنّ القائليـن بالتناسـخ حيـث إنّهم لم يتمكّنوا مـن تصوّر «**المعـاد**» بصورته الصحيحة أَحلُّوا «**التناسخَ**» محلَّه، واعتقدوا به، بَدَلَ الاعتقاد بالمعاد.
- إنّ التناسـخَ فـي المنطـق الإسلامـيّ يستلـزم الكفـرَ، ولقد بُحِثَ فـي كتبنا الاعتقادية وأُثبِتَ بطلانه.

أسئلة الدرس

1- اذكر دليلين من الأدلة التي استدلّ بها على ضرورة المعاد.

2- كيف تمّ الردّ على من شبّه المعاد بالتناسخ؟

3- ما هو الفرق بين التناسخ والمسخ؟

المعاد وفلسفة الخلق

يتساءل الكثيرون: لماذا خلقنا الله؟

وقد يتجاوزن ذلك أحياناً ليسألوا: بل ما هي فلسفة خلق هذا العالم الكبير؟

إن البستاني يزرع الشجرة من أجل ثمرها، ويحرث الأرض ويبذر الحب من أجل غلتها، فمن أجل أي شيء خلقنا بستاني الخليقة؟

أكان هناك ما ينقص الله حتى يستكمله بالخلق؟ إذا كان الأمر كذلك فهو إذن محتاج، ولكن الاحتياج لا يأتلف ومقام الربوبية ولا نهائية وجوده.

للإجابة عن هذا السؤال يمكن قول الكثير، ولكن من الممكن تلخيص ذلك في بضع جمل واضحات، وهي:

الخطأ الكبير هو أنا نقارن صفات الله بصفاتنا نحن، فنحن لكوننا كائنات محدودة، نقوم بأعمالنا لكي نسد حاجة من حاجاتنا، فندرس مثلاً لسد نقصنا من العلم، ونشتغل لسد حاجتنا إلى المال ونفتش عن الطب والعلاج لضمان سلامتنا.

ولكن فيما يتعلق بالله الذي لا نهاية له من جميع الجهات، علينا أن نبحث عن أهداف ما يفعله خارج ذاته، فهو لا يخلق لمنفعة ولا لسد حاجة، بل هدفه من ذلك هو أن يفيض بلطفه ووجوده على عباده.

إنه شمس مشعة لا نهاية لها، تشع بنورها، لا لحاجة بها إلى ذلك، بل لكي ينعم الجميع بنور وجودها، إذ إن من مقتضيات ذاته اللامتناهية الفياضة أن يأخذ بيد الكائنات ويتقدم بها على طريق التكامل.

إن خلقنا من العدم يعتبر بذاته خطوة تكاملية بارزة، كما إن إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية والشرائع والقوانين، ما هي إلّا قواعد لهذا التكامل[1].

(1) الشيرازي، الشيخ ناصر مكارم، سلسلة أصول الدين، بيروت- لبنان، دار الصفوة، 1430هـ-2009م، ط2، ص61-62.

الدرس الحادي والثلاثون

عالم ما بعد الموت (3)

الساعة والنفخ في الصور والحساب

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر علامات الساعة وأشراطها.
2. يذكر الآيات التي تتحدّث عن النفخ في الصور.
3. يبيّن مراحل الحساب والقيامة.

أشراط الساعة أو علامات يوم القيامة

لقد وردَت في كلمات العلماء تبعاً للقرآن مسألة باسم «**أشراط الساعة**» وتعني علامات القيامة، يقول تعالى ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1]. إنّ علامات يوم القيامة على قسمين:

الأولى: حوادث تقع قبل وقوع القيامة وانهدام النظام الكوني وعند وقوع ذلك يكونُ البشر لا يزالون يعيشون على وجه الأرض، ولفظة «**أشراط الساعة**» تُطلَق في الأغلب على هذا النَمَط من الحوادث والوقائع.

الثانية: الحوادث التي توجب تخلخل النظام الكونيّ، وقد جاء أكثرها في سور: التكوير، والانفطار، والانشقاق والزلزال.

والعلائم من القسم الأوّل عبارة عن:

1. بعثة النبي الخاتم محمّد صلى الله عليه وآله وسلم:

يقول سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾[2]. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**بعثت والساعة كهاتين، وأشار بإصبعيه صلى الله عليه وآله وسلم السّبّابة والوسطى**»[3].

(1) سورة محمّد، الآية 18.
(2) سورة محمد، الآية 18.
(3) المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص315.

2. **اندكاك السدّ وخروج يأجوج ومأجوج:**

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[1].

3. **إتيان السماء بدخان مبين:**

قال تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[2].

4. **نزول السيد المسيح عليه السلام:**

قال تعالى: ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[3]. فالآية تدلّ على أنّ وجود عيسى في ظرف من الظروف يعلم به دنوّ الساعة، وأما ظرفه، فالظاهر من الروايات هو نزوله بعد خروج الإمام المهدي عجل الله فرجه.

5. **خروج دابّة من الأرض:**

قال تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟

(1) سورة الأنبياء، الآيتان 96 و 97.
(2) سورة الدخان، الآيات 10 – 16.
(3) سورة الزخرف، الآيات 57 – 61.

بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾[1]. ولا بُدَّ من مراجعة كُتُب التفسير والحديث للحصول على تفاصيل هـذه العلائم. ولقد تحدّث القرآنُ الكريمُ بإسهاب حولَ العلائم والأشراط من النوع الثاني مثل: انهدام النظام الكونيّ وتلاشيه وتكوير الشمس والقمر، وانكدار النجوم، وتناثرهـا، وتفجير البحار وتسجيرها، وتسييـر الجبال[2] وغيرها من الحوادث التي ملخّصُهـا هو اندثار النظام السائد فعـلاً، وظهور نظام جديد، وهو في حقيقته تجلّ للقدرة الإلهيّة التامّة، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[3].

النَفخُ في الصُّور

إنّ القرآنَ الكريم يتحدَّث عن حادثة باسم «النَفخُ في الصُّور» والذي يتم مرتين:

الأول: النَفْخُ في الصُّور، الذي يوجبُ موتَ كلّ الأحياء في السَّماوات والأرضين.

الثاني: النَّفخُ في الصُّور، الذي يوجبُ إحياءَ الموتى.

وهو ما ورد فـي كتاب الله تعالـى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[4].

مراحل الحساب والقيامة

القـرآنَ الكريـم يتحدَّث عن خصوص حَشر البَشَر ونشْرهم يـومَ القيامة قائلاً: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾[5]. وبعـد عَـودة الموتى إلى الحَيـاة، وحَشْرهمْ ونَشْرهـمْ، تتحقَّـق عدةُ أُمور قبـلَ دُخولِ الجنة أو النـار، أخبر بها القـرآنُ الكريمُ، والأحاديثُ الشريفة:

(1) سورة النمل، الآية 82.
(2) سور: التكوير، والانفطار، والانشقاق، والقارعة.
(3) سورة إبراهيم، الآية 48.
(4) سورة الزمر، الآية 68.
(5) سورة القمر، الآية 7.

1. محاسَبة النّاس على أعْمالهم بشكلٍ خاصّ، أو بصور معيّنة إحداها إعطاءُ صحيفة عمل كل أحد بيده[1]. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾[2].

2. مضافاً إلى ما هو مُدرَجٌ في صحيفة كل واحد من الصغائر والكبائر، ثمّتَ شهُودٌ من داخل الإنسان وخارجه تشهدُ يومَ القيامة بأعماله التي عَمِلَها في العالم الدُّنْيويّ. والشُهود الّذين من الخارج هم عبارةٌ عن:

أ. الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

ب. نبيّ كلّ أُمّة: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[4].

ج. نبيّ الإسلام ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾[5].

د. الصَفوة الأخيار من الأمّة[6]، والملائكة[7]، والأرض[8].

وأمّا الشهودُ من داخل الكيانِ البشريّ فهم عبارة عن الأعضاء والجوارح[9]، وتجسّم الأعمال نفسها[10].

(1) لاحظ سورة الإسراء، الآيتان 13 و 14.
(2) سورة الانشقاق، الآيات 7–11.
(3) سورة الحج، الآية 17.
(4) سورة النحل، الآية 89.
(5) سورة النساء، الآية 41.
(6) سورة البقرة، الآية 143.
(7) سورة ق، الآية 18.
(8) سورة الزلزلة، الآية 4–5.
(9) سورة النور، الآية 24.
(10) سورة التوبة، الآية 34–35.

3. هناكَ لمحاسبة الإنسان على أعماله ـ مضافاً إلى ما قلناه ـ ما يُسمّى بـ «**موازين العَدل**» التي تُقامُ يومَ القيامة، وتضمن وصولَ كلّ إنسان إلى ما يستحقه من الجزاء على وجه الدقّة كما يقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[1].

4. ويُستفاد من الأحاديث الشريفة أنّ هناك ـ في يومَ القيامة ـ ممرّاً يجبُ أن يعبر منه الجميعُ بلا استثناء. وهذا الممرّ يُعبّر عنهُ في الروايات بالصراط، وقد ذهبَ المفسّرون إلى أنّ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2] ناظرة إليه.

5. هناكَ حائلٌ بين أهل الجنّة وأهل النار أسماه القرآنُ الكريم بـ(الحجاب) كما أنّه يقف شخصياتٌ رفيعةُ المستوى على مكان مرتفع يعرفون كلاًّ من أهل الجنّة وأهل النار بسيماهُم كما يقولُ سبحانه: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ﴾[3]. وهؤلاءُ الشخصيّات العالية المستوى هم ـ كما تُصرّح رواياتُنا ـ الأنبياء وأوصياؤهم الكرام البرَرَة.

6. عندما تَنْتهي عمليّةُ الحساب ويَتّضح مصيرُ الأشخاص يومَ القيامة يعطي اللّهُ سبحانه لواءً بيد النبيّ الأكرم محمّد ﷺ يُدعى «**لواء الحمد**» فيتحرّكُ أمامَ أهل الجنة، إلى الجنّة[4].

7. أخبَرَت الرواياتُ العديدةُ بوجود حوض كبير في المحشر يُعرَف بحوض «**الكوثر**»، يحضر عنده رسولُ اللّه ﷺ ويسقى الصالحون من الأمّة من ماء ذلك الحوض بأيدي النبيّ وأهل بيته.

(1) سورة الأنبياء، الآية 47.
(2) سورة مريم، الآيتان 71 ـ 72.
(3) سورة الأعراف، الآية 46.
(4) المجلسي، بحار الأنوار، ج 8، الباب 18، الأحاديث 1 ـ 12

المفاهيم الرئيسة

- لقد وَرَدَت في كلمات العلماء تبعاً للقرآن مسألة باسم «**أشراط الساعة**» وتعني علامات القيامة، يقول تعالى ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَآ﴾.

- إنّ علاماتِ يومِ القيامة على قسمين:

الأول: حوادث تقع قبل وقوع القيامة وانهدام النظام الكوني وعند وقوع ذلك يكونُ البشر لا يزالون يعيشون على وجه الأرض، ولفظة «أشراط الساعة» تُطلَق في الأغلب على هذا النَمَط من الحوادث والوقائع.

الثاني: الحوادث التي توجب تخلخل النظام الكونيّ، وقد جاء أكثرها في سور: التكوير، والانفطار، والانشقاق والزلزال.

- إنّ القرآنَ الكريم يتحدَّث عن حادثةٍ باسم «النَفخُ في الصُّور» والذي يتم مرتين:

الأول: النَفْخُ في الصُّور، الذي يوجبُ موتَ كلّ الأحياء في السَّماوات والأرضين.

الثاني: النَّفخُ في الصُّور، الذي يوجبُ إحياءَ الموتى.

- هناك مراحل وأشكال متعددة للحساب يوم القيامة ذكرها القرآن الكريم ضمن آياته الكريمة.

أسئلة الدرس

1- ما هو المقصود بأشراط الساعة، وإلى كم قسم تنقسم؟

2- ما هو المقصود بالنفخ في الصور؟

3- ما هي مراحل الحساب ؟ اذكرها بالتفصيل.

الآخرة في كلام الأمير عليه السلام

في كتاب كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى أهل مصر مع محمّد بن أبي بكر:

«يا عباد الله إن بعد البعث ما هو أشد من القبر، يوم يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، ويسقط فيه الجنين، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، يوم عبوس قمطرير، يوم كان شره مستطيراً، إن فزع ذلك اليوم ليرهب الملائكة الذين لا ذنب لهم وترعد منه السبع الشداد، والجبال الأوتاد، والأرض المهاد، وتنشق السماء فهي يومئذ واهية وتتغير فكأنها وردة كالدهان، وتكون الجبال سراباً مهيلاً بعد ما كانت صماً صلاباً، وينفخ في الصور فيفزع من في السماوات والأرض، إلا من شاء الله، فكيف من عصى بالسمع والبصر واللسان واليد والرجل والفرج والبطن إن لم يغفر الله له ويرحمه من ذلك اليوم ؟ لأنه يصير إلى غيره إلى نار قعرها بعيد، وحرها شديد، وشرابها صديد، وعذابها جديد، ومقامعها حديد، لا يغير عذابها، ولا يموت ساكنها، دار ليس فيها رحمة، ولا تسمع لأهلها دعوة»[1].

(1) الطوسي، الأمالي، ص29.

الدرس الثاني والثلاثون

عالم ما بعد الموت (3)
الشفاعة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعدِّد بعض الآيات التي تدلّ على الشفاعة.
2. يعدِّد بعض الروايات التي تدلّ على الشفاعة.
3. يبيّن الأدلّة على جواز الشفاعة.

مقدّمة

تتعـدّد أشكال الرحمة الإلهيّة للإنسان، وما المغفرة والتوبة والتكفير عن الذنوب إلاّ مـن تلك الرّحمة التـي وسعت كلّ شيء، وكذلك الشفاعةُ التـي ربَّما تكون آخرَ ما يأمل به الإنسان يوم القيامة للخلاص من العقاب والعذاب، فهي أيضًا من صور تلك الرحمة، التي من عظم سعتها يتمنّى إبليس أن تناله أيضًا في ذاك اليوم العصيب.

حقيقة الشفاعة

الشفاعـة هي أن تصـل رحمة الله تعالـى ومغفرته وفيضه إلى عبـاده عن طريق أوليائـه وصفوة عباده، وليس هذا بأمر غريـب، فكما أنّ الهداية الإلهيّة التي هي من فيوضـه – سبحانه–، تصل إلى عباده في هذه الدّنيا عن طريق أنبيائه وكتبه، فهكذا تصـل مغفرتـه – عزّوجلّ– إلى المذنبين والعصاة من عبـاده يوم القيامة، عن ذلك الطريـق وعن طريق عباده الذين جعل دعاءهم في الحياة الدنيويّة سبباً لذلك حيث يقـول تعالـى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّـلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[1].

وتُعتبـر شفاعـة الشافعين يوم القيامة بإذن الله تعالى إحـدى العقائد الإسلاميّة المُسَلَّمة الضروريّة. وهي تشملُ أولئك الذين لم يقطعوا صِلتهم بالله، وبالدين بصورةٍ

(1) سورة النساء، الآية 64.

كاملة، فصاروا صالحين لشمولِ الرحمة الإلهيّة لهم بواسطة شفاعة الشافعين، رغم تورُّطهم في بعض المعاصي والذنوب. والاعتقادُ بالشَفاعة مأخوذٌ من القرآن الكريم والسُّنة ونشير إلى بعض تلك النصوص فيما يأتي:

1. الشَفاعة في القرآن:

إنَّ الآيـات القرآنيّة تحكـي عن أصل وجودِ الشفاعة يـومَ القيامة، وتصرّح بأصل وجودِ الشفاعة وأنّها تقع بإذنِ اللّه تعالى. ويقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾[1].

فمَنْ هُم الشُفَعاء؟ يُستَفادُ من بعض الآيات أنّ الملائكة من الشُفعاء يومَ القيامة كمـا يقـولُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[2].

ويذهـبُ المفسِّرون في تفسير قوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[3] إلى أنّ المقصود منَ «المقام المحمود» هو مقامُ الشّفاعة الثابتُ للنبيّ الأكرم ﷺ.

2. الشَفاعة في الروايات:

لقد تحدّثت روايات كثيرة ورَدَت في كتبِ الحديث عن الشفاعة مضافاً إلى القُرآن الكريـم. ونشيـرُ إلى بعضِ هذه الأحاديـث؛ ما روي عـن النبيِّ الأكـرم ﷺ: «**إنَّما شَفاعَتـي لأهـلِ الكَبائر من أُمَّتي**»[4]. والظاهر أنّ علّة اختصاص الشفاعة بمرتكبي الكبائـر من الذنوب وشمولها لهم خاصة، هـو: أنّ اللّه وَعَد في القرآن بصراحة بأن يغفـرَ للناسِ السيئات الصغيرة إذا ما هم اجتنبوا الكبائـرَ[5] فبقيّة الذنوب ما عدا

(1) سورة الأنبياء، الآية 28.
(2) سورة النجم، الآية 26.
(3) سورة الإسراء، الآية 79.
(4) الصدوق، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، قم- إيران، مؤسسة النشر الإسلامي التبعة لجماعة المدرسين بقم، 1404هـ، ج3، ص574، ح4963.
(5) انظر: سورة النساء، الآية 31.

الكبائر تشمُلُها المغفرة، في الدنيا ومع المغفرة لا موضوع للشفاعة.

وفـي رواية أخرى يقـول ﷺ: «**أُعْطيْتُ خَمْسـاً... وأُعطيتُ الشَفاعَـة، فَادّخَرْتُها لأمَّتي فهيَ لِمَن لا يُشْرك بِالله**»[1].

وعلـى من أراد التعرّف علـى غيره من شفعاء يوم القيامـة كالأئمة المعصومين، والعلماء، وكذا المشفوع لهُمْ، أن يُراجِعَ كتبَ العقائد، والكلام، والحديث.

كمـا أنّه لا بُدّ أن نَعلَمَ بـأنّ الاعتقاد بالشَفاعة، مثل الاعتقـاد بقبُول التوبة، يجب أن لا يوجبَ تجرُّؤَ الأشخاص على ارتكاب الذنوب، بل يجب أن يُعَدَّ هذا الأمر «**نافذةَ أمَـل**» تعيدُ الإنسـان إلى الطريقِ الصحيـح، لكونه يرجو العفو، فـلا يكونُ كالآيسين الّذيـن لا يفكّرون في العـودة إلى الصراط المستقيم قط. ومن هـذا يتضح أنّ الأثر البـارز للشفاعة هو مغفرة ذنوب بعض العُصاة والمذنبين ولا ينحصر أثَرُها في رفع درجة المؤمنين كما ذهبَ إلى ذلك بعض الفِرق الإسلامية (كالمعتزلة).

هل يجوز طلب الشفاعة في الدنيا؟

إنّ الاعتقادَ بأصلِ الشَفاعة في يَوم القيامة (في إطار الإذن الإلَهيّ) ـ كما أسلَفنا ـ مـن العقائد الإسلاميّة الضروريـة ولم يخدش فيها أحدٌ. يبقى أنْ نرى هل يجوز أن نطلب الشفاعةَ في هذه الدنيا من الشافعين المأذون لهم في الشفاعة يوم الحساب، كالنبيّ الأكرم ﷺ؟

وبعبـارة أُخرى، هل يصحُ أن يقول الإنسان: يا رسولَ الله يا وجيهاً عند الله اشفع لي عند الله؟

الجـواب هو: أنّ هذا الموضوعَ كان محلَّ اتفاقٍ وإجمـاعٍ بين جميع المسلمين إلى القـرن الثامن، ولم ينكـرْه إلاّ أشخاصٌ معدودُون من منتصـف القرنِ الثامن، حيث

(1) ابن حنبل، المسند، ج1، ص301.

خالَفوا طلبَ الشفاعة من الشفعاء المأذون لهم، ولَم يجوّزوه في حين أنّ الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة المعتبرة، وسيرة المسلمين المستمرة تشهَدُ جميعُها بجوازه، وذلك لأنَّ الشَفاعة هو دُعاؤهم للأشخاص ومن الواضح أن طلبَ الدعاء من المؤمن العاديّ (فضلاً عن النبيّ ﷺ) أمرٌ جائز ومستحسَن، بلا ريب.

ولقد رَوى ابنُ عباس عن رسول الله ﷺ ما يُستفاد منه بوضوح بأنّ شفاعة المؤمن هو دعاؤه في حق الآخرين فقد قال ﷺ: «**ما من رَجُل مُسْلم يَموتُ فيَقومُ على جَنازَته أربَعون رَجُلاً لا يُشركُونَ بالله شيئاً إلاّ شفَّعهُم الله فيه**»[1].

ومِنَ البديهيّ والواضح أنّ شفاعة أربعين مؤمن عند الصلاة على الميّت ليس سوى دعائهم لذلك الميت. ولو تَصَفَّحْنا التاريخَ الإسلاميَّ لوَجَدنا أنّ الصَحابة كانوا يطلبون الشفاعة من النبي ﷺ. فها هو الترمذيّ يروي عن أنَس بن مالك أنّه قال: «**سألتُ النبيَّ أنْ يَشْفَعَ لي يومَ القيامة فقال: أنا فاعل. قلتُ: فأينَ أطلبُك؟ فقالَ: عَلى الصّراط**»[2].

ومع الأخذ بنَظَر الاعتبار أن حقيقة الاستشفاع ليست سوى طلب الدعاءِ من الشَفيع، يمكنُ الإشارةُ إلى نماذج من هذا الأمر في القرآن الكريم نفسه:

1. طلبَ أبناءُ يعقوب من أبيهم أن يستغفرَ لهم، وقد وَعَدَهم بذلك ووفى بوعده، يقول تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾[3].
2. يَقولُ القرآنُ الكريمُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[4].

(1) مسلم، الصحيح، بيروت- لبنان، دار الفكر، ج3،ص53.
(2) الترمذي، سنن الترمذي، ج4، ص 43، باب ما جاء في شأن الصراط.
(3) سورة يوسف، الآيتان 97 و 98.
(4) سورة النساء، الآية 64.

3. يقولُ في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

فـإذا كانَ الإعراضُ عن طَلَب الاستغفار من النَبيّ ـ الذي يَتّحد في حقيقته مع الاستشفاع ـ علامةَ النِّفاق، والاستكبار، فإنّ الإتيان بهذا الطَلَب وممارسته يُعدّ بلا شكّ علامةُ الإيمان.

وحيـثُ إنّ مقصودَنا ـ هنـا ـ هو إثبات جواز طلب الشفاعة، ومشروعيّته، لذلك لا يَضـرُّ موتُ الشفيع في هذه الآيات بالمقصود، حتى لو فُرض أنّ هذه الآيات وَرَدَت في شأنِ الأحياء من الشُفَعاء لا الأموات، لأن طَلَبَ الشَفاعة منَ الأحياء إذا لم يكن شركاً فإنّ من الطبيعي أن لا يكونَ طلبُها من الأموات كذلك شركاً لأنّ حياة الشَفيع وموته ليس ملاكاً للتوحيد والشرك أبداً، والأمرُ الوحيدُ الذي هـو ضروريٌّ ومطلوبٌ عندَ الاستشفاع بالأرواح المقدَّسة هو قدرتُها على سماع نداءاتنا، وهو أمرٌ قد أثبتْناه في مبحث التوسُّل حيث أثبتنا ـ هناك. وجود مثل هذا الارتباط.

الفرق بين شفاعة الموحدين والوثنيين

وهنـا لا بـدّ أن نلتفتَ إلى نقطـة هامّة وهـي أن استشفاعَ المؤمنيـن والموَحّدين من الأنبيـاء والأولياء الإلَهيّين يختلـفُ اختلافاً جَوهرياً عـن استشفاع الوثنيّين من أصنامهـم وأوثانهـم. فالفريـقُ الأوّل يطلـبُ الشَّفاعةَ مـن أولياءِ الله، وهـو مذعِنٌ بحقيقتين أساسيّتين:

1. إنَّ مقامَ الشفاعة مقامٌ خاصٌّ بالله، وحقٌّ محضٌ له سبحانه كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[2].

(1) سورة المنافقون، الآية 5.
(2) سورة الزمر، الآية 44.

أي قـل: إنّ أمر الشَفاعة كلَّه بيَدِ اللّه ولا يحقّ لأحدٍ أن يشفَعَ من دون إذنه ولن تكونَ شفاعةٌ مؤثرةً بغيره.

2. إنّ الشُّفعاء الذين يَستشفعُ بهم الموحِّدون عبادٌ صالحون مخلصُون للّه سبحانه يستجيب اللّه دعاءَهم لمكانَتهم عندهَ وَلقُربِ مَنزلَتهم منه سبحانه.

وبهذين الشرطين يفترقُ الموحِّدُون عن الوثنييّن في مسألة الاستشفاع افتراقاً أساسياً.

أوّلاً: انّ المشركيـن لا يـرون لنفـوذ شفاعتهم وتأثيرها أيَّ قيـد أو شرط، وكأنّ اللّهَ فَوَّضَ أمـرَ الشَفاعة إلى تلـك الأصنام العَمياء الصَمّاء. في حيـن أنّ الموحّدين يعتبـرون الشفاعـة كلّهـا حقاً مختصاً بـاللّه، تبعاً لمـا جاء في القـرآن الكريم، ويُقيِّدون قبولَ شفاعة الشافعين وتأثيرها بإذن اللّه ورضاه وإجازته.

ثانيـاً: إنّ مشركـي عصـر الرسالة كانوا يَعتبـرون أوثانهم وأصنامَهـم ومعبوداتهم المختلفة أرباباً وآلهةً، وكانوا يظنّونَ سفهاً أنّ لهذه الموجودات الميّتة، والجمادات سَهْمـاً في الربوبيّة، والألُوهيّـة، بينما لا يرى الموحّدون، الأنبياء والأئمةَ إلاّ عباداً صالحيـن، وهم يردّدُون فـي صلواتهم وتحياتهم دائمـاً عبارة: «**عَبْـدُه ورسوله**» و «**عبـاد اللّه الصالحيـن**». فانظـرْ إلـى الفـرق الشاسِـعِ، والتفـاوت الواسع بين الرؤيتين والمنطقَين.

بنـاءً على هذا فإنّ الاستدلالَ بالآيات التي تَنفـي وتندّدُ باستشفاع المشركين من الأصنـام، على نَفـي أصل طلب الشفاعة في الإسلام، استـدلالٌ مرفُوضٌ وباطلٌ وهو من باب القياس مع الفارق.

المفاهيم الرئيسة

- تُعتبر شفاعة الشافعين يوم القيامة بإذن الله تعالى إحدى العقائد الإسلاميّة المُسَلَّمة الضروريّة.
- إنَّ الآيات القرآنيّة تحكي عن أصل وجودِ الشفاعة يومَ القيامة، وتصرّح بأصل وجودها.
- تحدّثت روايات كثيرة ورَدَت في كتبِ الحديث عن الشفاعة مضافاً إلى القُرآنِ الكريم.
- إنّ استشفاعَ المؤمنين والموَحّدين من الأنبياء والأولياء الإلَهيّين يختلفُ اختلافاً جَوهرياً عن استشفاع الوثنيّين من أصنامهم وأوثانهم. فالفريقُ الأوّل يطلبُ الشَّفاعةَ من أولياءِ الله، وهو مذعنٌ بحقيقتين أساسيّتين:

1. إنَّ مقامَ الشفاعة مقامٌ خاصٌّ بالله، وحقٌّ محضٌ له سبحانه كما قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾. أي قل: إنّ أمر الشَفاعة كلَّه بيَدِ اللهِ ولا يحقّ لأحدٍ أن يشفَعَ من دون إذنه ولن تكونَ شفاعةٌ مؤثرةً بغيره.
2. إنّ الشُّفعاء الذين يَستشفعُ بهم الموحِّدون عبادٌ صالحون مخلصُون لله سبحانه يستجيب الله دعاءَهم لِمكانَتِهم عندهَ وَلقُربِ مَنزلَتِهم منه سبحانه.

أسئلة الدرس

1- اذكر ما هي حقيقة الشفاعة؟
2- اذكر آية قرآنيّة تشير إلى الشفاعة.
3- هل يجوز طلب الشفاعة في الدنيا وما هو الدليل على ذلك؟

الشفاعة في المعاد

عـن الإمام جعفر بـن محمّد، عن أبيه عليه السلام، عن جابر بـن عبد الله الأنصاريّ، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال:

«**قالت فاطمة عليها السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبتاه أين ألقاك يوم الموقف الأعظم ويوم الأهوال ويوم الفزع الأكبر؟**

قال صلى الله عليه وآله وسلم: يا فاطمة عند باب الجنّة ومعي لواء الحمد وأنا الشفيع لأمّتي إلى ربّي.

قالت عليها السلام: يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: القيني على الحوض وأنا أسقي أمّتي.

قالت عليها السلام: يا أبتاه إن لم ألقك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: القيني على الصراط وأنا قائم أقول: ربّ سلّم أمّتي.

قالت عليها السلام: فإن لم ألقك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: القيني وأنا عند الميزان أقول: ربّ سلّم أمّتي.

قالت عليها السلام: فإنّ لم ألقك هناك؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: القيني على شفير جهنّم أمنع شررها ولهبها عن أمّتي.

فاستبشرت فاطمة عليها السلام بذلك، صلّى الله عليها وعلى أبيها وبعلها وبنيها»[1].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج 8، ص 35.

الدرس الثالث والثلاثون

جزاء الأعمال

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيِّن كيف ينال الإنسان جزاء أعماله.
2. يذكر الآيات التي تؤكّد خلود الكفّار في النار.
3. يبيّن معنى التوبة وحقيقتها.

الإنسان ينال جزاء أعماله

تؤكّـد العقيدة الإسلاميّة علـى أنّ أعمال الإنسان في الدّنيا لهـا ربط وثيق بعالم الآخـرة ويوم الحساب، ويَشهدُ العقلُ والنقلُ بأنّ كلَّ إنسانٍ يَرى جزاءَ عمله، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فعذاب شديد.

أمـا مـن ناحية العقل فـإنّ جزاء الأعمال مـن مقتضيات العـدل الإلهيّ والحكمة الإلهيّـة، وهما مبنيّـان على الإيمان بوجود الخالق والمقنّـن سبحانه وتعالى، فإن لم يكـن هناك جزاء يعنـي ذلك أنّ الناس يوم القيامة سـوف يتساوى المطيع منهم مع المسـيء، وأنّ الـذي أفنى عمره وهو يتجنّـب المعاصي خشية غضـب الله- تعالى- سـوف يتساوى مع من أفنـى عمره في هتك الحرمات والظلم والإفساد، وهذا خلاف العدالة الإلهيّة.

ومن ناحية أخرى فإنّ القول بعدم الجزاء يخالف الحكمة الإلهيّة في التشريع، من حيـث الأوامر والنواهي، وكلّ مـا كان أداة لإيصال تلك التشريعات، من بعث الأنبياء والرّسـل وإنزال الكتب، فيكون كلّ ذلك عبثيّاً لا جدوى منه في هذه الحالة. وبالتالي فإنّ الإيمان بالله وما يتعلّق بتشريعاته يقتضي الجزاء عليه لمن امتثله أو لمن خالفه.

أما من ناحية النقل فيمكن الاكتفاء هنا ببعض الآيات التي تدلّ على ذلك:

يقـول تعالى في هذا الصَّدد: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[1]. ويقول أيضاً: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾[2].

ويُستفاد من الآيات السابقة أنَّ أعمالَ الإنسان القبيحة، لا تُزيل أعمالهُ الصالحة ولا تقضي عليها، ولكن يجب أنْ نعلم في نفس الوقت أنّ الذين يرتكبون بعضَ الذنوب الخاصّـة كالكُفـر والشرك، أو يَسلكـون سبيلَ الارتـداد سيُصابون بالحَبـط، أيْ أنّ أعمالَهـم الصّالحة تُحبط وتهلَكَ، ويَلقون في الآخرة عَذاباً أبديّاً كما يَقول سبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[3].

ونظراً إلى ما قلناه فإنّ كلَّ إنسان مؤمن سيَرى ثوابَ أعماله الصّالحَة في الآخرة خيـراً كانـت أو شـراً، إلاّ إذا ارتدّ، أو كَفَـرَ، أو أشرَكَ، فإنّ ذلـك سيأتي على أعماله الصالحَة ويقضي عليها ـ كما دَلّ على ذلكَ الكتابُ والسُنّةُ.

ولا بُدَّ من التذكير بالنقطة التالية وهي: أنّ اللّه سبحانه وتعالى وإنْ وَعَدَ المؤمنين بالثـواب علـى أعمالهم الصالحـة، وفي المقابل أوعـد على الأعمـال السيئة، ولكن «**الوعـدَ**» و «**الوَعيـد**» هذيـن يختلف أحدُهما عـن الآخر ـ في نظر العقـل ـ لأنّ العَملَ بالوعـد أصلٌ عقليٌّ، والتخلّـفَ عنه قبيح، لأنّ في التخلّف عنه تضييعاً لحقّ الآخرين، وإن كانَ هذا الحقُّ مما أوجبَهُ الواعدُ، نفسُه على نفسه، وهذا بخلاف الوعيد فهو حق للمُوعد وله الصفح عن حقه والإعراض عنه ولهذا لا مانعَ من أن تستر بعضُ الأعمالِ الصالحة الحسنة قباحةَ بعض الأعمال السيئة وهو ما يُسمّى بالتكفير[4].

(1) سورة الزلزلة، الآية7.
(2) سورة النجم، الآيتان 40 و 41.
(3) سورة البقرة، الآية 217.
(4) الحلي، كشف المراد، ص 413، المقصد 6، المسألة 7.

وقـد صَرَّحَ القرآنُ الكريمُ بكونِ بعضِ الأعمال الصّالحة الحَسَنة مكفّرةً للأعمال السَّيئـة، وأحَـد هذه الأعمـال هو اجتنـاب الشخص للذنـوب الكبيرة: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾[1]. وكذا يكونُ لأعمالٍ أخرى مثل التوبة[2]، وصدقة السر[3]وغير ذلكَ مثل هذا الأثر.

الخلود في الجحيم خاصّ بالكفّار

إنّ الخُلـودَ في عذاب جهنّم خاصّ بالكفّار، وأمّا المؤمنون العُصاة الذين أشرقت أرواحهم بنـورِ التوحيد، فطريقُ المغفرة والخروج من النار غير مسدودة عليهم كما يقولُ اللّه تعالـى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[4].

إنّ الآيـةَ المذكـورةَ الّتـي تخبـرُ بصراحة عَن إمـكان المغفرة والعفـو عن جميع الذنـوب (ما عدا الشرك) ناظرة من دون شَكٍّ إلى أُولئك الّذين ماتُوا من دون توبة، لأنّ جميـعَ الذنـوب والمعاصي – حتى الشرك – يشملُها العفوُ والغفرانُ إذا تابَ عنها الإنسان. وحيث إنّ هذه الآية فَرَّقت بين المشرك وغير المشرك، وَجَب أن نقول: إنّها تحكي عن إمكان مغفرة من ماتوا من دون توبة.

ومن الواضح أنّ مثلَ هذا الإنسان إذا كان مشركاً لم يغفرِ اللّه له، وأمّا إذا لم يكنْ مُشركاً فيمكنهُ أن يأمَل في عَفو اللّه ويَطمع في غفرانه ولكن لا بشكلٍ قَطعيّ وحتميّ، إنما يحظى بالعفو والغفران من تعلَّقت الإرادةُ والمشيئةُ الإلهيّة بمغفرته.

فـإنّ قَيْد «**لمـنْ يَشاءُ**» فـي الآية تضعُ العُصـاة والمُذنبين بين حالَتـي «**الخَوْف**» و«**الرَّجاء**» وتحثهم على التوقّي من الخطر وهو التوبة قبلَ الموت.

(1) سورة النساء، الآية 31.
(2) لاحظ سورة التحريم، الآية 8
(3) لاحظ سورة البقرة، الآية 271.
(4) سورة النساء، الآية 48.

ولهـذا فإنّ الوَعـدَ المذكور يدفع بالإنسان على طريق التربيـة المستقيم، بإبعاده عن منزلَق «**اليَأس**» و«**التجرّي**».

الجنة والنار مخلوقتان

دار بحـث بين المسلمين في مسألة خلق الجنة والنار، فهل هما مخلوقتان الآن أم لا؟

قال الإمامية تبعًا لتفسير الآيات القرآنية والروايات الواردة عن أهل بيت العصمة أنهما مخلوقتان، أما المخالفون فاختلفوا فيما بينهم، منهم من قال بخلقهما ومنهم من أنكر ذلك. وما يهمنا هنا هو ما يقوله الشيعة الإماميّة.

قـال الشيـخ المفيد: «**إنَّ الجنّة والنّارَ فـي هذا الوَقت مخلوقَتـان وبذلك جاءت الأخبارُ، وعليه إجماعُ أَهل الشّرع والآثار**»[1].

وإنّ الآيـات القرآنيّـة هـي الأخرى تشهد بالوجـود الفعليّ للجنَّة والنـار إذ يقول: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[2].

ويصرّح في موضع آخر: بأنَّ الجنّة مهيَّئةٌ للمؤمنين، وإن النّار مهيّئة للكافرين، إذ يقـول حولَ الجنّة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3]. ويقـولُ حَولَ النّار: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[4].

ومَعَ ذلك فلا نعرفُ مكانَ الجَنَّة والنّار على وَجه الدّقة واليقين، وإن كان المُستفاد مـن بعض الآيات هو أن الجَنّـة موجودةٌ في القِسم الأعلى كمـا يقولُ سبحانه: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[5].

(1) المفيـد، أوائـل المقالات، تحقيـق: ابراهيم الأنصـاري، بيروت- لبنـان، دار المفيد، 1414هـ- 1993م، ط2، ص124.
(2) سورة النجم، الآيات 13 – 15.
(3) سورة آل عمران، الآية 133.
(4) سورة آل عمران، الآية 131.
(5) سورة الذاريات، الآية 22.

التوبة من الذنوب في الدنيا

ينسجـم الكلام المتقدّم عن الجنة والنار وجزاء الأعمال مع الحديث عن التوبة، والتـي يمكـن للإنسان من خلالهـا أن يُفتح له باب العودة إلـى الله، بعد أن يكون قد اقتـرف ما يوجـب دخوله النار- والعياذ بالله- عدا الشرك بـه عزّوجلّ ، وهذا طبعًا يرجع إلى رحمة الله غير المتناهية بحقّ عباده.

ولذلـك سـوف نتطرّق إليها ولو بشـكل مختصر فنقول: إنّ انفتـاح باب التوبة في وجـه العُصاة والمُذنبين والدعوة إليها من التَعاليم الإسلاميّة بل من مقرّرات جميع الشرائع السَّماويّة.

فعندما يندَمُ الإنسان المذنبُ من عَمَله القبيح نَدَماً حقيقيّاً ويملأ التوجّهُ إلى الله، والتضـرُّع إليـه فضاءَ رُوحه، فيقرّر من صَميم قَلبـه أن لا يرتكبَ ما ارتكبَ ثانيّة، قَبل اللهُ الرحيـمُ أوبتَـه وتَوبته، بشروط مَذكورة في كُتُب العقيـدة والتفسير. يقول القرآنُ الكريمُ في هذا الصَّدَد: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

إنّ الّذين لا يَعرفونَ الآثار التربويّة الإيجابيّة للتوبة يتصوَّرُون أنّ فتح هذين البابين (بـاب الشفاعـة وباب التوبة) في وجه العُصاة والمذنبيـن يشجّعهم - بشكلٍ مّا - على المعصية، في حين يغفل هؤلاء عن أنّ كثيراً من النّاس متورّطونَ في بعض المعاصي، وقلّما يوجَد من لم يرتكبْ ذَنباً في حياته طوال عمره.

وعلـى هذا الأسـاس، إذا لم يكن بابُ التوبـة مفتوحاً في وَجه هـؤلاء لقالَ الذين يريدون أن يغيّروا مسيرهم ويقضوا بقيَّةَ أيّام حياتهمْ في الطُّهْر والنَّقاء مع أنفسهم: إنَّنا سنَلقى - على كلّ حال - جزاءَ ذُنوبنا، وندخل جهنّم فلمَ لا نستجيبُ لرَغباتنا؟ ولمَ لا نحقّـق شهواتنـا فيما تبقّى من عُمُرنا ما دام هذا هو مصيرُنا، وهو مصيرٌ لا يَتَغيَّر قطّ ولا مفرّ منه أبداً؟

(1) سورة النور، الآية 31.

وهكـذا نكونُ بإغلاقنا بابَ التَّوبة قـد فَتَحْنا في وجه النّاس بابَ اليأس والقنوط، ومَهَّدْنا للمَزيد من المعصية وللتمادي في ارتكاب القبائح والذنوب.

إنَّ الآثـار الإيجابيّة لأصل التوبة تتّضـحُ أكثر فأكثر عندما نعلم بأن الإسلام يقيِّد قبـولَ التوبة بشـروط خاصّة ذكرَهـا ـ بتفصيل ـ أئمةُ الدّيـن، والمحقّقون من علماء الإسلام. إنَّ القرآن الكريم يتحدّث عن التوبة بصراحة تامة إذ يقول: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. ثـمّ إنّـه قد ذُكرَ الأشخاصُ الذين لا تُقبَـلُ توبتهم عندَ اللّه سبحانه في كُتب الفقه، والتفسير، والعقيدة فمنَ شاء راجَعَها.

(1) سورة الأنعام، الآية 54.

المفاهيم الرئيسة

- تؤكّد العقيدة الإسلاميّة على أنّ أعمال الإنسان في الدّنيا لها ربط وثيق بعالم الآخـرة ويوم الحساب، ويَشهدُ العقلُ والنقـلُ بأنّ كلَّ إنسانٍ يَرى جزاءَ عمله، إنْ خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشرّ.
- إنّ اللّه سبحانـه وتعالى وإنْ وَعَـدَ المؤمنين بالثواب على أعمالهم الصالحة، وفـي المقابل أوعد علـى الأعمال السيئة، ولكـن «**الوعـدَ**» و «**الوَعيد**» هذين يختلف أحدُهما عن الآخر.
- إنّ كلَّ إنسـان مؤمن سيَرى ثوابَ أعماله الصّالحَـة في الآخرة خيراً كانت أو شراً، إلاّ إذا ارتدّ، أو كَفَرَ، أو أشرَكَ.
- إنّ الخُلـودَ في عـذاب جهنّم خاصّ بالكفّـار، وأمّا المؤمنـون العُصاة الذين أشرقـت أرواحهـم بنـورِ التوحيد، فطريـقُ المغفرة والخروج مـن النار غير مسدودة عليهم.
- قـال الإماميّـة تبعًا لتفسير الآيـات القرآنية والروايات الـواردة عن أهل بيت العصمة أنهما مخلوقتان.
- إنّ انفتـاح بابِ التوبة في وجه العُصـاة والمُذنبين والدعوة إليها من التَعاليم الإسلاميّة بل مِن مقرّرات جميعِ الشرائع السَّماويّة.

أسئلة الدرس

1- هل أشارت الآيات القرآنية إلى خلود الكفار بالنار؟ بيّن ذلك.

2- تحدّث عن مسألة مخلوقيّة الجنة والنار.

3- ما هي التوبة، وما هي آثارها؟

حقيقة التوبة

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال لقائل بحضرته «أستغفر الله»: «ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار؟ إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة، والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيّعتها فتؤدي حقها، والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت من السحت فتذيبه بالأحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد، والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول: أستغفر الله»[1].

(1) الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج11، ص361، باب87، ح4.

الدرس الرابع والثلاثون

معالم الإيمان والكفر

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن حدّ الإيمان والكفر.
2. يفهم العلاقة بين الإيمان والعمل الصالح.
3. يعلّل عدم جواز تكفير المؤمن المعتقد بالأصول الثلاثة.

حدّ الإيمان والكُفر

إنّ حـدَّ «**الإيمـان**» و «**الكُفـر**» مـن المباحث الكلاميّـة والاعتقاديّـة الهامّة جدّاً. فالإيمـان في اللُّغة يعني التّصديق و «**الكُفر**» يعنـي السَّتر، ولهذا يُقال للزارع «**كافر**» لأنّه يستر الحبَّةَ بالتراب، ولكن المقصود من «**الإيمان**» في علم الكلام والعقيدة، هو الاعتقاد بوحدانيّة اللّه تعالى، والآخرة ورسالة النبي الخاتم محمّد المصطفى ﷺ.

على أنَّ الإيمان برسالة النبيّ الخاتم يشمُلُ الإيمان بنبوّة الأنبياء السابقين عليه، والكتب السّماوية السابقة، وما أتى به نبيُّ الإسلام من تعاليم وأحكام إسلاميّة للبشر مـن جانب اللّه أيضاً. إنّ المكان الواقعـي والحقيقي للإيمان هو قلب الإنسان وفؤادُه كمـا يقـول القـرآن: ﴿أُولَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾[1]. كما أنّه يقـول لسُكّان البَوادي الذين استسْلَمُوا للحاكميّة الإسلامية وسلطتها من دون أن يَدخلَ الإيمان في أفئدتهم: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2].

ولكـنّ الحكمَ بإيمان الشخص مشروطٌ بأن يعبّر عن ذلك بلسانه وإقراره اللفظي أو يُظهـرَه بطريـق آخـر، أو لا يُنكـر اعتقادَه به علـى الأقلّ، وذلـك لأنّ في غير هذه الصورة لا يُحكم بإيمانه كما قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[3].

(1) سورة المجادلة، الآية 22.
(2) سورة الحجرات، الآية 4.
(3) سورة النمل، الآية 14.

في ضوءِ هذا يكونُ قد تبيَّنَ معنى «**الكفر**» وحدّه أيضاً، فاذا أنكر شخصٌ وحدانيّة الحـقِّ تعالى، أو أنكرَ يومَ القيامة، أو رسالة النبيّ الأكرم ﷺ حُكمَ بكفره حتماً، كما أنّ إنـكار أحـد مسلّمات الديـن المحمّـديّ وضروريّاته التي يكون إنكارهـا مستلزماً لإنكار رسالة النبيّ ﷺ بشكلٍ واضح يجعلُ الإنسان محكوماً بالكفر أيضاً.

فعندما أعطـى رسولُ اللّه ﷺ الراية لعلي عليه السلام لفتح قـلاع خيبر، وأخبرَ الناسَ بـأن حاملَ هذه الراية سيفتح خيبـراً، في هذه اللحظة قال الإمام عليٌّ عليه السلام لرسول اللّه ﷺ: يا رسولَ اللّه فعلى مَا أُقاتلهُمْ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «**قاتلْهُمْ حَتّى يَشهَدُوا أنْ لا إلَه إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسولُ اللّه، فإذا فَعَلُوا ذلك فقد مَنَعوا مِنْكَ دماءَهُمْ وأموالَهم إلاّ بحقها، وحسابُهم على اللّه**»[1]. وسَأَلَ شخصٌ الإمـام الصادق عليه السلام فقال: ما أدنى ما يكونُ به العَبدُ مُؤمناً؟ قالَ عليه السلام: «**يَشْهَد أن لا إلَه إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبدُهُ ورسولهُ، ويُقرّ بالطّاعَة، ويعرف إمامَ زمانه، فاذا فَعل ذلكَ فَهُو مؤمنٌ**»[2].

الإيمان مشروط بالالتزام بالعمل الصالح

إنّ حقيقـةَ الإيمـان وان كانت هي الاعتقـاد القلبي (المشـروط بالإظهار أو عدم الإنـكار على الأقلّ) ولكن يجـب ان لا يُظَنَّ أنّ هذا القَدَر مـن الإيمان كاف في فلاح الإنسان، بل يجب على الشَّخص أن يَلتَزِمَ بلوازم الإيمان وآثاره العَمَليّة أيضاً.

ولهـذا فقد وُصِـف المؤمنُ الواقعـي وعُرّف في كثيـر من الآيـات والرّوايات بأنه الملتزم بآثار الإيمان، والمؤدّي للفرائض الإلهيّة. فقد اعتبر القرآنُ الكريمُ في سورة «العصـر» كلّ الناس في خسر إلاّ من اتّصف بالصّفات التالية حيث قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[3]؟

(1) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، ص10.
(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج69، ص 16.
(3) سورة العصر، الآية 3.

وقد روى الإمام الباقر عليه السلام عن الإمام علي عليه السلام أن رجلاً قال له: من شهد أن لا إلَه إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسولُ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كانَ مؤمناً؟ قال: «**فأينَ فرائضُ اللّه**»؟[1].

وَقال عليه السلام أيضاً: «**لو كانَ الإيمان كلاماً، لم ينزلْ فيه صومٌ، ولا صلاةٌ، ولا حلالٌ، ولا حرام**»[2]. فيُستنتَج من البَيان السابق أنّ الإيمان ذو مراتب ودَرَجات، وأنّ لكلٍّ مرتبة أثراً خاصّاً بها، وأن الاعتقاد إذا اقترن بالإظهار أو عدم الإنكار على الأَقل، كان أضعف مراتب الإيمان وأدونها، وتترتّب عليه سلسلةٌ من الآثار الدِّينيّة، والدنيويّة، في حين أن المرتبة الأخرى للإيمان التي توجب فلاحَ الإنسان في الدنيا والآخرة رهنٌ للإلتزام بآثاره العمليّة.

والنقطة الجديرةُ بالذّكر هي أنّ بعضَ الروايات اعتبرت العَمَلَ بالفرائض الدينيّة ركناً من أركان الإيمان، فقد روى الإمام الرضا عليه السلام عن رسولِ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «**الإيمان معرفة بالقلب وإقرارٌ باللسان وعملٌ بالأركان**»[3]؟

وفي بعض الرّوايات جُعلَت أُمور، مثل إقامة الفرائض، وأداء الزكاة والحج، وصوم شهرِ رمَضَان، إلى جانب الشهادتين أيضاً[4]. إنّ هذه الروايات إمّا هي ناظرةٌ إلى أنّه يمكن تمييز المسلم عن غير المسلم بواسطة هذه الأعمال، أو أنّ ذكرَ الشهادتين إنّما يكونُ سبباً للنجاة وموجباً للفلاح إذا اقترنَت وانضمّت إلى أعمالٍ شرعيةٍ أهمُّها وأبرزُها: الصلاةُ، والزكاةُ، والحجُّ، والصوم.

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص 33، ح2.
(2) م.ن، ج2، 33، ح 2.
(3) الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام، تحقيق: حسين الأعلمي، بيروت- لبنان، مؤسسة الأعلمي، 1404هـ- 1984م، ج1، ص 204.
(4) البخاري، الصحيح، ج1، ص 16، كتاب الإيمان شهادة أن لا إلَه إلاّ اللّه وأنّ محمّداً رسولُ اللّه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان.

بالنّظَـر إلى هذين الأصلين يجب أن لا تُكَفِّـرَ أيَّةُ فرقة من فرَق المسلمين الفرقةَ الإسلاميـة الأخـرى التي تخالفُها في بعض الفُروع، لأنّ ملاكَ «الكُفـر» هو أنْ ينكرَ الشخصُ أحدَ الأصول الثلاثة، أو إنكار ما يلزَمُ من إنكاره إنكار أحَد الأصول الثلاثة المذكـورَة، وهذه الملازمـة إنّما تتحقَّق إذا كان حكمُ ذلك الشـيء بديهيّاً من وجهة نظـرِ الشّرع، وواضحاً جِدّاً إلى درجة أنّـه لا يستطيع أنْ يجمعَ بين إنكاره والاعترافِ بالأصول الثلاثة.

وعلـى هـذا الأساس ينبغـي للمسلميـن أن يحفظوا فـي جميع المراحـل أُخوَّتَهم الإسلاميَّـة، ولا يَسْمَحُـوا بـأنْ يَصيرَ الاختلافُ فـي الأمور المتعلّقـة بالأصولِ سبباً للنـزاع، وربّما لتفسيـقِ أو تكفير فرقة لأخـرى، وأن يكتفوا فـي الاختلافات الفكريّة والعقيديّـة بالحـوار العلميّ والمناقشـة الموضوعيّة، ويتجنَّبوا إقحـام التعصُّب غير المنطقـيّ، والاتهـام والتحريـف في هـذا المجال إبقاءً علـى الصّفـاء والمودّة بين المسلمين.

لا يجوز تكفير المسلم المعتقد بالأصول الثلاثة

إنّ المسلميـن في عالمنا الراهن يتّفقون فـي الأُصول الأساسية الثلاثة[1]، فيلزمُ أنْ لا يكفِّـرَ فريقٌ فريقاً آخر بسبب الاختلاف في بعض الأصولِ، أو الفروع الأخرى، وذلـك لأنَّ الكثيرَ من الأصـول المختَلف فيها، هي في الحقيقة من القضايا الكلاميّة التي طرِحَت على بساط البحثِ والمناقشة بين المسلمين فيما بعد، ولكلِّ فريقٍ منهم أدلّتُهُ وبراهينُهُ فيها.

وعلى هذا لا يُمكن أن يُتّخَذَ الاختلافُ في هذه المسائل وسيلةً لتكفير هذه الفرقة، أو تلك أو ذريعة لتفسيق هذه الطائفة، أو تلك، ولا سبباً لتفتيت وحدةِ المسلمين.

(1) وهـي الأُصول التـي يرتبط تحقّق «الإيمان» و «الكفرُ» بقبولها أو رفضِها. وهـي: الشهادة بوحدانيّة الله، والإيمان بنبوة خاتم الأنبياء محمّد ﷺ والمعاد في يوم القيامة.

إنّ أفضلَ الطُرق لحلّ هذا الاختلاف هو الحوارُ العلميُّ بمنأى عن العَصَبيّات الجافّة، وَالمواقف المتزمّتة وغير الموضوعية.

يقول القرآنُ الكريمُ في هذا الصَّدَد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا ﴾[1].

ولقد صرّح النبيُّ الأكرمُ ﷺ بعد ذكره لأهَمّ أُسُس الإسلام وأُصُوله، بأنَّه لا يحقُّ لمسلم أنْ يُكفّرَ مُسلماً آخر لارتكابه معصية، أو يرميَه بالشرك، إذ قال:«**لا تُكَفّروُهُمْ بِذَنبٍ ولا تَشْهَدُوا عليهم بِشِرْكٍ**»[2].

(1) سورة النساء، الآية 94.

(2) الهندي، كنز العمّال، ج 1، ص277، ح30.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ حدَّ «**الإيمان**» و «**الكُفر**» من المباحث الكلاميّة والاعتقاديّة الهامّة جدّاً.
- الإيمـان برسالة النبيّ الخاتـم يشمُلُ الإيمان بنبوّة الأنبيـاء السابقين عليه، والكتـب السّماويـة السابقـة، وما أتى بـه نبيُّ الإسـلام من تعاليـم وأحكام إسلاميّة للبشر من جانب الله أيضاً.
- الحكم بإيمان الشخـص مشروطٌ بأن يعبّر عن ذلك بلسانه وإقرارِه اللفظيّ، أو يُظهِرَه بطريقٍ آخر، أو لا يُنكر اعتقادَه به على الأقل.
- إنّ حقيقـةَ الإيمـان وان كانت هـي الاعتقاد القلبي ولكن يجـب ان لا يُظَنَّ أنّ هـذا القَدَر من الإيمان كافٍ، بل يجب على الشّخْصِ أن يَلتَزِمَ بلوازم الإيمان وآثاره العَمَليّة.
- بعض الروايات اعتبرت العَمَلَ بالفرائض الدينيّة ركناً من أركان الإيمان.
- إنّ المسلمين في عالمنا الراهن يتّفقون في الأُصُول الأساسية الثلاثة، فيلزمُ أنْ لا يكفِّـرَ فريـقٌ فريقاً آخـر بسبب الاختلاف في بعض الأصـولِ، أو الفروع الأخرى.

أسئلة الدرس

1- ما هو المقصود بحدّ الإيمان والكفر؟ بيّن ذلك.
2- هل الإيمان مشروط بالعمل الصالح أم لا؟ أوضح ذلك.
3- اذكر آية قرآنيّة تشير إلى عدم جواز تكفير المعتقد بالأصول الثلاثة.

صفَة الإيمَان

عـن الإمام أبي جعفر الباقد عليه السلام قال: سُئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الإيمان فقال: «**إنّ الله عزَّ وجلّ جعل الإيمان على أربع دعائم على الصّبر واليقين والعدل والجهـاد، فالصّبـر مـن ذلـك علـى أربـع شُعَـب: علـى الشّـوق والإشفـاق والزّهـد والتّرقّب، فمن اشتاق إلى الجنّة سلا عن الشّهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرّمـات، ومـن زهد في الدنيا هانـت عليه المصيبات، ومن راقـب الموت سارع إلـى الخيـرات. واليقين علـى أربع شعب: تَبْصـرَة الْفطْنَة وتَـأَوُّل الْحكْمَة ومَعْرفَة الْعبْرَة وسُنَّة الأَوَّلينَ.**

فمـن أبصـر الفطنـة عـرف الحكمـة، ومن تـأوّل الحكمة عـرف العبـرة، ومن عرف العبرة عرف السّنَة ومن عرف السّنَة فكأنّما كان مع الأوّلين واهتدى إلى التي هي أقوَم، ونظـر إلـى مـن نجا بما نجـا، ومن هلك، بما هلـك وإنّما أهلك الله مـن أهلك بمعصيته، وأنجـى مـن أنجى بطاعته. والعدل على أربع شعب: غامض الفهم، وغمر العلم، وزهرة الحكـم، وروضـة الحلم، فمن فهم فسّر جميع العلم، ومن علم عرف شرائع الحكم، ومن حلـم لـم يفرّط في أمره، وعاش في النّاس حميداً، والجهـاد على أربع شعب: على الأمر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، والصّـدق فـي المواطـن، وشنـآن الفاسقين، فمـن أمر بالمعـروف شـدّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق وأمن كيده، ومن صـدق فـي المواطـن قضى الّذي عليـه، ومن شنئ الفاسقين غضـب لله، ومن غضب لله غضب الله له، فذلك الإيمان ودعائمه وشعبه»[1].

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص51.

الدرس الخامس والثلاثون

البدعة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يوضّح المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة البدعة.
2. يفهم حقيقة البدعة المحرّمة في الشرع الإسلامي.
3. يبيّن الضابطة الصحيحة في البدعة.

معنى البدعة

«**البِدعة**» في اللغة تعني العَمَل الجديد والذي لا سابق له، الذي يبيّن نوعاً من الحُسن والكمال في الفاعل، فلفظ «**البديع**» من صفات الله كما نعلم، كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1].

وأمّا المفهومُ الاصطلاحيّ للبدعة، فهو أيضاً نسبةُ ما ليس من الشريعة إلى الشريعة، وأكثر التعاريف اختصاراً للبدعة الاِصطلاحيّة هو: «**إدخالُ ما ليسَ مِنَ الدّينِ في الدينِ**».

البدعة في الشرع

إنَّ الابتداع في الدين من الذُّنوب الكبيرة، وهو مما لا شك في حرمته أبدًا، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كلُّ مُحدَثَة بدعَة وكلُّ ضَلالة في النّار**»[2]. والنقطةُ المهمّة الوحيدةُ في مسألة البِدعة هي أَن يُحدَّدَ مفهومُ «**البدعة**» بصورة جامعة ومانعة ليمكن تمييزُ ما هو بدعةٌ عمّا ليس ببدعة. وفي هذا الصَّعيد، ولإزالة الإبهام عن حقيقة «**البدعة**» يجب الالتفات والانتباه إلى نقطتين:

(1) سورة البقرة، الآية 117.

(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج2، ص263.

1. إنّ البِدعة نوعٌ من التصرّف في الدِّين، وذَلك بإحداث الزيادة أو النقص فيه. وعلى هذا الأساس إذا لم يَكُن إحداثُ شيءٍ، مما يرتبطُ بالدّين والشريعة، بل كان أمراً عاديّاً أو عُرفيّاً، لم يكن بدعةً (وإن كانت مشروعيّته مشروطة بأن لا يكونَ الابتداع والابتكار المذكور محرَّماً أو ممنُوعاً في الشرع بدليلٍ خاصٍ).

وللمثـال: إن البشريّة تبتكرُ باستمرار أساليب جديدة في مجال المسكن والمَلبس وغيـر ذلك مـن وسائـل العيش وخاصّـة في عصرنـا الحاضر الـذي تتطور فيه الأساليـب والأدوات المستخدَمة في المعيشَة باستمرار، وبشكلٍ متواصلٍ ونضربُ على ذلك مثلاً أنواع النزهة والرياضة الجديدة، بل والمتجدّدة على الدوام.

إنّ مـن البديهـي أنّ كلَّ هذه الأشيـاء والأمور نوعٌ من البدعـة والأمور البديعة (بمعنـى مـا لم يكن لـه سابق) ولكنها لا صلـة لها بالبدعـة المصطلَح عليها شرعـاً. إنّما تتوقَّـفُ حلّيّتُها وحلّيّةُ الاستفادةِ منها ـ كمـا قلنا ـ على أن لا تكونَ مخالفةً لأحكام الشَّرع وموازينه.

فمثلاً اختلاط الرجلِ والمرأة من دون حجابٍ في المجالس، والمحافل ـ الذي هـو من مستورَدات الغرب الفاسد، ومعطيات ثقافته المنحرفة ـ حرامٌ، إلاّ أنّه ليس ببدعَة، لأنّ الذين يشتركونَ في هذه المحافل لا يأتونَ بهذا العمل باعتباره عمـلاً أقرّ الشرعُ الإسلاميُّ صحَّته وقرَّره، بـل ربما أتَوا به من بابِ اللاّمبالاة مع الاعتقـاد بأنّه مخالفٌ للشرع، ولهذا ربما تنبَّهوا وعـادوا لرشْدهِمْ فقرّرُوا بجديّة تركَه، وعدم الاشتراك فيه.

وانطلاقـاً مـن التوضيح السابقِ إذا عيَّنَ شعبٌ مّا يومـاً، أو بعض الأيّام للفَرحَ والابتهـاج والاجتمـاع، ولكن لا بقصـد أنّ الشَّرع أمرَ بهذا، لـم يكن مثل هذا العمل بدعة وإن كانت حليّةُ أو حرمة هذا العمل من جهاتٍ أُخرى يجب أن تقع محطّاً للبحث والدراسة.

مـن هنـا اتّضـح أنَّ الكثيرَ مـن مبتكـرات البشـر، وبدائعه، في مجـال الفنّ والرياضـة، والصناعة وغير ذلك خارجٌ عن نطـاق البدعة الاصطلاحية، وما يقـالُ حول حرمَتهـا، أو حليّتها، إنّما هو ناشئ من جهـات أُخرى ولهما ملاكٌ ومقياسٌ خاص.

2. إنّ أساس البدعة في الشرع يرجع إلى نقطة واحدة وهي الإتيان بعمل بزعم أنّه أمـرٌ شرعـيٌّ أمَرَ به الدين في حين لا يوجد لمشروعيتـه أيُّ أصل ولا ضابطة، ولكـن اذا أتـى بعمل علـى أنّه أمر شرعـي ويدل على مشروعيتـه دليل شرعي (بشكل خاص، أو بصورة كليّة وعامّة) لم يكن ذلك العملُ بدعةً.

ولهـذا قالَ العلاّمةُ المجلسي: «**البدعـة في الشرع ما حَدَثَ بعد الرَسول ولم يكن فيه نصٌّ على الخصوص ولا يكونُ داخلاً في بعض العمومات**»[1]. وقال ابـن حجر العسقلانيّ: «**البدعة ما أُحدثَ وليسَ لهُ أصلٌ في الشَّرعَ. وما كان له أصلٌ يدل عليه الشرع فليس ببدعة**»[2].

الضابطة الصحيحة في البدعة

إذا كان العمـلُ الـذي نَسَبْناه إلـى الشرع يستندُ إلى دَليل خاصّ، أو ضابطة كليّة فـي الشرع لم يكن بدعةً حتماً. والصورةُ الأولى (أيْ وجود الدليل الخاص) لا يحتاج إلـى بيـان. إنّما المهم هو القسـم الثاني لأنّه رُبَّ عَمَل كانَ فـي ظاهره عَملاً مبتدَعاً جديداً ومبتكراً، ولم تكن له سابقةٌ في الإسلام، ولكنّه في معناه وحقيقته يدخُلُ تحت ضابطة أقرَّها الشرعُ الإسلاميُّ بصورة كليّة.

وللمثال: يمكنُ الإشارة إلى التجنيد الإجباريّ العامّ اليوم في الجمهورية الإسلامية الإيرانيـة. فإنَّ دعوةَ الشباب إلى خدمـة العَلَم كوظيفة دينيّة، وإن كانت في ظاهرها

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج74، ص 202.

(2) ابن حجر، فتح الباري،بيروت- لبنان، دار المعرفة، ج13، ص212.

عَمَـلاً مبتكراً ومبتدعـاً إلاّ أنّها حيث تنخرطُ تحت أصل أو قاعدة دينيّة لا تُعدّ بدعة، وذلك لأنّ القرآنَ الكريمَ يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1].

ومن البديهيّ أنّ التربية العَسكريّة العامة للشباب تُعدُّ في ظلّ التحوُّلات والتَطَوّرات والأجـواء العالميّة سبباً للتهَيّؤ الأكثر في مقابـلِ العدوّ المتربّص، والعملُ بروح الآية المذكـورة في عصرنا الراهنِ يقتضي هذا الأمـر. في ضوء البيان السابق يمكن حلّ ومعالجة الكثير من الشُّبهات التي تقيّد البعضَ وتعيقهم عن الحركة.

ونضرب لذلك مثلاً: ما يقومُ به جماهيرُ المسلمين العظمى من الاحتفالِ بمولد النبيّ الأكرم ﷺ ويراهُ البَعض أو يسمّونه بدعة، في حين لا ينطبق عليه عنوان البدعة وملاكُها، فـي ضوء ما قلناه، لأنّه على فرض أنّ هذا النمـطَ من التكريم وإظهار المحبّة والتكريم لـم يَـردْ في الشرع بخصوصه. ولكنَّ مـوَدّة النبيّ ﷺ وحُبَّه وحبَّ أهـل بيته المطهَّرين عليهم السلام يُعتبر أحد أُصول الإسلام الضروريّة وتُعتَبَر هذه الاحتفالات والاجتماعات الدينيّة البهيجة من مظاهر ذلك الأصل الكليّ ونعني المحبة والمودة للنبي وآله. فقد قال رسولُ اللّه ﷺ: «**لا يؤمنُ أحدُكم حتّى أكونَ أحبَّ إليه من ماله وأهْله والناس أجمعين**»[2].

ولا يخفى أن الذيـن يُظهِرُون البَهجة والفرح في مواليد رسول اللّه ﷺ وأهل بيته الطاهريـن، ويقيمـون لأجل هذه الغاية، الاحتفالات والمجالـس لا يهدفون من إقامة الاحتفال في هذه الأيام إلى أنّ هذه الأعمال منصوصٌ عليها ومأمُور بها شرعاً بعينها وشكلهـا الراهن، بل يفعلون هذه الأعمـال باعتقاد أنّ حُبَّ النبي ﷺ والمودّة لرسول اللّه وأهل بيته أصلٌ كلّيٌّ وَرَدَ التأكيد عليه في الكتاب والسُّنة بتعابير مختلفة ومتنوّعة. إنّ القرآنَ الكريم يقول: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[3].

وهـذا الأصل يمكـن أن تكونَ له تجلياتٌ ومظاهـرُ مختلفة ومتنوّعـة، منها إقامة

(1) سورة الأنفال، الآية 60.

(2) النسائي، سنن النسائي، بيروت- لبنان، دار الفكر، 1348هـ- 1930م، ط1، ج8، ص115.

(3) سورة الشورى، الآية 23.

هـذه الاحتفالات البهيجـة على حيـاة المسلمين الفرديّـة والاجتماعية، فـإنّ إقامة الاحتفـالات، في الحقيقة مما يذكّـر بنزول الرحمة والبركة الإلهيّـة في هذه الأيّام، وهـي نـوعٌ من أنـواع الشُّكر لله تعالى أو عمـلٌ باعث عليه، وهذا المطلـب (أي إقامة الاحتفال في يوم نـزول الرحمة والفيض الربانيّ) كان في حياة الأمم السابقة أيضاً كما يصرّحُ بذلك القرآنُ الكريمُ.

فقـد طلَبَ النبيُّ عيسى ابنُ مريـم عليه السلام مائدةً سماويّة تنزلُ عليه وعلى حواريّيه ليكـونَ يومُ نزول تلك المائدة عيداً للجيل الذي كان يعيش بينهم، وللأجيال اللاحقة كما يقولُ تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾[1].

أضـف إلـى ذلـك أنّ الله تعالـى يقـول فـي آية أُخـرى في مجـال تكريـم النبيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فإنّ الله تعالى يأمر الناسَ في هذه الآية بأربعة أُمور:

1. الإيمان بالنبيّ ﴿ءَامَنُواْ بِهِۦ﴾.
2. تكريم النبيّ وتعظيمه ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾.
3. نصرته ﴿وَنَصَرُوهُ﴾.
4. اتّباع القرآن ﴿وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾.

فلزومُ التكريم والتعظيم للنبيّ كما هو واضح أصلٌ دينيٌّ وقرآنيّ، وله في كل زمان مصاديق خاصّـة: فالصلاةُ والسلام على النبيّ وأهلِ بيتـه عند ذكر اسمه، وإظهارُ الفرح والابتهـاج يومَ ولادته وبعثته، وكذا إعلانُ الحزنِ والأسى في مأتمه ومأتم أهل

(1) سورة المائدة، الآية 114.
(2) سورة الأعراف، الآية 157.

بيته، وحفظُ آثارِ النبيّ وتعمير مرقده الطاهر وحفظُ آثار أهل بيته، وتعميرُ مراقدهم الطاهـرة، كلُّهـا مصاديقُ لإظهار المـودّة والمحبّة للنبـيّ الأكرم وعترتـه الطاهرة صلواتُ الله عليهم أجمعين.

علـى أنّـه يجب أن لا يتصـوَّر أحَدٌ بأنّ محبّـة النبيّ وأهل بيتـه ومودّتَهم تنحصرُ فـي هذه الأمور فقط، بل يجب الانتباه إلـى أنّ اتّباعَهم في أقوالهم وأفعالهم، والذي جـاءَت الإشارة إليه فـي الآية أدناه أيضاً هو من أظهـر مصاديق محبّتهم ومودّتهم، كما أنّه سببٌ لنيل العناية الإلهيّة واللطف الربانيّ كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1].

والبِدعَـة - كمـا أسلَفْنا - عبارةٌ عن نوعٍ من التصرّف فـي الدّين من دون أن يكون لـه مستنـدٌ صحيحٌ (خاصٌّ أو كلّيٌّ عامٌّ) في الشـرع، ويجب التنويه بـأنّ روايات أئمّة أهـلِ البيت بحكم حديث الثقليـن المتواتر، تُعَدُّ من مصادر الشريعـة، وأدلّة الأحكام الدينيّة وعلى هذا الأساس إذا صرَّحَ الأئمةُ المعصومُون: بجواز أو عدم جواز شيءٍ كان اتّباعهم في ذلك اتّباعاً للدِّين ولم ينطبق عليه عنوانُ الابتداع والاحداث في الدّين.

وفي الخاتمة: نُذَكّر بأنّ «**البدعة**» بمعنى التَصَرُّف في الدين من دون إذن الله سبحانه كان ولا يزال عَمَلاً قبيحاً وحراماً، وقد أشار إليه القرآن بقوله تعالى: ﴿آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2]. وعلـى هذا الأساس لا يصحُّ تقسيـم البِدعة (بهذا المعنى) إلى القبيح والحَسَن والحرام والجائز، بل كلُّها (بهذا المعنى) حرامٌ غير جائز.

نعـم البِدعة بمعناها اللغـويّ العامّ (أي الإتيان بأشياء حديثة في أُمور المعيشة من دون نسبـة ذلـك إلى الشرع) يمكن أن تكون له صُـوَرٌ مختلفة ومتنوّعة، وتكون مشمولةً لأحد الأحكام التكليفيّة الخمسة: (الوجوب والحرمة والكراهة والاستحباب والإباحة).

(1) سورة آل عمران، الآية 31.
(2) سورة يونس، الآية 59.

المفاهيم الرئيسة

- «**البدعة**» في اللغة تعني العَمَل الجديد والذي لا سابق له، الذي يبيّن نوعاً من الحُسن والكمال في الفاعل، فلفظ «**البديع**» من صفات اللّه كما نعلم.
- المفهومُ الإصطلاحيّ للبدعة، هو: «**إدخالُ ما ليسَ منَ الدّين في الدين**».
- إنَّ الابتـداع في الدين من الذُنوب الكبيرة، وهـو ممّا لا شك في حرمته أبدًا، فقد قال رسولُ اللّه ﷺ: «**كلُّ مُحدَثَة بدعَة وكلُّ ضَلالة في النّار**».
- إذا كان العملُ الذي نَسَبْناه إلى الشرع يستندُ إلى دَليلٍ خاصّ، أو ضابطة كليّة في الشرع لم يكن بدعةً حتمًا.
- وفي هذا الصَّعيد، ولإزالة الإبهام عن حقيقة «**البدعة**» يجب الالتفات والانتباه إلى نقطتين:

1. إنّ البِدعـة نوعٌ من التصرّف فـي الدِين، وذَلك بإحداث الزيادة أو النقص فيه.
2. إنّ أساس «**البدعـة**» فـي الشرع يرجع إلى نقطة واحـدة وهي الإتيان بعمل بزعـم أنّه أمرٌ شرعيٌّ أمَرَ به الديـن في حين لا يوجد لمشروعيته أيُّ أصل ولا ضابطة.

أسئلة الدرس

1- ما هو معنى البدعة لغة واصطلاحًا؟

2- ما هو المعيار في اعتبار أمر ما بدعة أم غير بدعة؟

3- ما هو مفهوم تكريم النبيّ وآله حسب الآيات القرآنيّة؟

موت الفقيه

عـن الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «**ما من أحد يموت من المؤمنين أحبّ إلى إبليس من موت فقيه**»...

وأمّـا سبب زيـادة محبّته موت الفقيه فهـو أنّ الفقيه روح قلـوب المؤمنين إذ به حياتهـم وهدايتهم إلى زمـرة القدِّيسين وفرقة المقرّبيـن وحصنهم، إذ به نجاتهم عـن سنان غوائـل الأعادي وسهـام مكائد الشياطيـن وقائدهم في بيـداء الطبيعة، إذ بـه رشادهم إلى الأخـلاق والكمالات البشرية وأعمـال الصالحين وحافظهم، إذ بـه خلاصهم عمّـا يضعه إبليس من شَـرَك الشرك وحبالة البدعـة لاصطياد الناس أجمعين. فإذا مات ذلك الفقيه فكأنّه مات بموته جميع المؤمنين لخروج روحهم عن أجسـاد قلوبهم وانهـدام حصنهم وموت قائدهم وفقد حافظهـم، فيبقون متحيّرين لا يجـدون إلى سبيل الحـقّ دليلاً ولا إلى منزل القرب سبيـلاً فيستولي عليهم خيول إبليس وجنوده الغاوين ولا شيء أحبُّ من هذا عند ذلك الخبيث اللعين[1].

(1) المازندرانـي، محمـد صالح، شرح أصول الكافي، بيروت- لبنـان، دار احياء التراث العربي، 1421هـ- 2000م، ج2، ص78.

الدرس السادس والثلاثون

التقيّة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن أدلة جواز التقيّة.
2. يذكر موارد التقيّة وشروطها.
3. يوضّح متى تكون التقيّة واجبة.

أدلّة جواز التقية

إنّ جـوازَ «التَقيَّـة» لا يحظـى بالدَّليـل النقليّ فحسـب، بل إنّ العقـلَ يحكم أيضاً بصحّتهـا ولزومهـا، لأنّ حفـظ النَّفس، والمـال، والعرض، واجـبٌ، ولازمٌ من جهة، وإظهـارَ العقيـدة والعمل وفقَ تلك العقيدة وظيفةٌ دينيّة من جانبٍ آخر، ولكن إذا جرَّ إظهارُ العقيدة إلى الخطر على النّفس والمال، والعرض، وتعارضت هاتان الوظيفتان عَمليّاً، حكم العقلُ السليمُ بأن يُقدّم الإنسان الوظيفةَ الأهمّ على المهمّ.

والتقيـة - فـي الحقيقة - سلاحُ مـن لا قدرة له في مقابل الأقويـاء القُساة، ومن الجَلـيّ أنّـه إذا لم يكن خطـرٌ ولا تهديدٌ لم يكتم الإنسان عقيدَتَـه، كما لم يَعمل على خلاف معتقَده.

ينصُّ القـرآنُ الكريـمُ بشـكل صريح على عـدم البأس عمّـن يَقعُ في أيـدي الكفار، ويُظهـرُ كلمة الكفر على لسانه للخلاص والنجاة، وقلبُه عامرٌ بالإيمان مشحونٌ بالاعتقاد الصحيح: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾[1].

وَفي آية أُخرى يقـولُ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

(1) سورة النحل، الآية 106.

(2) سورة آل عمران، الآية 28.

إنّ المفَسّريـن المسلمين يَتّفقون ـ عنـد ذكرِ وتفسيرِ هاتين الآيَتين ـ على أنّ أصل «**التَقيّة**» أصلٌ مشروع.

ومن طالَعَ – ولو على عَجَل – ما جاء في التفسير والفقه الإسلاميّ في هذا المجال عَـرفَ بوضوح أن أصـلَ «**التقيّة**» من الأصـول الإسلاميّة، ولا يمكـن تجاهلُ الآيتين المذكورَتيـن أعـلاه، ولا عَمَل مؤمنِ آل فرعَـون في كتمان إيمانـه[1] وإنكار «**التقيّة**» بالمرَّة.

التقيّة غير مختصة بالكفر

الجَديـر بالذّكر أنّ آيـات «**التقيّـة**» وإن وَرَدَت في مجال التَقيّة مـن الكافر إلاّ أنّ المـلاكَ (وهو حفظ نفس المسلم وماله وعرضه في الظروف الحسّاسة والخطيرة) لا يختصُّ بالكفـار، فَلَـو استوجَبَ إظهـار الشخص لعقيدتـه، أو العَمَـل وفقها عندَ المسلمين، خوفَ ذلك الشخص على نفسه أو ماله أو عرضه أي احتَملَ بقوة تعرّضها للخَطَـر من جانبِ المسلمين، جرى فـي المقام حكمُ «**التقيّـة**» أي جاز له التقيّة من المسلميـن كما جاز له التقيّة من الكفار، وذلـكَ لوحدة العلّة والملاك، وتحقّق الأمر الموجب للتقيّة.

وهـذا هو مـا صَرَّحَ الآخرون بـه أيضاً فهذا هـو الفخر الرازي يقـول: إنّ مذهب الشافعي أنّ الحالةَ بَين المسلمين إذا شاكَلتْ الحالةَ بَين المسلمين والمشركين حَلَّتْ التقيّةُ محاماةً على النفس.

وقال: التقيّةُ جائزةٌ لصون النَّفس، وهل هي جائزةٌ لصون المال؟ يُحتَمل أنْ يُحْكَمَ فيهـا بالجواز لقوله ﷺ: «**حُرْمَةُ مـالِ المُسْلم كَحُرمة دَمـه**» ولقوله ﷺ: «**مَن قُتلَ دُون ماله فَهُوَ شَهيدٌ**»[2].

(1) لاحظ سورة غافر، الآية 28.

(2) الرازي، التفسير الكبير، ج 8، ص14.

وقـال أبو هريرة: «**حَفظْتُ من رسُـول الله ﷺ وعائَين، أمّا أحَدُهمـا فَبَثَثْتُهُ في النّاس، وأمّا الآخرَ فَلَوْ بَثَثْتُهُ لقُطِعَ هذا البَلعُومُ**»[1].

إنّ تاريـخَ الخُلَفاء الأمويّين والعَباسيّين زاخـرٌ بالظلم والعَسْف، والحيْف والجَور. ففـي تلـكَ الأيّام لم تكن الشيعـةُ وحدَهم هُمُ المطرودُون، والمحجـور عليهم بسبب إظهار عقائدهم، بـل سَلَكَ أغلَبُ محدّثي أهلِ السُّنّة في عَصر المأمون أيضاً مَسْلَكَ التقيّـة فـي محنة «**خَلْق القـرآن**» ولَم يخالـف المأمونَ في خَلْق القـرآن وحُدُوثه بعدَ صُـدُور المرسُـوم الخليفي العامّ، سوى شخصٍ واحدٍ، وقصَّتُهُ معروفـةٌ في التاريخ وعامّة المحدّثين تظاهروا بالوفاق تقيّةً.

التقية واجبة في بعض الحالات فقط

إنّ التقيّـة – حسبَ منطـق الشيعَة – واجبة في ظروف خاصّة، إلاّ أنّها مُحرَّمةٌ في بعضِ الشـروط أيضاً، ولا يجوز للإنسـانِ في مثل هذه الشُّـروط أنْ يَستخدمَ التقيّة بحجّة أنّه قد يعرّض نفسُه، أو مالهُ أو عرضه للخطر.

فَقَـد يَتَصوَّرُ بعضٌ أنّ الشّيعة يوجبـونَ التَقيّة دائماً وفي جميع الحالات والظروف والأوضاع، والحال أنّ هذا تصوّرٌ خاطِىء، فإنّ سيرةَ أئمّة أهل البيت: لم تكنْ هكذا، لأنّهـم، وبغيـة رعاية المصالح والمفاسـد كانوا يَسلكون في كلّ زمـانٍ موقفاً خاصّاً، وأُسلوباً مناسباً ولهـذا نجدُهم كانُوا تارةً يتّخذون مَسلَك التقيّة أُسلوباً، وتارة أُخرى كانوا يُضحُّون بأنفسهم وأموالهم في سبيلِ إظهارِ عَقيدتهم.

ومما لا شـك فيه أنّ أئمَّةَ الشّيعَة استشهدوا بالسَّيـف أو السُّمّ على أيدي الأعدّاء في حين أنّهم لو كانُوا يُصانعُونَ حُكّام عصورهم ويجارونهم، لمَنحهمْ أُولئك الحكّام أعلـى المناصب، وأسمَى المَراتب في حكوماتهم ولكنهم كانُوا يَعلمُون أنّ التقيّة قبال أُولئك الحُكّام (كيزيد بن معاوية مثلاً) كان يؤدّي إلى زوال الدّين، وهلاك المذهب.

(1) ابن عربي، الفتوحات المكية، تحقيق: عثمان يحيى، 1392هـ – 1972م، ج1، ص142.

وفـي مثل هذه الشُروط أمـام القادة الدينيّين المسلمين نوعـان من الوظيفة: أن يسلكـوا مَسلَك التقيّة في ظروف خاصَّة، وأنْ يحملوا حياتهـم على أكفّهِمْ ويَستَقْبلوا الموتَ في ظروفٍ أُخرى، أي إذا وَجَدوا أساس الدين في خطرٍ جدّي.

ونذكّرُ بأنّ التقيّةَ أمرٌ شخصيٌّ ويَرتبط بوضع الفرد، أو الأفراد الضعفاء العاجزين في مقابل العدوّ الغاشم. فإنّ مثل هؤلاء إذا لم يَعْمَلوا بالتقيّة فَقَدوا حياتهم من دون أن يترتّب أثرٌ مفيدٌ على مقتَلِهِمْ.

ولكـن لا تجـوز التقيّة مطلقاً في بيـان معارف الدين وتعليم أحـكام الإسلام مثل أن يكتُـبَ عالـمٌ شيعيٌّ كتاباً على أساس التقيّة، ويذكرَ فيه عقائـدَ فاسدة، وأحكاماً منحرفة على أنّها عقائدُ الشيعة وأحكامُهم.

ولهـذا فإنّنا نرى علمـاءَ الشيعة أظهروا فـي أشدّ الظروف والأحـوال، عقائدَهُمُ الحقَّـة، ولم يحدُثْ طيلةَ التاريخ الشيعيّ ولا مرة واحـدةً أن أقدَمَ علماءُ الشيعة على تأليف رسالـة أو كتاب على خلاف عقائد مذهبهم، بحجّة التقيّة، وبعبارة أُخرى: أن يقولـوا شيئـاً في الظاهر، ويقولُوا فـي الباطن شيئاً آخر، ولو أن أحَـداً فَعَلَ مثلَ هذا العملِ وسَلَكَ مثلَ هذا المسلَكَ أُخرِجَ من مجموعة الشيعة الإماميَّة.

وهنـا نوصي الّذين يصعُـب عليهم هضمُ مسألة التقيّة، وتقبُّـل هذه الظاهرة، أو خَضَعُـوا لتأثيـر دعايات أعـداء التشيُّع السيّئة، بـأنْ يطالعوا ولو مـرّةً تاريخَ الشيعة فـي ظلّ الحُكُومـات أُمويّةً، وعبّاسيّةً، وفـي عصر الخلفاء العثمانيّيـن في الأناضول والشامات، ليَعلَموا بَهاظةَ ما قَدَّمهُ هذا الفَريقُ من الثَمن للدّفاع عن العَقيدة وبسَبب اتّباع أهلِ البَيت عليهم السلام، وجَسامةَ ما قدّموه من تضحيات، وقرابين، وعظمةَ ما تحمّلوه من مصائبَ مرّة، حتى أنّهم ربّما هَجَرُوا بيوتهم ومنازلهم ولجأوا إلى الجبال.

لقد كانَ الشيعة على هذه الحال مع ما كانوا عليه من التقيّة، فكيف إذا لم يُراعُوا هذا الأصل..ترى هل كانَ يبقى من التَشيُّع اليومَ إذا لم يَتّقوا، أثرٌ أو خَبَرٌ؟

وأساسـاً لا بُدَّ من الانتباه إلى نقطـة مهمّة وهي أنّه إذا استوجَبَت التقيّة لَوماً فإنّ هذا اللومَ يجب أن يُوجَّهَ إلى من تَسبَّبَها، لأنّ هؤلاء بَدَل إجراء العَدل ومراعاة الرأفة الإسلاميّـة أوجَـدوا أصعَب ظروف الكَبت السياسي والمذهبـي ضدّ أتباع أهل البيت النبـويّ، لا أن يُـلامَ مَن لَجَـأ إلى التقيّة اضطـراراً وحفاظاً على نُفُوسهـم وأموالِهم وأعراضِهمْ.

والعَجَبُ العجاب في المقام هو أن يتوجَّه البعضُ باللوم والنقد إلى العاملين بالتقيّة المظلومين ووصفهم بالنفاقِ بدل توجيه ذلك إلى مسبّبي التقيّة، أي الظالمين، هذا مضافـاً إلى أنَّ «**النفاق**» يختلف عن «**التقيّـة**» كاختلافِ المتناقضين، والبَونُ بينهما شاسع وبعيدٌ بُعدَ السَّماءِ عن الأرض.

فالمنافـقُ، يُبْطِـنُ الكُفْرَ فـي قَلبه ويُظهِـرُ الإيمان لغَرض التجسُّـس على عورات المسلمين أو الوصول الى منافع لا يستحقّها، في حين يكونُ قلبُ المسلم في حال التقيّة مفعماً بالإيمان، وإنما يُظهرُ خلاف ما يعتقد لعلّة الخوف من الأذى، والاضطهاد.

المفاهيم الرئيسة

- إنَّ أحَـدَ التعاليـم القرآنيّة هو أن يكتـم الإنسان المسلمُ عقيدتَـه إذا تعرَّضَ فـي نفسه، أو عِرضِه أو مالِه لِخطرٍ لـو أظهرها، ويُسمّى هذا العَمل في لسانِ الشَّرع «**التقيّة**».
- إنّ جـوازَ «**التَقيَّة**» لا يحظـى بالدَّليل النقليّ فحسب، بل إنّ العقلَ يحكم أيضاً بصحّته ولزومه.
- ينصُّ القـرآنُ الكريمُ في شأن عَمّارِ بن ياسر علـى عدم البأس عمّن يَقعُ في أيـدي الكفـار، ويُظهرُ كلمة الكفر على لِسانِه للخلاص والنجاة، وقلبُه عامرٌ بالإيمان مشحونٌ بالاعتقاد الصحيح.
- إنّ آيـات «**التقيّـة**» وإن وَرَدَت في مجال التَقيّة من الكافر إلاّ أنّ الملاكَ (وهو حفظ نفسِ المسلم وماله وعرضه) لا يختصُّ بالكفار.
- إنّ التقيّة واجبة في ظروف خاصَة، إلاّ أنّها مُحرَّمةٌ في بعضِ الشروط أيضاً.
- التقيّة أمرٌ شخصيٌّ ويَرتبـط بوضعِ الفرد، أو الأفراد الضعفاء العاجزين في مقابل العدوّ الغاشِم.

أسئلة الدرس

1- اذكر الدليل العقليّ على جواز التقيّة.

2- اذكر دليلًا نقليًا على جواز التقيّة.

3- ما هي الظروف التي توجب وتصحّح التقيّة؟ بيّن ذلك.

المؤمن

سئل الإمـام أبو عبدالله الصادق عليه السلام عن إيمان مـن يلزمنا حقّه وأخوّته كيف هـو وبما يثبت وبمـا يبطل، فقال: «**إنّ الإيمـان قد يتّخذ على وجهيـن؛ أما أحدهما فهـو الـذي يظهـر لك مـن صاحبك، فـإذا ظهر لـك منه مثـل الذي تقول بـه أنت حقّـت ولايته وأخوّتـه، إلا أن يجيء منه نقض للذي وصف من نفسه وأظهره لك، فـإن جـاء منه ما تستدلّ بـه على نقض الذي أظهر لك خرج عندك مما وصف لك وأظهـر وكان لمـا أظهر لك ناقضـاً، إلّا أن يدّعي أنّه إنما عمل ذلك تقية ومع ذلك ينظـر فيـه فـإن كان ليس ممّـا يمكن أن تكـون التقية في مثله لـم يقبل منه ذلك، لأنّ للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقم له، وتفسير ما يتّقى مثل أن يكـون قـوم سوء ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحقّ وفعله فكلّ شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقيّة ممّا لا يؤدّي إلى الفساد في الدين فإنه جائز**»[1].

(1) الكليني، الكافي، ج2، ص168.

الدرس السابع والثلاثون

التوسّل

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن معنى التوسّل وحقيقته.
2. يميّز بين التوسّل الذي يؤدّي إلى الشرك وبين غيره.
3. يذكر ما يدلّ على جواز التوسّل بأسماء الله ودعاء الصالحين.

حقيقة التوسل

إنّ حيـاةَ البَشَـر قائمةٌ على أساس الاستفادة من الوسائـل الطبيعيّة والاستعانة بالأسباب، التي لكلّ واحد منها أثرٌ خاصٌ. فَكُلُّنا عندما نعطش نشربُ الماء، وعندما نجـوعُ نأكلُ الطعام، وعندما نريد الانتقالَ من مكانٍ إلى آخر نستخدم وسائلَ النّقل، وعندمـا نريد إيصال صوتنا إلـى مكانٍ نستخدم الهاتفَ، لأنّ رفعَ الحاجة عن طريق الوسائـل الطبيعيّة - بشرط أن لا نعتقد باستقلالها في التأثير - هو عينُ «**التوحيد**» ومن صميمه.

فالقرآنُ الكريمُ وهو يُذكّرُنا بقصّة ذي القرنين في بنائه للسدِّ يُخبرُنا كيف طلب العونَ والمعونة من النّاس إذ قال: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[1].

وإنّ الذيـن يُفسّرُون الشـركَ بالتعلُّق والتوسُّل بغيـر اللّه، إنَّما يصحُّ كلامُهم هذا إذا اعتقـد الإنسـان بتأثير الوسائل والأسبـاب على نحو الاستقـلال والأصالة. وأمّا إذا اعتقـد بأنَّهـا تؤثّر بإذن اللّه فإنّه سينتهي حينئذ إلـى نتيجة لا تُخرِجُه عَن مسيرِ التوحيـد. ولقد قامَت حيـاةُ البشرية من أوّل يوم على هذا الأساس والقاعدة أي على الاستفادة من الوسائل والوسائط الموجودة، ولم يزل يتقدم في هذا السبيل.

(1) سورة الكهف، الآية 95.

والظاهـر أنّ التَوَسُّل بالأسباب والوسائل الطبيعيّة ليس مَحَطّاً للمناقشة والبحث، إنّما الكلام هو في الأسباب غير الطبيعيّة التي لا يعرفها البَشرُ، ولا سبيلَ له إليها إلاّ عن طريق الوحي.

فـإذا وُصفَ شيءٌ في الكتـاب والسُّنة بالوسيليَّة كانَ حكـمُ التوسّل به نظير حكم التوسّـل بالأمور الطبيعيّة. وعلى هذا الأساس فإنّنا إنّمـا يجوز لنا التوسل بالأسباب غير الطبيعيّة إذا لاحَظنا مطلبين:

1. إذا ثَبَتَ كونُ ذلك الشيء «وسيلةً» لنيل المقاصد الدنيويّة أو الأخروية بالكتاب أو السنة.
2. إذا لـم نعتقـد بأيّة أصالة أو استقلال للوسائل والأسبـاب، بل اعتبرنا تأثيرها منوطاً بالإذنِ الإلَهي والمشيئة الإلهيّة.

إنّ القـرآنَ الكريـمَ يدعونـا إلـى الاستفـادة مـن الوسائـل المعنويـة إذ يقـول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[1]. هذا ويجب الانتباهُ إلى أنّ «الوسيلة» لا تعني (التقرُّب) بل تعني الشيء الذي يوجب التقرّبَ إلى الله، وأحَد هذه الطرق هو الجهادُ في سبيل الله الذي ذُكِرَ في الآية الحاضرة كما يمكن أن تكون أشياء أُخرى وسيلة للتقرّب أيضاً[2].

التوسُّل بأسماء الله الحسنى ودعاء الصالحين

ثَبَـت لدينا أنّ التوسّلَ بالأسبـاب الطبيعيّة، وغير الطبيعيّـة (بشرط أن لا تُصبَغ بصبغة الأصالة ولا يعتقد فيها بالاستقلال في التأثير) عينُ التوحيد، ولا شك في أنّ القيـام بالواجباتِ والمستحبّاتِ، كالصَّلاة والصَّوم والـزَّكاة والجِهاد في سبيل الله

(1) سورة المائدة، الآية 35.

(2) قـال الراغبُ الاصفهاني فـي مفرداته (في مادة وسل): الوَسيلة التوصّلُ إلى الشيء برغبة، وحقيقةُ الوسيلة إلى الله سبيلُه بالعلمِ والعِبادة وتحرّي مكارم الشريعة.

وغيـر ذلك وسائل معنويّة تُوصل الإنسان إلـى المقصد الأسمى، ألا وهو التقرّبُ إلى اللّه تعالـى. فالإنسـان في ظلّ هذه الأعمال يجد حقيقـة العبوديَّة، ويتقرّب في المآل إلى اللّه تعالى.

ولكـن يجب الانتباهُ إلى أنّ الوسائل غير الطبيعيّة لا تنحصر في الإتيان بالأعمال العباديّة، بل هناك سلسلة من الوسائل ذكرَت في الكتاب والسُّنة يستعقبُ التوَسلُ بها استجابةَ الدعاء، نذكر بعضَها فيما يأتي:

1. التوسُّـل بالأسمـاء والصّفات الإلهيّـة الحُسنى التي ورَدَت فـي الكتاب العزيز، والسُّنة الشريفة، إذ يقـول سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]. ولقد وَرَدَ التوسُّل بالأسماء والصفات الإلهيّة في الأدعية الإسلامية كثيراً.
2. إن التوسُّـل بأدعيـة الصالحين، والذين يكون أفضلُ أنواعـه: التوسّلُ بالأنبياء والأولياء المقرّبين إلى اللّه، ليَدعو للإنسان في محضر ذي الجلال.

إنّ القـرآنَ الكريمَ يحثُّ الذين ظَلَموا أنفُسَهـم (أي العُصاة) إلى أن يذهَبوا إلى رسـول اللّه ﷺ ويطلبـوا منه أن يَستغفرَ لهم، إلى جانـب استغفارهم هم بأنفسهم، ويبشِّرُهم بأنّهم سيجدون اللّه توّاباً رحيماً: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّـلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْـتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْـتَغْفَرَ لَهُـمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[2].

ويَـذمُّ في آية أُخرى المنافقيـن، بأنّهم كلّما دُعوا إلى الذهاب إلى رسول اللّه ﷺ ليَستغفـر لهم أعرَضوا عن ذلك إذ يقـول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[3]. ويُستفـاد مـن بعض الآيـات أنّه كان مثل هذا العَمَل جارياً ورائجاً في الأمم السابقة. وللمثال: طلب أبناءُ يعقوب من أبيهم أن يستغفرَ لهم، واستجاب لهم أبوهم يعقوبُ عليه السلام ووعدهم بذلك:

(1) سورة الأعراف، الآية 180.
(2) سورة النساء، الآية 64.
(3) سورة المنافقون، الآية 5.

﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

ومن الممكن أنْ يُقال إنّ التوسُّل بدعاء الصالحين يكون في صورة خاصّة عين التوحيد (أو على الأقلّ مفيداً ومؤثراً) وهي إذا كان من نتوسّلُ به على قيد الحياة.

حقيقة تفسير التوسّل بالأموات؟

كان الحديث عن التوسّل بالأنبياء والأولياء فيما إذا كانوا على قيد الحياة، أما لو لم يكونوا على قيد الحياة فكيفَ يكونُ التوسُّل بهم مُفيداً وعين التوحيد؟

في الجواب على هذا الإشكال لا بدّ من التذكير بنقطتين:

الأولى: إذا افترَضْنا أنّ التوسُّل بالنّبي أو الوليّ مشروطٌ بكونهم على قيد الحياة، ففي هذه الصورة يكون التوسُّل بالأنبياء والأولياء الإلَهيّين بعد الموت مجرّد عملٍ غيرِ مفيد، لا أنّه يكون موجباً للشرك.

وقد غُفِلَ عن هذه النقطة الهامّة في الغالب، وتَصوّر البعض أنّ الموتَ والحياةَ رمزُ التوحيد والشرك! مع أنّ هذا الشرط (أي حياة النبيّ أو الولي عند توسُّلِ الآخرين به) ملاكٌ لكون التوسّل مفيداً أو غير مفيد، لا أنّه «ملاكٌ» لكون التوسُّلِ عَمَلاً توحيديّاً أو شركيّاً.

الثانية: إنّ تأثيرَ التوسّل وكونَه مفيداً يُشترط فيه أمران:

1. أن يكونَ الفردُ المتوسَّلُ به مُتصفاً بالعلم والشعور والقدرة.
2. أن يكونَ بين المتوسّلِ، والمتوسَّل به ارتباط واتصال وكلا هذين الشرطين (الإدراك والشعور ووجود الارتباط بينهم وبين المتوسَّل بهم) موجودان في التوسّلِ بالأنبياء، وإن فارقت أرواحُهم أجسادَهم وذلك ثابت بالأدلّة العقلية والنقلية الواضحة.

(1) سورة يوسف، الآيتان 97- 98.

إنَّ وجـودَ الحياة البرَزَخيّة من المسائل القرآنيّـة والحديثيّة المسلّمة الضَّرُوريّة، وقـد مرّت أدلّتها سابقًا. فـإذا كانَ الشهداء الّذين قُتلُوا في سبيلِ الحقِّ أحياءً حسب تصريح القرآن الكريم، فأولى أن يكون أنبياء الشهداء والأولياء المقرّبون أحياءً عند ربّهم ـ خاصة وأنّ أكثرهم قد استشهد في سبيل الله ـ أيضاً بحياة أعلى وأفضل.

ثـم إنّ هناكَ قرائن كثيرةً على وجود الارتبـاط بيننا وبين الأولياء الإلَهيين نذكر بعضَها:

1. إنّ جميـع المسلميـن يقولـون فـي نهاية الصّـلاة مخاطبيـن رسول الله ﷺ: «**السَّلامُ عَليكَ أيُّها النبيُّ ورحمةُ الله وَبَرَكاتهُ**».

فهل هم يقولون ما يقولونه لغواً وعبثاً؟ وهل النبيّ ﷺ لا يسمع كلّ هذه التحيات وكل هذا السلام ولا يردّ عليها؟!!

2. إنّ النبـيَ الأكـرم أَمَر – في معركة بدر – بأن تلقى أجسـادُ المشركين في بئر (قليـب) ثم وَقَفَ يُخاطبهم قائلاً: لَقَد وَجَدْنا ما وَعَدنا ربُّنا حقاً، فهل وَجَدتُم مـا وَعَدَكـم ربُّكم حَقاً؟ فقـال أحدُ أصحـاب النبي ﷺ: يا رسـولَ الله أتكلم الموتى؟! فقالَ النبيُ ﷺ: «**ما أنْتُمْ بأسَمعَ منْهُمْ**»[1].

3. لقـد ذَهَبَ رسولُ الله ﷺ إلـى البقيع مراراً وقال مخاطباً أَرواح الراقدين في القبور والأجداث: «**السَلامُ على أهلِ الدّيار من المؤمنين والمؤمنات**».

وفي رواية كان يقولُ: «**السلامُ عليكمْ دارَ قوم مؤمنين**»[2].

وفي الختام نُذَكّرُ بأنّ للتَوَسُّلِ بالأنبياء والأولياء صُوَراً مختلفةً جاء شرحُها في كُتُبِ العَقائد.

(1) البخاري، الصحيح، ج 2، ص101، باب قتل أبي جهل.
(2) مسلم، الصحيح، ج 3، ص 63، باب ما يقال عند دخول القبر.

المفاهيم الرئيسة

- إنّ حياةَ البَشَر قائمةٌ على أساس الاستفادة من الوسائل الطبيعيّة والاستعانة بالأسباب، التي لكلّ واحد منها أثرٌ خاصٌ.
- وإنّ الذين يُفسّرُون الشركَ بالتعلُّق والتوسُّل بغير الله، إنَّما يصحُّ كلامُهم هذا إذا اعتقد الإنسان بتأثير الوسائل والأسباب على نحو الاستقلال والأصالة، وأمّا إذا اعتقد بأنَّها تؤثّر بإذن الله فإنّه سينتهي حينئذ إلى نتيجة لا تُخرِجُه عَن مسيرِ التوحيد.
- يجوز لنا التوسل بالأسباب غير الطبيعيّة إذا لاحَظنا مطلبين:

1. إذا ثَبَتَ كونُ ذلك الشيء «وسيلةً» لنيل المقاصد الدنيويّة أو الأخروية بالكتاب أو السنة.
2. إذا لم نعتقد بأيّة أصالة أو استقلال للوسائل والأسباب، بل اعتبرنا تأثيرها منوطاً بالإذنِ الإلَهي والمشيئة الإلهيّة.

- وَرَدَ التوسُّل بالأسماء والصفات الإلهيّة في الأدعية الإسلامية كثيراً.
- هناكَ أدلة كثيرة على وجود الارتباط بيننا وبين الأولياء الإلَهيين وهم أموات.

أسئلة الدرس

1- ما هي حقيقة التوسّل؟
2- ما هي حقيقة التوسّل بأسماء الله ؟
3- كيف يمكن التوسّل بالأموات؟ وما الدليل على صحّة ذلك؟

في التوسُل

كان الإمام الصادق عليه السلام أكثر ما يلحّ في الدعاء على الله بحقّ الخمسة: النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، والأمير عليه السلام، والزهراء، والحسنين عليهم السلام.

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**إنّ عبداً مكث في النار سبعين خريفاً، والخريف: سبعون سنة، ثمّ إنّه سأل الله تعالى بحقّ محمّد وأهل بيته لما رحمتني، فأوحى الله إلى جبرئيل أن اهبط إلى عبدي فأخرجه، فقال له تعالى: يا عبدي كم لبثت في النار؟ فقال: لا أُحصي يا ربّ، قال: وعزّتي وجلالي، لولا ما سألتني به لأطلت هوانك، ولكنّي ضمنت على نفسي أن لا يسألني عبد بحقّ محمّد وأهل بيته إلا غفرت له ما كان بيني وبينه، وقد غفرت لك اليوم**»[1].

والكلمات اللاتي تلقّاها آدم من ربّه، وسأله بحقّها أن يتوب عليه فتاب عليه: محمّد، وعليّ، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام، فإنّه سأله بحقّهم أن يتوب عليه. وهي الكلمات الَّتي ابتلي بها إبراهيم حيث دعا الله تعالى بحقّهم أن يتوب عليه، فتاب عليه.

(1) الصدوق، الأمالي، ص 771.

الدرس الثامن والثلاثون

الرجعة

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يبيّن حقيقة الرجعة.
2. يبيّن إمكانية وقوع الرجعة وتحقّقها.
3. يذكر الأدلّة على وقوعها في المستقبل.

مقدّمة

قضيّــة الرّجعة التي تحدّثــت عنها بعض الآيات القرآنيّــة والأحاديث المرويّة عن أهل بيت الرسالة، ممّا تعتقد به الشيعة من بين الأمّة الإسلاميّة – وليس هذا بمعنى أنّ مبــدأ الرجعــة يُعدُّ واحداً من أصــول الدين، وفي مرتبة الاعتقــاد بالله وتوحيده، والنبوة والمعاد، بل إنّها تُعَدُّ من المسلّمات القطعيّة.

حقيقة الرجعة

الرّجعة في اللُّغة ترادف العودة، وتطلق اصطلاحاً على عودة الحياة إلى مجموعة مــن الأموات بعــد النهضة العالميّة للإمام المهديّ عجل الله فرجه الشريف وهــذه العودة تتم بالطبع قبل حلول يوم القيامة. وطبقاً لهذا المبدأ، فالحديث عن العودة، يُعَدُّ من أشراط القيامة.

وعلــى ضوء ذلك، فظهور الإمــام المهديّ عجل الله فرجه الشريف شيءٌ، وعودة الحيــاة إلى مجموعة مــن الأمــوات شيء آخر، كما أن البعث يوم القيامة أمــر ثالث، فيجب تمييزها وعدم الخلط بينها.

كلمات بعض العلماء في الرجعة

قال الشيخ المفيد: «**إنّ الله تعالى يحشر قوماً من أمة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، بعد موتهم، قبل يوم القيامة، وهذا مذهب يختص به آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، والقرآن شاهد به**»[1].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج 53، ص 136.

وقـال المرتضى متحدّثاً عن الرجعة عند الشيعة: «**اعلـم أنّ الذي تذهب الشيعة الإماميـة إليـه، أنّ الله تعالى يعيـد عند ظهور إمام الزمـان، المهدي عليه السلام، قوماً ممـن كان قـد تقدّم موته مـن شيعته ليفوزوا بثـواب نصرته ومعونتـه، ومشاهدة دولتـه، ويعيـد أيضـاً قوماً مـن أعدائه لينتقـم منهم، فيلتـذوا بمـا يشاهدون من ظهور الحق وعلو كلمة أهله**»[1].

وقـال العلامة المجلسي: «**والرجعة إنما هي لممحضـي الإيمان من أهل الملّة، وممحضي النفاق منهم، دون من سلف من الأمم الخالية**»[2].

فالاعتقاد بالرجعة من الأمور القطعيّة المسلّم بها، والروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة المعصومين لا تُبقي أي مجال للشك في وقوعها.

يقول العلامـة المجلسي: «**كيف يشك مؤمن بحقيّة الأئمـة الأطهار فيما تواتر عنهم فيما يقرب من مائتي حديث صريح، رواها نيّف وثلاثون من الثقات العظام، في أزيد من خمسين من مؤلفاتهم كثقة الإسلام الكليني والصدوق و...**»[3].

وقـد وصف الشيخ الحرّ العاملي الروايات المتعلّقة بالرجعة بأنها أكثر من أن تعدّ وتحصى وأنّها متواترة معنىً[4].

هـذه بعض كلمات كبار علمـاء الشيعة ومحدثيهم حول الرجعـة، ويقع الكلام في مقامين:

الأول: إمكان الرجعة.

الثاني: الدليل على وقوعها في هذه الأمة.

(1) المرتضى، الرسائل، تحقيق: أحمد الحسيني، قم- إيران، مطبعة سيد الشهداء، 1405هـ، ج1، ص125.
(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج53، ص138.
(3) م.ن، ج53، ص122.
(4) الحر العاملي، الإيقاظ من الهجعة، تحقيق: مشتاق المظفر، ص 89، الباب الثاني، الدليل الثالث.

إمكان الرجعة

يكفي في إمكان الرجعة، إمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة، فإنّ الرجعة والمعاد، ظاهرتان متماثلتان ومن نوع واحد مع فارق أنّ الرجعة محدودة كيفاً وكمّاً، وتحدث قبل يوم القيامة، بينما يبعث جميع الناس يوم القيامة ليبدأوا حياتهم الخالدة.

وعلى ضوء ذلك، فالاعتراف بإمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة، ملازم للاعتراف بإمكان الرجعة في حياتنا الدنيوية. وحيث إنّ حديثنا مع المسلمين الذين يعتبرون الإيمان بالمعاد من أصول شريعتهم، فلا بدّ لهؤلاء إذن من الاعتراف بإمكانية الرجعة.

أضف إلى ذلك أنّه قد وقعت الرجعة في الأمم السالفة كثيراً، وقد تحدّثنا عنه عند ذكر شواهد من إحياء الموتى في الأمم السالفة نظير:

1. إحياء جماعة من بني إسرائيل[1].
2. إحياء قتيل بني إسرائيل[2].
3. موت ألوف من الناس وبعثهم من جديد[3].
4. بعث عُزَيْر بعد مائة عام من موته[4].
5. إحياء الموتى على يد النبيّ عيسى عليه السلام[5].

وبعد وقوع الرجعة في الأمم السالفة، هل يبقى مجال للشك في إمكانها؟

وتصوُّر أنّ الرجعة من قبيل التناسخ المحال عقلاً، تصوُّر باطلٌ، لأنّ التناسخ عبارة عن رجوع الفعلية إلى القوة، ورجوع الإنسان إلى الدنيا عن طريق النطفة،

(1) سورة البقرة، الآيتان 55 و 56.
(2) سورة البقرة، الآيتان 72 و 73.
(3) سورة البقرة، الآية 243.
(4) سورة البقرة، الآية 259.
(5) سورة آل عمران، الآية 49.

والمـرور بمراحل التكوُّن البشري من جديد، ليصير إنساناً مرة أخرى، سواء أدَخَلَتْ روحُـه فـي جسـم إنسـان أم حيوان، وأين هـذا من الرجعـة وعود الـروح إلى البدن المتكامل من جميع الجهات، من دون أن يكون هناك رجوع إلى القوة بعد الفعلية.

أدلة وقوع الرجعة

يدل على وقوع الرجعة في هـذه الأمّة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾[1].

لا يوجـد بين المفسّرين من يشك بأنّ الآية الأولـى تتعلّق بالحوادث التي تقع قبل يوم القيام، ويدل عليه ما روي عن النبي الأكرم من أنّ خروج دابة الأرض من علامات يـوم القيامـة، إلا أنّ هناك خلافاً بيـن المفسرين حول المقصود مـن دابة الأرض، وكيفيّة خروجها، وكيف تتحدث، وغير ذلك ممّا لا نرى حاجة لطرحه؟

روى مُسلـم أنّـه قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنّ الساعة لا تكون حتـى تكون عشر آيات: خسفٌ بالمشرق، وخسْفٌ بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب، والدخان، والدّجال، ودابّـة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربهـا، ونارٌ تخرج من قعر عدن ترحل الناس**»[2].

إنّما الكلام في الآية الثانية، والحق أنّها ظاهرة في حوادث قبل يوم القيامة، وذلك لأنّ الآيـة تركز على حشر فوج من كل جماعة بمعنـى عدم حشر الناس جميعاً، ومن المعلـوم أنّ الحشـر ليوم القيامة يتعلق بالجميـع، لا بالبعض، يقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[3]. أفبعـد هـذا التصريـح، يمكن تفسير ظرف الآية بيوم البعث والقيامة؟

(1) سورة النمل، الآيتان 82 و 83.
(2) مسلم، الصحيح، ج 8، كتاب الفتن، وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، ص 179.
(3) سورة الكهف، الآية 47.

وهناك قرينتان أخريان، تحقّقان ظرفها لنا، إن كنّا شاكين، وهما:

أولاً: إنّ الآيــة المتقدمــة عليها تذكر للناس علامة من علامات القيامة، وهي خروج دابــة الأرضــ، ومن الطبيعي، بعد ذلــك أنّ حشر جماعة مــن الناس يرتبط بهذا الشأن.

ثانيــاً: ورد الحديــث في تلك السورة عن القيامة في الآية السابعة والثمانين، أي بعد ثــلاث آيات، قال سبحانــه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[1].

وهــذا يعرب عن أنّ ظرف ما تقدم عليها من الحــوادث يتعلق بما قبل هذا اليوم، ويُحقّــق أنّ حشر فــوج من الذين يكذبــون بآيات الله يحدث حتماً قبــل يوم القيامة، وهــو من أشراط هذا اليوم، وسيقع في الوقت الذي تخرج فيها دابة من الأرض تكلم الناس.

ومن العجب قول الرازي بأنّ حشر فوج كلّ من أمّة سيقع بعد قيام الساعة[2]، فإنّ هــذا الكلام خاوٍ لا يستند إلى أيّ أساســ. وترتيب الآيات وارتباطها ببعضها، ينفيه، ويؤكّد ما ذهب إليه الشيعة من أنّ الآية تشير إلى حدثٍ سيقع قبل يوم القيامة. أضف إلــى ذلك أنّ تخصيصــ الحشر ببعضٍ، لا يجتمع مع حشر جميع الناس يوم القيامة. نعم، الآية قــد تحدثت عن حشر المكذبين، وأمّا رجعة جماعة أخرى من الصالحين فهــو على عاتق الروايات الواردة في الرجعة. وأمّا كيفيّة وقوع الرجعة وخصوصياتها فلم يتحدّث عنها القرآن، كما هو الحال في كلامه عن البرزخ والحياة البرزخيّة.

ويؤيّــد وقوع الرّجعة في هذه الأمّة وقوعها في الأمم السالفة كما عرفت، وقد روى أبــو سعيــد الخــدري أنّ رسول الله ﷺ قــال: « **لتتَّبعُنّ سُنَــنَ من كان قبلكــم، شبراً**

(1) سورة النمل، الآية 87.

(2) ابن حنبل، المسند، ج3، ص94.

بشبر، وذراعاً بذراع. حتى لو دخلوا جحر ضبّ لتبعتموه. قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟[1].

وروى أبو هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تُؤخذ أمّتي بأخذ القرون قبلها، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله: كفارس والروم، قال: وَمَن الناس إلّا أولئك؟**»[2].

وروى الشيخ الصدوق رحمه الله قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل ما كان في الأمم السابقة فإنه يكون في هذه الأمة مثله، حذو النعل بالنعل، والقذّة بالقذة**»[3].

وبما أنّ الرجعة من الحوادث المهمّة في الأمم السالفة، فيجب أن يقع نظيرها في هذه الأمّة أخذاً بالمماثلة، والتنزيل. وقد سأل المأمون العباسيّ، الإمام الرضا عليه السلام عن الرّجعة فأجابه، بقوله: إنّها حقّ، قد كانت في الأمم السالفة، ونطق بها القرآن، وقد قال رسول الله ﷺ: «**يكون في هذه الأمّة كلّ ما كان في الأمم السالفة حذو النعل بالنعل، والقذة بالقذة**»[4].

هذه هي حقيقة الرجعة ودلائلها، ولا يدّعي المعتقدون بها أكثر من هذا، وحاصله عودة الحياة إلى طائفتين من الصالحين والطالحين، بعد ظهور الإمام المهديّ عجل الله فرجه، وقبل وقوع القيامة. ولا ينكرها إلّا من لم يمعن النظر في أدلّتها[5].

(1) البخاري، الصحيح، كتاب الإعتصام بقول النبي ﷺ، ج 9، ص 112.
(2) م.ن، ج 9، ص 102، وكنز العمّال، ج 11، ص 133.
(3) الصدوق، كمال الدين، ص345.
(4) المجلسي، بحار الأنوار، ج 53، ص 59، الحديث 45.
(5) بقي هنا بحثان: من هم الراجعون. ما هو الهدف من إحيائهم.
وإجمال الجواب عن الأول أن الراجعين لفيف من المؤمنين ولفيف من الظالمين.
وإجمال الجواب عن الثاني ما جاء في كلام السيد المرتضى المنقول آنفاً، حيث قال: «إن الله تعالى يعيد عند ظهور إمام الزمان، المهدي عليه السلام، قوماً ممن كان تقدم موته من شيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته، ومشاهدة دولته، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم... إلى آخر كلامه».
لاحظ تفصيل جميع ذلك في البحار، ج 53. والإيقاظ من الهجعة بالبرهان على الرجعة، للشيخ الحر العاملي.

المفاهيم الرئيسة

- قضيّـة الرجعة التـي تحدثت عنها بعض الآيات القرآنيـة والأحاديث المروية عن أهل بيت الرسالة، ممّا تعتقد به الشيعة من بين الأمة الإسلامية.
- الرجعـة فـي اللُّغة تـرادف العودة، وتطلـق اصطلاحاً على عـودة الحياة إلى مجموعة من الأموات بعد النهضة العالمية للإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.
- يكفي في إمكان الرجعة، إمكان بعث الحياة من جديد يوم القيامة.
- يـدل على وقوع الرجعة في هذه الأمّة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.
- كيفيّة وقوع الرجعة وخصوصياتها لم يتحدث عنها القرآن، كما هو الحال في تحدثه عن البرزخ والحياة البرزخية.

أسئلة الدرس

1- ما هي حقيقة الرّجعة؟ واذكر بعض كلمات العلماء في شأنها.

2- هل تعتبر الرجعة ممكنةً؟ بيّن ذلك.

3- اذكر الأدلة والقرائن التي تفيد إمكان الرجعة ووقوعها مستقبلًا.

النبيّ موسى عليه السلام والرجعة

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. هاتان الآيتان تذكران بني إسرائيل بنعمة إلهية أخرى، كما توضحان في الوقت نفسه روح اللجاج والعناد في هؤلاء القوم، وتبيان ما نزل بهم من عقاب إلهي، وما شملهم الله به من رحمة بعد ذلك العقاب. تقول الآية الأولى: وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة. هذا الطلب قد ينم عن جهل بني إسرائيل، لأن إدراك الإنسان الجاهل لا يتعدى حواسه. ولذلك يرمي إلى أن يرى الله بعينه. أو قد يحكي هذا الطلب عن ظاهرة لجاج القوم وعنادهم التي يتميزون بها دوماً.

على أي حال، طلب بنو إسرائيل من نبيهم بصراحة أن يروا الله جهرة، وجعلوا ذلك شرطاً لإيمانهم عندئذ شاء الله سبحانه أن يرى هؤلاء ظاهرة من خلقه لا يطيقون رؤيتها، ليفهموا أن عينهم الظاهرة هذه لا تطيق رؤية كثير من مخلوقات الله، فما بالك برؤية الله سبحانه نزلت الصاعقة على الجبل وصحبها برق شديد ورعد مهيب وزلزال مروع، فتركهم، على الأرض صرعى من شدة الخوف فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون. اغتم موسى لما حدث بشدة، لأن هلاك سبعين نفراً من كبار بني إسرائيل، قد يوفر الفرصة للمغامرين من أبناء القوم أن يثيروا ضجة بوجه نبيهم. لذلك تضرع موسى إلى الله أن يعيدهم إلى الحياة، فقبل طلبه وعادوا إلى الحياة: ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون[2].

(1) سورة البقرة، الآيتان 55 و 56.

(2) الشيرازي، سلسلة أصول الدين، ج1، ص230.

الدرس التاسع والثلاثون

صيانة الآثار الإسلامية

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يذكر ما حكاه القرآن في حفظ تراث الأنبياء.
2. يبيّن مشروعيّة زيارة القبور من خلال القرآن والسنّة.
3. يوضّح ما هو المقصود من الغلو.

منافع حفظ آثار السابقين

يسعى كلُّ العقلاء في العالَم في حفظ آثار عظمائهم، وأسلافهمْ، ويحمونها من الاندثار والزوال بحجّة كونها «**تراثاً فكريّاً**» وآثاراً حضاريّة، وتجتهدُ الأممُ المتحضّرة والراقية في حفظ الآثار الوطنيّة القديمة وما خلّفه أسلافُها من مفاخر جديرة بالاعتزاز، لأنّ آثار الأسلاف هي في الحقيقة حلقة الوصل بين القديم والجديد، والماضي والحاضر، وهي ترسم حركة الشّعوب والأمم في مسار التقدّم والرقيّ، وتضيء لها الطريق، والسبيل.

ثم إنّ الآثارَ القديمةَ إذا كانت ترتبط بالرّسلِ والأنبياء عليهم السلام فإنّ الحفاظَ عليها وحراستَها - مضافاً إلى ما ذُكرَ من الفائدة - تساعد بصورة قوية في المحافظة على اعتقاد الناس وإيمانهم بأُولئك الرسُل والأنبياء، ويكون لها أبلغ الأثر في تقوية دعائمها، وتجذيرها وتأصيلها، بينما يؤدّي زوالُها، واندثارها بعد مدّة إلى انقداح روح الشك، والريب في نفوس أتباعهم، ويعرض أصلَ الموضوع لخطر الغموض، والإبهام، والنسيان والضياع.

وللمثال نشير إلى المجتمع الغربي، فإنّ الناس في هذا المجتمع وإن اصطبغت حياتهم بالصبغة الغربية، وأخذوا بآدابها وأخلاقها تماماً، ولكنهم في مجال العقيدة مدّوا أيديهم نحو الشرق، واعتنقوا الدين المسيحي وخضعوا لسلطانه ردحاً

مـن الزمـن بيد أنّهم مع تغيّـر الأوضاع، وتنامي روح البحـث والتحقيق لدى الشباب الغربـيّ بدأ الشك والترديد يـدَبُّ في نفوسهم، وباتوا يشكّون فـي أصل وجود السيد «**المسيح**» عليه السلام إلى درجة أنّهم على أثر عدم وجود آثار ملمُوسة من السيّد «**المسيح**» عادوا يعتبرونه أسطورةً تاريخيّةً.

في حين أنّ المسلمين ظلّوا في منأى عن مثل هذه الحالة، فقد حافظوا على طول التاريـخ وبكلّ فخر واعتزاز على الآثار المتبقّية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبنائه من خطر الاندثار، والزوال بسبب الحوادث.

فالمسلمـون يَدّعُون أنّ شخصيّة نبيلة طاهرةً اختيرت قبل أربعة عشر قرناً للنبوة وللرسالة، وقام ذلك النبي بمعونة برنامجه الراقي جداً بإصلاح المجتمع، وأوجد في ذلـك المجتمع تحوّلاً عظيماً، وانقلاباً عميقاً، وأسّس حضارة كبرى لا يزال المجتمع يستفيـد من معطياتها، وثمارها، ولا سبيل للشك قـط في وجود مثل هذه الشخصيّة المُصلحة، ولا في الحضارة التي أسّسها وأرسى قواعدها، لبقاء آثاره إلى هذا اليوم، فمحـل ولادته، ومكان عبادتـه ومناجاته، والنقطةُ التي بُعثَ فيهـا، والنقاط الأخرى التي ألقى فيها خُطَبَه، والأماكن التي دافع فيها عن عقيدته ورسالته، والرسائل التي تبودلـت بينـه وبين ملوك العالم وحكام الدُّول في عصـره، والعشرات بل المئات من آثاره، والعلائم الدالة عليه، باقية من دون أنْ تمسّها يدُ التغيير، ومن دون أن تطالها معاول الزوال، فهي محسوسةٌ ومشهودة للجميع.

حفظ آثار الأنبياء وتراثهم في القرآن الكريم

وهـذا البيان يمكـن أن يوضّـح أهميّة حفظ الآثـار من جهة التفكيـر الاجتماعي ودورها فـي هدايته وقيادته. وهو أمـر أيّدته النصوص القرآنيّـة وسيرة المسلمين، فقد قال تعالى فـي القرآن الكريم: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾[1].

وليس المراد من لفظ «**البيوت**» الوارد في هذه الآية «**المساجد**» لأنّ البيوت جاءَ في القرآن الكريم في مقابل المساجد، لأنّ «**المسجد الحرام**» غير «**بيت الله الحرام**» فالبيوتُ في هذه الآية يراد منها بيوتُ الأنبياء، وخاصة بيت الرسولِ الأكرم محمّد ﷺ، وذرّيته الطاهرة.

فقد روى السيوطيّ في تفسيره «**الدرّ المنثور**»: عن أنس بن مالك، وبرَيدة، قالَ: «**قرَأَ رسولُ الله ﷺ هذه الآية، فقام إليه رجلٌ فقال: أيُّ بُيوت هذه يا رسُول الله؟ قال: بيوت الأنبيا. فقام إليه أبو بكر فقال: يارسول الله هذا البيت منها؟ مشيراً إلى بيت علي وفاطمة، قال: نعم من أفاضلها**»[2]. والآن - بعد أنْ اتّضح المرادُ من «**البيوت**» - لا بدّ من توضيح المراد من «**ترفيع البيوت**».

إنّ هناك احتمالين في هذا المجال:

1. **الترفيع**: بمعنى بناءِ البيوت وتشييدها، كما جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[3].

2. **الترفيع**: بمعنى احترام تلك البيوت وحراستها، والمحافظة عليها.

فعلى المعنى الأوّل، حيث إنّ بيوت الأنبياء قد بُنيَت قبلَ ذلك، لهذا لا يمكن أن يكون المراد من الترفيع في الآية الحاضرة هو إيجاد البيوت، بل المراد هو حفظها من الانهدام والزوال. وبناءً على المعنى الثاني، يكون المراد من حفظ تلك البيوت هو مضافاً إلى صيانتها من الخراب والانهدام ـ حفظها من أيّ نوع من أنواع التلوث المنافي لقداستها وحرمتها.

(1) سورة النور، الآيتان 36 و 37.
(2) السيوطي، الدر المنثور، ج 5، ص 50.
(3) سورة البقرة، الآية 127.

وعلى هذا الأساس يجب على المسلمين السعيُ في تكريم، وحراسة البيوت المرتبطة بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وعليهم أنْ يعتبروا هذا العمل أمراً قربيّاً، أي مقرّباً إلى الله سبحانه. ثم إنّه يُستفاد من الآية التي تدورُ حول أصحاب الكهف أنّه عندما اكتُشفَ موضعُ اختفائهم، اختلف الناس في كيفية تكريمهم فصاروا فريقين: فريق قالوا: يجب البناء على قبرهم بغية تكريمهم. وفريق آخر قالوا: يجب بناء مسجد على مرقدهم، وقد أخبر القرآنُ الكريم بكلا الاقتراحين، وكلا الرأيين، ولو كان هذا العمل، أو ذلك مخالفاً لأصول الإسلام لأخبر بهما بنحو آخر، ولتناوَلهما بالنقد. ولكنه رواهما من دون نقد، إذ قال: ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[1].

إنّ هاتين الآيتين (مع ملاحظة سيرة المسلمين المستمرة من عصر رسول الإسلام إلى هذا اليوم والمستقرة على حفظ هذه الآثار، والمحافظة على البيوت المرتبطة برسول الله وأهل بيته المطهرين وحراستها) دليل واضحٌ وبرهان قاطع على كون هذا الموقف موقفاً إسلامياً، وأصلاً شرعياً.

ولهذا تقوم مسألة تعمير مراقد الأنبياء ـ وبصورة خاصّة مراقد رسولِ الله وعترته الطاهرة صلوات الله عليهم ـ وبناءِ المساجد عليها، أو إلى جانبها، على أساس هذا الأصل الإسلامي.

زيارة قبور المؤمنين

تُعتبر زيارةُ قبور المؤمنين، وبخاصّة قبور الأقرباء والأبناء منهم، من الأصول الإسلامية التي تنطوي على آثار تربويّة في نفس زائريها، وذلك لأنّ مشاهدة تلك الديار الصامتة التي يرقد فيها أُناس كانوا قبل ذلك يعيشون في الدنيا، ويقومون بمختلف النشاطات، ولكنّهم أصبحوا بعد حين أجداثاً خامدة، وجثثاً هامدة، جديرة

(1) سورة الكهف، الآية 21.

بأن تهزَّ الضمير، وتوقظ القلوب، وتنبّه الغافلين، وتكون درس عبرة لا ينسى.

فـإنّ من يشاهد هذا المنظـر سيحدّث نفسه قائلاً: وما قيمـة هذه الحياة الدنيا التـي سرعان ما تنتهي، وتكون مآلُها مـوت الإنسان ورقوده تحت التراب. هل يستحق العيشـ في مثل هـذه الدنيا الفانية أن يقـوم فيها الإنسان من أجلـه بأعمالٍ ظالمة، وممارسات فاسدة؟

إنّ هـذا التساؤل الذي يواجهه ضميرُ الإنسان المفكّـر في مصير البشر، سيدفع بـه إلى إعـادة النظر في سلوكـه وممارساته، وسيؤدّي ذلك إلى حصـول تحوّلٍ كبيرٍ فـي روحه ونفسه. وقـد أشارَ رسولُ اللّه ﷺ إلى هذا الأثر الهـامّ، إذ قال في حديث شريف: «**زُورُوا القبورَ فإنّها تذَكِّرُكم بالآخرَة**»[1].

ثـم إنّه مُضافاً إلى هـذا تُعتبر زيارةُ مراقد أئمة الدين وقادتـه نوعاً من الترويج للقيـم الدينيّة، والمعنويّة، كما أنّ اعتناءَ النـاس بمراقد أولئك الشخصيّات سيُقوّي لديهم الفكرة التالية، وهي أنّ الحالة المعنوية التي كانت تلك الشخصيات تتمتّع بها هي التي جذبت قلوب الناس إليهم، وهي التي رفعتهم إلى تلك المنزلة العظيمة التي حـازوا بها احترام النـاس وتكريمهم لهم، إذ رُبّ رجال من أصحاب السلطان والقوّة يرقدون تحت التراب دون أن يحظوا بمثل هذه العناية والاحترام من قِبَل الناس.

ولقد كانَ رسول اللّه ﷺ يذهبُ في أُخريات حياته إلى البقيع، ويستَغْفر لأصحاب القبـور، ويقـول: «**أَمَرَني رَبّـي أنْ آتـي البَقيعَ وأستَغْفـرَ لَهمْ**» ثم قـالَ: إذا زُرْتُمُوهُمْ فقولوا: «**السلامُ على أهْل الدّيار من المُؤمنين والمُسْلمين يَرحَمُ اللّه المُسْتقدمينَ منّا والمُسْتَأخرين، وإنّا إنْ شاءَ اللّه بكم لاحقُون**»[2].

(1) القزوينـي، سنـن ابن ماجة، تحقيق: محمـد فؤاد عبد الباقي، بيروت – لبنـان، دار الفكر، ج 1، باب ما جاء في زيارة القبور، ص 500.

(2) مسلم، الصحيح، ج 2، باب ما يقال عند دخول القبور، ص 64.

وقد اعتُبرت زيارَةُ قُبور أولياء الله وأئمّة الدين ـ في كُتب الحديث ـ من الأعمال المستحبَّة المؤكدة، وكان أئمة أهل البيت يَذهَبُون دائماً لزيارة رسول الله ﷺ وغيرهم من الأئمة المتقدمين عليهم، وكانوا يحثُّون أتْباعَهم على هذا العمل.

المنع عن الغلو

تقع مسألة الغلو في أولويات الكلام عن حفظ الآثار الإسلامية، وذلك لأن الغلو يعمل على تغيير معالم تلك الآثار وتحويرها بما لا يتناسب مع المسلمات والأصول، بل فإن الغلو يأتي في مقابل حفظ تلك الآثار، وبالتالي لا بدّ من بيان حقيقته.

«**الغُلُوّ**» في اللُّغة هو التجاوز عن الحدّ، وقد خاطب القرآنُ الكريمُ أهلَ الكتاب قائلاً: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[1].

ولقد خاطَبهم القرآنُ بهذا الخطاب لأنّهم كانُوا يغالُون في حق السيّد «**المسيح**» ويتجاوزون الحدّ، إذ يقولون إنّه إلَهٌ، أو ابنُ الله، أو ربّ.

وقد ظَهَرتْ بعد وفاة رسول الله ﷺ فرقٌ وطوائفُ غالَت فيه ﷺ أو في الأئمة المعْصُومين، من بعده وتجاوزت الحدَّ، ووصفوهم بمقامات مختصَّة بالله وحده، ومن هنا سُمّي هؤلاء بالغُلاة، لتجاوزِهم حدود الحق.

يقولُ الشيخُ المفيد: «**الغُلاة من المتظاهرين بالإسلام همُ الذين نَسَبوا أمير المؤمنين إلى الأُلوهية والنبوَّة، ووصفوهم من الفضل في الدين والدنيا، إلى ما تجاوزوا فيه الحدَّ، وخَرَجُوا عن القصد**»[2].

ويقول العلاّمةُ المجلسيّ: إنّ الغُلُوّ في النبيّ والأئمّة: إنّما يكون بالقول بأُلُوهيتهم، أو بكونهم شركاء لله تعالى في المعبوديّة، أو في الخلق، والرزق، أو أنّ الله تعالى حلَّ فيهم، أو اتّحدَ بهم، أو أنّهم يعلمون الغيب بغير وحيٍ أو إلهامٍ من الله تعالى، أو

(1) سورة النساء، الآية 171.

(2) المفيد، تصحيح اعتقادات الإمامية، ص 131.

بالقولِ في الأئمّة أنّهم كانوا أنبياء، أو القول بأنّ معرفتهم تُغني عن جميع الطاعات، ولا تكليف معها بترك المعاصي[1].

ولقد تبرَّأَ الإمام عليٌّ وأبناؤُهُ الطاهرون صلوات الله عليهم من الغلاة، وكانوا يلعنونهم على الدّوام، ونحن هنا نكتفي بإدراج حديثٍ واحدٍ في هذا المجال.

يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «**احذَرُوا على شَبابِكُمُ الغُلاةَ لا يُفْسدُوهُمْ، فإنَّ الغلاةَ شرُّ خلقِ الله، يُصغِّرونَ عظمةَ الله ويَدَّعُون الربوبيّة لعباد الله**»[2].

ولهذا لا قيمة لتظاهرِ الغُلاة بالإسلام، فهم عند أئمة الدين كفارٌ ضُلاَّلٌ.

هذا ومن الجدير بالذكر هنا أنْ يقال: كما يجب الاجتنابُ حتماً عن الغلوّ، يجب أن لا نعتبر كلَّ تصوّرٍ واعتقادٍ في حقّ الأنبياء، وأولياء الله غُلوّاً، ويجب الاحتياط في هذا المجال كبقيّة المجالات الأخرى، وتقييم العقائد بشَكل صحيح.

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج 25، ص 347.
(2) م.ن، ج25، ص265، ح6.

المفاهيم الرئيسة

- يسعى كلُّ العقـلاء في العالَم في حفظ آثار عظمائهم، وأسلافهمْ، ويحمونها من الاندثار والزوال بحجّة كونها «**تراثاً فكرياً**» وآثاراً حضاريّة.
- إنّ الآثـارَ القديمـةَ إذا كانـت ترتبـط بالرّسـلِ والأنبياء فإنّ الحفـاظَ عليها وحراستَهـا تساعـد بصورةٍ قويّةٍ في المحافظة على اعتقـاد الناس وإيمانهم بأُولئك الرسُل والأنبياء.
- حفظ الآثار أمر أيّدته النصوص القرآنيّة وسيرة المسلمين.
- تُعتبر زيارةُ قبور المؤمنين، وبخاصّة قبور الأقرباء والأبناء منهم، من الأصول الإسلامية التي تنطوي على آثار تربويّة في نفس زائريها.
- «**الغُلوّ**» في اللُّغة هو التجاوز عن الحدّ.
- وقد خاطب القرآنُ الكريمُ أهلَ الكتاب قائلاً: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾[1]، وذلـك لأنّهم كانُـوا يغالُون في حق السيّد «**المسيح**» ويتجاوزون الحدّ، إذ يقولون إنّه إلَهٌ، أو ابنُ اللّه، أو ربّ.

أسئلة الدرس

1- كيف بيّن القرآن ضرورة حفظ تراث الأنبياء عليهم السلام؟ بيّن ذلك.

2- هل يوجد دليل على مشروعية زيارة القبور؟ اذكر ذلك.

3- اذكر آية قرآنيّة تنهى عن الغلو. واشرحها.

(1) سورة النساء، الآية 171.

زيارة القبور

عـن الإمـام الباقر عليه السلام قال: «**إذا كان يوم الجمعة فزرهم، فإنه من كان منهم في ضيق وسع عليه ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، يعلمون بمن أتاهم في كل يـوم، فـإذا طلعت الشمس كانوا سدى، قلت: فيعلمون بمن أتاهم فيفرحون به؟ قال: نعم ويستوحشون له إذا انصرف عنهم**».

بيـان: السدى بالضم ويفتـح: المهمل، ولعل المعنى: أنهم يـوم الجمعة بعد طلوع الشمـس أيضـاً مهملون غير معذبيـن، أو المعنى أنه يوسع عليهم فـي يوم الجمعة أو الزيـارة في يوم الجمعة تصير سببـاً لذلك. وقوله: «**ما بين طلـوع الفجر استيناف كلام. أي فـي كل يـوم يطلعون علـى زوارهم في ذلك الوقت لأنهـم في القبور فإذا طلعت الشمس يرخص لهم فيخرجون من قبورهم**»[1].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، ج6، ص256.

الدرس الأربعون

مصادر الحديث وحجيّتها

أهداف الدرس

على الطالب مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعدّد مصادر علم الأئمّة عليهم السلام.
2. يبيّن حجية الأحاديث المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام.
3. يبيّن أهميّة المجاميع الحديثية الأربعة لدى الشيعة.

مقدمة

يَعمـلُ الشيعة الإمامية في العَقائد والأصـول بأحاديث مرويّة عن رسولِ الله ﷺ عن طريق ثقات يُعتَمَد عليهم، سواء أكانت هذه الروايات والأحاديث. في كتب الشيعة أم في كتب أهل السُّنّة.

مـن هنا ربّمـا استَنَد الشيعة فـي كتبهم الفقهيّـة إلى روايـات منقولة عن طريق رواة مـن أهل السّنة أيضاً، ويُسمّى هذا النوع من الحديث الذي تُصَنَّف أقسامه على أربعـة أقسـام، بالموثّق. وعلى هذا فإنّ ما يرمي به البعضـ من المغرضين «**الشيعةَ الإماميةَ**» في هذا المجال لا أساس له من الصحّة مطلقاً.

إنّ الفقـه الشيعيَّ الإماميَّ يقوم أساساً على الكتاب والسُّنّة، والعقل، والإجماع. والسُّنَّة عبـارة عن قـول المعصومين وفعلهم وتقريرهم وعلى رأسهـم رسول اللّه ﷺ. وعلى هذا إذا روى شخصٌ ثقة حديثاً عن رَسـول اللّه ﷺ واشتمل ذلك الحديثُ على قولِ النبي، أو فعله، أو تقريره، كانَ معتبراً في نظر الشيعة الإمامية وتلقّوه بالقبول وعملوا وفقه.

ومـا نجده في مؤلّفـات الشيعة ومصنّفاتهم شاهدُ صـدق على هذا القول، ويجبُ أن نقـول: إنَّـه ليس هناك أيُّ فرق بين كتب الشيعة في الحديث، وكتب أهل السنّة في الحديـث، في هـذا المجال، إنّما الكلام هـو في تشخيص من هـو الثقة، وفي درجة اعتبار الراوي.

حجيّة الأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام

إنّ الأحاديث والرّوايات التي تُنْقَل عن أئمة أهل البيت المعصومين بأسناد صحيحة، حجّةٌ شرعيّة، ويجب العمل بمضمونها، والإفتاء على أساسها.

إنّ أئمة أهل البيت: ليسوا بمجتهدين أو «**مفتين**» - بالمعنى الاصطلاحيّ الرائج للَّفظتين - بل كلُّ ما يُنقَلُ عنهم حقائق حَصَلوا عليها من الطُرُقِ التالية:

1. **النَقْل عن رَسُول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم:**

إنّ الأئمّة المعصومين: أخَذوا أحاديثهم من جَدّهمْ رسولِ اللّه صلى الله عليه وآله وسلم (خَلفاً عن سَلَف وكابراً عن كابر) ثم رووها للنّاس. وإنّ هذا النَوع من الأحاديث والرِّوايات التي رَواها كلُّ إمام لاحق عن الإمام السابق إلى أن يصل السَند إلى رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة في أحاديث الشيعة الإمامية.

ولو أنّ هذه الأحاديث التي وردت عن أهل البيت واتصل سَنَدها ابرسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم جُمِعَت في مكانٍ واحد لحصل منها مُسْنَدٌ كبيرٌ يُمثل كَنزاً عظيماً للمحدّثين، والفُقَهاء المسلمين، لأنّ مثل هذه الأحاديث والروايات بهذه الأسانيد المُحكَمة القَويّة لا نَظير لها في عالم الحَديث، ونشير إلى نموذج واحد من هذه الأحاديث، ويسمّى بحديث «**سلسلة الذهب**» ويُقال إنّ السامانيّين كانوا يحتفظون بنسخة منه في خزانتهم حبّاً منهم للأدب والعلم.

روى الشيخُ الصَّدوقُ، عن أبي سعيد محمّد بن الفَضل النيسابوري، عن أبي علي الحسن بن علي الخزرجي الأنصاري السعديّ، عن أبي الصَّلت الهَرَويّ، قال: كنتُ مع علي بن موسى الرّضا عليه السلام حين رَحَلَ من «**نيسابور**» وهو راكبٌ بغلةً شهباء، فاذا محمّد بن رافع، وأحمد بن حرب، ويحيى بن يحيى، وإسحاق بن راهويه، وعدّةٌ من أهل العلم، قد تَعَلَّقوا بلجام بغلته في المربعة فقالوا: بحقّ آبائك المطهَّرين، حدّثنا بحديث قد سَمِعته من أبيك، فأخرَجَ رأسَه من العَمارية،

وعَليه مطرف خزٍّ ذو وجهين، وقال: «**حَدَّثَني أبي العبدُ الصالح موسى بنُ جعفر قال: حَدَّثني أبي الصادقُ جعفرُ بنُ محمّد قالَ: حَدَّثني أبي أبو جَعفر محمّد بنُ علي باقر علم الأنبياء قالَ: حَدَّثَني أبي عليُّ بن الحسين زينُ العابدين قالَ: حَدَّثني أبي سيدُ شباب أهل الجَنَّة الحسينُ قالَ: حَدَّثني أبي عليُّ بنُ أبي طالب قالَ: سَمعْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وآله وسلم يقول: قالَ الله جَلَّ جَلالُه: لا إلَهَ إلاّ الله حصْني فَمَنْ دَخَلَ حصْني أمنَ من عَذابي**». فلَما مَرَّت الراحلةُ، نادانا: «**بِشُروطها، وأنا من شُروطها**»[1].

2. الرواية من كتاب عليٍّ عليه السلام:

لقد صاحَبَ عليٌّ عليه السلام رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم في فترة بعثته كلّها، ولهذا استطاع أن يحفظ ويدوّن قدراً عظيماً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب، وفي الحقيقة كان ذلك الكتابُ من إملاءِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم وكتابة علي عليه السلام.

ولقد ذُكِرَت خُصوصيّات هذا الكتاب الذي صار بعد استشهاد الإمام علي عليه السلام إلى أهل بيته في أحاديث أهل البيت. يقول الإمام الصّادق عن هذا الكتاب: «**طولُه سَبْعون ذراعاً، إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاله من فلق فيه، وخطّ علي بن أبي طالب عليه السلام بيده، فيه والله جميع ما تحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة**»[2].

ومِنَ الجدير بالذّكر أنّ هذا الكتاب بقيَ عند أهل البيت يتوارثه إمامٌ من إمام، وقد نقل الإمام الباقر والإمام الصّادق عليهما السلام روايات عديدة منه وربّما أطلَعُوا بعضَ شيعتهم عليه. ويوجَدُ قسمٌ كبير من أحاديثه الآن في المجاميع الحديثية الشيعية وبالأخص كتاب «**وسائل الشيعة**».

(1) الصدوق، التوحيد، ص25، باب 1، الأحاديث 21، 22، 23.
(2) المجلسي، بحار الأنوار، ج26، ص18، باب1، ح1.

3. الإلْهاماتُ الإلهيّة:

إنّ لعلوم أهلِ البيت، مَنبعاً آخر يمكن أن نسَمّيه بالإلهام. والإلهامُ ليس مخصوصاً بالأنبيـاء، فقد كان في طول التاريخ مـن الشخصيات المقدَّسة مَن كان يحظى بهذا الإلهـام، مع أنّهم لـم يَكونوا أنبياء، وقد كانـت تلقى إليهم بعضُ الأسرار من عالم الغيـب، وقد أشار القـرآنُ الكريمُ إلى ذلـك عندما تَحدَّثَ عن مرافـق النبيّ موسى (خضـر) الّذي علّم موسى بعضَ الأشياء فقال: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[1].

كمـا وأنّه قال في شـأن شخص من حاشية النبيّ سليمـان عليه السلام (وهو آصف بن برخيا) قال: ﴿قَالَ الَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَٰبِ﴾[2].

إنّ هؤلاء الأشخاص لم يَتَعلَّموا علومَهم، ولم يَكتسبُوا مَعلوماتهم من طريق التعلّم، بل هو كما يُعَبّرُ عنه القرآنُ علمٌ لَدُنيٌّ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

وعلـى هذا الأساس لا يكونُ عدم كون الشخص نبيّاً، مانعاً من أن يحظى بالإلهام الإلَهـيّ، كما يحظى بعضُ الأشخاص مـن ذوي الدَرَجات المعنويّـة الرفيعَة بالإلْهام الإلَهيّ.

وقد أُطلق على هذا النَمَط من الأشخاص في أحاديث الفريقين وصف «**المُحدَّث**» يعني الّذين تَتَحَدّثُ معهم الملائكةُ من دون أن يكونوا أنبياء.

فقـد رَوى البخـاريُّ في صحيحه عـن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قـال: «**لَقَـدْ كانَ فيمَنْ كانَ قَبْلَكُمْ من بَني إسْرائيل يُكلَّمون مِن غَيرِ أنْ يَكُونوا أنْبياء**»[3].

(1) سورة الكهف، الآية 65.
(2) سورة النمل، الآية 40.
(3) البخاري، الصحيح، ج4، ص200، باب مناقب المهاجرين وفضلهم.

من هنا كان أئمة أهل البيت عليهم السلام لكونهم مراجعَ للأمة في بيان المعارف الإلهيّة، والأحـكام الدينيّة، يجيبون على الأسئلة التي لا توجَد أجوبتها في أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو في كتاب علي عليه السلام ، من طريق «الالهام» والتعليم الغيبي، والعِلمِ اللَدُنِيّ.

المصادر الحديثيّة عند الشيعة

لقـد قام علمـاءُ مدرسة أهل البيـت وعلى طول التاريخ، بتأليـف مجاميع حديثيّة كبيـرة، ومدوَّنات تضمُّ الرّوايات والأخبار، جـاءَ ذكرها في كتب الرجال، خاصّة في القـرنِ الرابعِ والخامسِ الهجريّين، مستفيدين- فـي هذا الصعيد - من الكتب التي تمَّ تأليفُها وتدوينُها في عصر الأئمة، وعلى أيدي أصحابهم وتلامذتهم العَديدين.

الكتب الأربعة الجامعة

الكتـب الحديثيـة الجامعـة المدَوَّنة التـي تعتَبَرُ اليـومَ محوراً للعقائـد والأحكام الشيعية هي عبارة عن:

1. «**الكافي**»: تأليف محمّد بن يعقوب الكلينيّ (المتوفّى عام 329هـ) في ثمانيّة أجزاء.
2. «**مَنْ لا يَحْضرُه الفقيهُ**»: تأليف محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه المعروف بالصدوق (306 ـ 381 هـ) في أربعة أجزاء.
3. «**التَهذيب**»: تأليف محمّد بن الحسن المعروف بالشيخ الطوسيّ (385-460 هـ) في عشرة أجزاء.
4. «**الاستبصار**»: تأليف المؤلف السابق، في أربعة أجزاء.

وهـذه هي ثاني مجموعة من المجاميـع الحديثيّة التي دوَّنها ونَظَّمها الشيعةُ، طوال التاريـخ، بجهودِهمُ الحثيثة حتى القـرن الرابع والخامس الهجريّين، وقـد أُلِّفَتْ ـ كما ذكرنا ـ في عصر الأئمة أي القرن الثاني والثالث جوامع حديثيّة تُسمّى بالجَوامع الأوَّليّة، بالإضافة إلى «**الأصول الأربعمائة**» وقد انتقلت محتوياتها إلى الجوامع الثانويّة.

وحيـثُ إنّ علـمَ الحديث كانَ دائماً موضعَ اهتمام الشيعـة، لذلك أُلّفَت في القرنِ الحادي عشر، والثاني عشر مجاميعُ حديثية أخرى نترك ذكر أسمائها لعلّة الاختصار.

إلاّ أنّ أكثر هذه المجاميع شهرة هو «**بحار الأنوار**» للعلامة محمّد باقر المجلسي، ووسائل الشيعة لمحمّد بن الحسن الحرّ العاملي.

هـذا ومن البديهـيّ أنّ الشيعة لا تعمل بـكل حديث، ولا تعمل بأخبـار الآحاد، في العقائـد، أو التـي تخالـف في مضمونها القـرآنَ أو السّنـة القطعيّـة، وليست بحجّة عندهـم، على أنّ مجرّد وجـود الرواية في كتب الحديث عندهـم لا يَدلُّ على اعتقاد المؤلّـف بمفاده، بل الأحاديث تتنـوَّع عند هذه الطائفة إلى صحيـح وحَسَن، وموثَّق، وضعيـف، ولكلٍّ واحدٍ من هذه الأنواع أحكامٌ خاصّة، ودرجةٌ خاصّة من الاعتبار، وقد جاء بيان ذلك على وجه التفصيل في علم الدراية.

المفاهيم الرئيسة

- روايات الشيعة الإمامية فـي العَقائد والأصول مرويّة عن رسولِ اللّه ﷺ عن طريق ثقات يُعتَمَد عليهم.
- إنّ الفقه الشيعيَّ الإماميَّ يقوم على الكتاب والسُّنّة، والعقل، والإجماع.
- إنّ الأحاديـث والرّوايات التي تُنْقَل عن أئمة أهـل البيت المعصومين بأسنادٍ صحيحة، حجّةٌ شرعيّة، ويجب العمل بمضمونها، والإفتاء على أساسها.
- كلُّ ما يُنقَلُ عن المعصومين حقائق حَصَلوا عليها من الطُّرُقِ التالية:
  1. النَقْل عن رَسُول اللّه ﷺ.
  2. الرواية من كتابِ عليٍّ عليه السلام.
  3. الإلْهاماتُ الإلهيّة.
- إنّ الأحاديـث النَبَويّـة تحظى باعتبـارٍ خاصٍّ، مثل القـرآن الكريم، فالكتاب والسُّنّة كانا ولا يزالان من مصادر المسلمين الاعتقاديّة والفقهيّة.
- الكتـب الأربعـة الجامعة: «**الكافـي**»، «**مَـنْ لا يَحْضـرُه الفقيـهُ**»، «**التَهذيب**» «**الاستبصار**».

أسئلة الدرس

1- ما هي الطرق التي تعتبر مصدر علم الأئمة عليهم السلام؟ اذكرها وتحدّث عن اثنتين منها بالتفصيل.

2- ما الكتب الأربعة عند الشيعة؟ اذكرها مع أسماء مؤلفيها؟

3-تحدّث عن الإلهامات الإلهية ودورها في التشريع؟.

التقليد

يجب على كلّ مسلم أن يحصِّلَ على اليقين في المسائل التي يجب أن يعتقدها، ولا يجوز له اتّباعُ الآخرين في هذه المسائل من دون أن يحصل له اليقين.

وحيث إنّ أُمّهات الأصول وكلّيات المسائل الاعتقادية محدودة ومعدودة ولكلّ منها أدلةٌ عقليةٌ واضحةٌ، لهذا فإنّ تحصيلَ اليقين للأشخاص في أُصول الدين وأساسيات العقيدة، قضيةٌ سهلة، في حين أنّ نطاق الفروع والأحكام الفقهية لما كان واسعاً جداً، والعلم بها يحتاج إلى مقدمات كثيرة، لا يقدر أغلبُ الأفراد على تحصيلها، لهذا فإنّ على أُولئك الأشخاص - بحكم الفطرة، وتبعاً لسيرة العقلاء - أن يرجعوا في أحكام الشريعة إلى العلماء والمجتهدين، ليقوموا في ضوء ذلك بواجباتهم الدينيّة، ووظائفهم الشرعية.

إنّ الإنسان - في الأساس - فاعلٌ علميٌّ أي إنّه يقومُ بأعماله على أساس العلم والمعرفة، فإذا تيسَّر له أن حَصَل بنفسه على تلك المعلومات أَخَذَ بها وعمل على ضوئِها، وإلاّ استعان بغيره.

وهنا لا بدّ من أن نعلم بأنّ التقليد للمجتهد الجامع للشرائط والرجوع إليه لمعرفة الوظيفة الشرعية، هو نوعٌ من الرجوع إلى المتخصّصين، ولا علاقة له بالتقليد الأعمى الناشئ من العصبيّة القوميّة، أو العرقية أو ما شاكل ذلك.



دروس في أصول الدين

على ضوء الكتاب والسنّة

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
بيروت ـ لبنان ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 01/471070 فاكس: 01/476142
www.almaaref.org
Email:info@almaaref.org

1001072